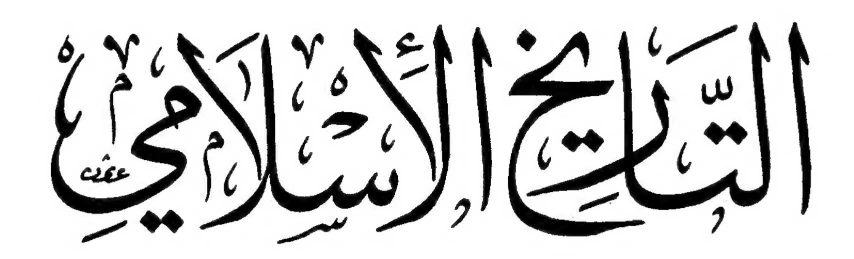


— ٩ —

مفاهيم حول الحكم الإسلامي

محمود شاكر

المكتب الإسلامي

الطبعة الرابعة

١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

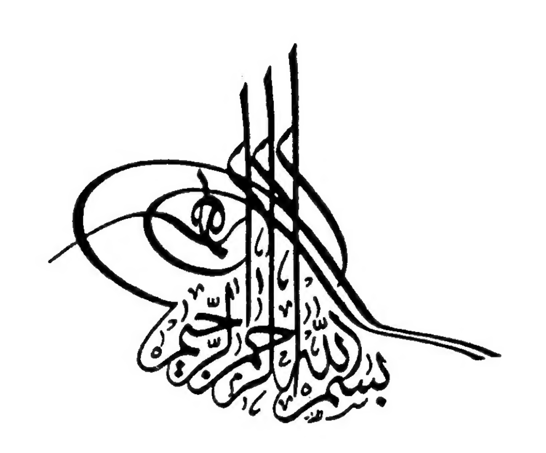
المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ ـ هاتف : ٤٥٦٢٨٠ (٠٥)
دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ ـ هاتف : ١١١٦٣٧
عمان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ ـ هاتف : ٤٦٥٦٦٠٥



— ٩ —

مفاهيم حول الحكم الإسلامي


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الكريم محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه ومن سار على دربه واهتدى بهديه إلى يوم الدين.

أما بعد:

فقد جاء الإسلام إلى البشرية بمفاهيم جديدة تختلف عما أَلِفته المجتمعات الجاهلية السائدة في ذلك الحين. وربما كانت بعض المفاهيم المعروفة يومذاك خيّرة اتفقت مع ما جاء به الإسلام فاستمرت في المجتمع الإسلامي على أنها من الإسلام لا أن الإسلام قد أقرّها وأبقاها، فالإسلام كامل في هديه تام في منهجه، وإذا ما اتفق مع بعض المناهج في جانبٍ من الجوانب فذلك أن النفس البشرية قد هُديت طريق الخير، وفيها نوازع للشرّ، فإذا ما انطلقت ببعض طريق الخير بحكم فطرتها كانت منسجمة مع الإسلام. وإذا ما سارت في طريق ما تنزع إليه فإنما سلكت غير سبيل الإسلام. فالاتفاق في جانبٍ ليس إقراراً من الإسلام، ولا سلوك الجاهلية لجانبٍ إسلامي. والمفاهيم الجديدة إسلامية سواء اتفقت في بعض النقاط مع غيرها أم اختلفت. فتكريم الوالدين، والحفاظ على حرمة الجار وإكرامه، وإكرام الضيف و... لم يُقرّها الإسلام لأنها كانت سائدةً في المجتمع الذي جاء فيه أو لأنها من مكارم الأخلاق، بل جاء بها، وهي من أصل تعاليمه، وقد اتفق في هذه النقاط مع بعض ما نزعت نفوس الجاهليين إلى الخير والفطرة السليمة. يتفق الإسلام مع النظام الرأسمالي في حرية الملكية وليس معنى ذلك أن الإسلام رأسمالي إذ يختلف النظامان بعد

ذلك في بقية الجوانب ويتنافران، وليس معنى ذلك أيضاً أن النظام الرأسمالي قد أخذ مبدأ الاعتراف بالملكية من الإسلام. ويتفق المنهج الإسلامي مع النظام الشيوعي في تحريم الربا وبعض نقاطٍ من حقّ مراقبة الدولة، ولا يعني هذا أن الإسلام شيوعي إذ يتناقض بعدئذ النظامان تماماً، كما أن هذا لا يعني أن الشيوعية قد أخذت تحريم الربا من الإسلام. وكذلك الوضع بالنسبة إلى الإسلام مع المجتمع الجاهلي ووجود بعض نقاط الالتقاء. وهذه نقطة أعدّها مهمةً جداً.

تمثّل المسلمون الأوائل المفاهيم الإسلامية تمثّلاً كاملاً، وطبّقوها في حياتهم، وكان سلوكهم صورةً واضحةً عنها، واستمرّ هذا طيلة أيّام النّبوة والعهد الراشدي، ثم بدأت تنحسر عن السلوك ببطءٍ تدريجيٍ حتى ضعف المسلمون وزال سلطانهم نهائياً، ولكن هذه المفاهيم بقيت معروفةً نظرياً. أمّا في العصر الحديث فقد انتهى تطبيقها في الحكم تماماً، وبقيت قائمةً عند القليل، وإن استمرت معرفتها نظرياً بين نسبةٍ من أبناء الإسلام، ولكن في الوقت نفسه ظهرت مفاهيم جديدة تُخالف الإسلام، وتبنّاها بعض أبناء الإسلام ـ مع الأسف ـ وبشكل طبيعي أعداؤهم الذين يعيشون بينهم من أبناء الأقليات وهم من غير المسلمين، وأصبح الصراع واقعاً لا محالة بين أبناء الإسلام وأعدائهم أو بالأحرى بين المفاهيم التي يحملها هؤلاء والتي يتبناها أولئك، ولكن ـ مع الأسف ـ لم يتمثّل أبناء الإسلام المفاهيم الإسلامية، ولم يُطبع سلوكهم بها كي تُعطي صورةً صادقةً عنها فيتقبّلها الناس ويُقبلون عليها، ومن ناحيةٍ أخرى، وهي الأدهى والأمرّ، فقد تمكّن الأعداء في الآونة الآخيرة وفي أشد الأوقات حاجةً إلى المنظمات الإسلامية وإلى القيادات الإسلامية الرائدة التي تتمثّل الإسلام وتحمله بصفاء تمكّنوا من احتوائها والسير بها في طريقهم المنحرف، وأعلنوا ذلك كي تسقط القيادات، وتسقط المنظمات وبالتالي تسقط المفاهيم التي يحملونها والتي لا تزال معروفةً نظرياً. لقد احتوي أكثر زعماء أكبر منظمةٍ إسلاميةٍ في المنطقة العربية، بل بقوا في جعجعةٍ دائمةٍ يُظهرون العمل للإسلام زيادةً في التمويه على شباب الإسلام والعاملين له، حتى أن أحدهم قد زعم أن الحكم

الإلحادي في بلدٍ يعمل للإسلام، ويضمّ أبناءه، ويحمي حماه، وذلك بسبب ارتباطه به، وعمل مع عددٍ من الزعماء المنتفعين جبهةً مع ذلك الحكم الملحد، فأُعيد الاعتبار لمن لفظهم الشعب، وأفتى المنتفعون بشرعية العمل مع الملحدين أو ادعوا أن بعض العلماء قد أفتى لهم بذلك زوراً وبهتاناً. وأعلن بعض المغفّلين الذين يبدو عليهم الصلاح عدم صحة مثل هذا العمل، فلما تمّ أصدر نشرةً بصحة ذلك شرعاً مقتبساً بعض النصوص الشرعية، واستشهد فيها بغير مكانها، إيهاماً للشباب ودجلاً، وهذا التصرّف سواء أكان من الأعداء أم من الأدعياء ليستمرّ الخداع، ثم تهوي المنظمات والدعاة معاً، ويصفو الجو للأعداء. وليس الاحتواء غايةً ولكنه وسيلة لأنه ستظهر منظمات جديدة، وقيادات جديدة، وستستمر الفكرة في طريقها ولكن الغاية تهديم الأفكار وفضح حامليها مع استمرارية قيادتهم والمناداة بفكرتهم رغم احتوائهم وانقيادهم لغيرهم.

قلت: إن المفاهيم الإسلامية قد سادت تطبيقاً وسلوكاً في صدر الإسلام، غير أنها قد بدأت تضمر عن ساحة التنفيذ حتى الوقت الحاضر، غير أنها بقيت معروفة نظرياً وربما أضحت كلاماً، إذ نستطيع أن نقول: إن صحابة رسول الله ﷺ، كانوا يعرفون المفاهيم في التطبيق دون الحديث عنها ومن غير فلسفة في تصوّرها وعرضها، أما المسلمون اليوم فيعرفونها خطابةً وحديثاً وفلسفة أكثر مما عرفها الأوائل ولكنهم لا يُجيدون شيئاً من العمل بها، وهذه المعرفة والخطابة لا تُصرف في سوق التنفيذ، أي كلام بلا عمل. فما يقوله الأوائل نقوله غير أن كلامهم يُحوّل إلى عمل ويبقى كلامنا في الهواء، ونحن وإياهم كورقتي نقد إحداهما أصلية تُمثّل الأوائل من المسلمين والثانية مُزيّفة تمثّل رجال عصرنا، ورغم أن كلتاهما تحمل الرسوم نفسها والأشكال نفسها، يذهب حاملاها إلى سوق العملة فيصرف الأول ما يحمل، ويُقبض على الثاني لحمله ورقةً مُزوّرةً وهذا القبض هو إمكانية الاحتواء فلو كان صادقاً لصعب احتواؤه، ولكن أكثرهم يقول مُتاجراً همّه الربح فيقع في الفخ، أو هو يريد هذا.

إن هذه المفاهيم التي كانت قائمةً لا تزال معروفةً فيمكن تنفيذها

وتطبيقها ولكن نحن بحاجةٍ اليوم إلى الصدق والإخلاص في العمل كما كان هذا قائماً في السابق أو أن هذه المفاهيم يجب أن تُترجم إلى عمل. وقد اخترت عدداً من المفاهيم الإسلامية، وأعطيت فكرةً عنها، وما آلت إليه الآن، وكررت فيها بعض النقاط لا للتأكيد عليها فقط لما لها من أهمية، وإنما لتداخلها بعضها مع بعض. وألمحت إلى بعضها الآخر تلميحاً إشارةً لما فيها من المرونة. وليست هذه المفاهيم هي كل ما يجب طرحه والتأكيد عليه فلربما كانت هناك مفاهيم أخرى أكثر أهميةً، ومن الضروري بمكان توضيحها، ولفت النظر إليها، والبحث فيها، لتتثبت في النفوس أيضاً، ولكن الرغبة في الاختصار، والسرعة في الموضوع جعلني اقتصر على ما عرضت.

إن الهدف من هذا العرض التأكيد على هذه المفاهيم لتصبح بدهيةً عند المسلمين، ويسعون كي تكون يقينيةً، ويدعون إليها بحماسةٍ، ويردّون ما تسرّب إلى المجتمع من مفاهيم مستوردة لإزاحتها من مكانها، وزلزلتها من نفوس حامليها، واستبدالها بهذه المفاهيم الإسلامية.

لقد عرضت بعض هذه المفاهيم في القسم الأول من هذا الكتاب بعد أن وضعت موجزاً عن مراحل التاريخ الإسلامي.

أمّا القسم الثاني فقد عرضت فيه الدستور الذي يمكن أن تعتمد عليه الدولة الإسلامية المرتقبة بناءً على هذه المفاهيم، بناءً على اجتهادٍ مني، إذ من الضروري مناقشة الموضوع وإضافة موادٍ أو حذف بعضها وتعديل أخرى.

ونسأل الله التوفيق وسداد الخطا، والبعد عن الزيغ، وعدم التعصّب للرأي أو لجماعة، والإخلاص في العمل لله وحده، وهو نعم المولى ونعم النصير.

١٢ ربيع الأول ١٤٠٦

محمود شاكر

مُوجز عن التاريخ الإسلامي

أسّس رسول الله ﷺ، الدولة الإسلامية في المدينة المنوّرة، إثر وصوله مُهاجراً من مكّة المكرّمة، وقامت هذه الدولة على أسس العدل والمساواة والحبّ والإخاء، وكان الوحي ينزل على رسول الله ﷺ، يُكمل المنهج، ويُتمّ النظام الذي يجب أن يسير المسلمون على خُطاه. وعاش الناس في هناءٍ وسعادةٍ، وبدأ المسلمون بتحقيق الاستخلاف في الأرض. واستمرّت هذه المرحلة أكثر من عشر سنواتٍ انتقل بعدها رسول الله ﷺ إلى الحياة الآخرة.

العهد الراشدي ١١ ـ ٤٠:

وقامت دولة الراشدين، وسارت على ما رسمه رسول الله ﷺ، وقضت على المرتدّين، وسلكت سبيل الصلاح، وقامت الفتوحات الواسعة، وانتشر الإسلام، وقضي على الظلم والفساد في البلاد التي فتحوها، وجاءت الغنائم، وعاش الناس في بحبوحةٍ من العيش، فاستمرّت سعادتهم ودام عليهم هناؤهم، فلا شيء يحدث في المجتمع مما يُنغّص في العلاقات الإنسانية، واستمرّ هذا ما يزيد على ربع قرن. ثم لعبت السبئية دورها الماكر لتهديم الإسلام، ولم يعرف المسلمون هذا الخبث، فحدثت فتنة بقيت آثارها عدة سنواتٍ، ثم انتهت وانتهى معها العهد الراشدي.

العهد الأموي ٤١ ـ ١٣٢:

وجاء الأُمويّون، وحكم معاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنهما، ما يقرب من عشرين سنة عادت فيها إلى المسلمين الطمأنينة، الأمر الذي أثار

حقد الأعداء فبدأت الفتنة التي خشيها معاوية، رضي الله عنه، بعده فولّى ابنه يزيداً خلفاً له ليقي المسلمين شرّ الفتنة، فقد وجد أن أبا بكرٍ قد عهد لعمر خوفاً من الخلاف، واقتُرح على عمر ابنه عبد الله ليُولّيه للسبب نفسه فرفض، واقتُرح على عليّ أيضاً ابنه الحسن خوفاً من تفرّق المسلمين، فقال: لا آمُركم به ولا أنهاكم. ومع أن يزيداً كان قوياً شجاعاً شاعراً مرهف الحسّ إلا أنّ الفتنة كانت أكبر منه فكوته بالحديث عنه وبالإشاعة ضدّه حتى غدا ذلك هو المعروف عنه فقط، ومات في شبابه، واختار بنو أمية ابنه معاوية الثاني تهدئةً للفتنة حسب اجتهادهم لهدوئه، ولكنه لم يُفلح فلما رأى أن الفتنة مستمرةً دعا الناس إلى المسجد، وأعاد إليهم البيعة، وترك لهم الأمر شورى. ولم يكن ترك الحكم تخفيفاً للفتنة كما ظنّ بعضهم ولا يزال يظن الكثير إلى الآن، لأنّ للفتنة مُحرّكين لهم أهداف وغايات. وبويع عبد الله بن الزبير، رضي الله عنهما، في مكّة المكرّمة، وبايعه المسلمون في ديار الإسلام باستثناء البلقاء (الأردن) حيث خرج عليه مروان بن الحكم فوَسَّع نفوذه، ثم ابنه عبد الملك الذي استطاع انتزاع الخلافة، وقتل ابن الزبير، رضي الله عنه، مُستغلاً درايته بشؤون السلطان وعدم خبرة ابن الزبير. وأصبح الحكم بعدها وراثياً في بني أُميّة ظنّاً منهم أنّ في ذلك نهايةً للفتنة التي تحدث عند كل بيعة. واستقرّ الوضع وهدأت الأحوال، فقامت الفتوحات الواسعة، وتحسّنت أوضاع الناس، وعادت إليهم السعادة والهناء، واستمرّ هذا ما يقرب من خمسين سنة.

وعزّ على أعداء الإسلام أن يتمّ هذا فأشاعوا الشائعات ضدّ الأمويين، وادعوا أن الأمويين أصحاب عصبيةٍ عربيةٍ ويُخالفون بذلك الإسلام، ولم يكن شيء من هذا، إذ لم يمض وقت طويل على دخول غير العرب بالإسلام حتى يتفقّهوا بالدين الأمر الذي يُخوّلهم القيادة حيث كانت القيادة لأهل العلم من ذوي الشجاعة لأنه الإمام لجنده والقاضي لهم، لذا بقيت في الغالب حتى ذلك الوقت بيد من تمرّس عليها من العرب، ومع ذلك فقد وجدت قيادات من غير العرب ممن نالوا حظًّا من الثقافة الإسلامية،

ولم يحل أحد دون استلامها، وطارق بن زياد شاهد على ذلك. ولم تكن القيادات الإدارية والعسكرية هي التي تحتلّ المركز الأول في المجتمع كما يتوهّم أصحاب الأطماع، وإنما كانت المنزلة العلمية والدينية هي التي يتمتّع أهلها بالمركز والشأن، وكان الكثير منها بيد غير العرب إن لم نقل أكثرها، غير أن بقية المؤهلات لم تتكامل فيها لتسلم المناصب العسكرية والإمرة. وعبد الله بن مسعود، وأبو ذر الغفاري، وأبو هريرة من أصحاب رسول الله ﷺ، من كبار أهل العلم، ولكن لم يُؤهّلوا للقيادات التي تسلّمها أبو عبيد الثقفي، وعثمان بن أبي العاص، وعتبة بن فرقد وغيرهم. ولكن الواجهة أمام الناس هي الإمرة والقيادة.

وأما موضوع أخذ الجزية ممن أسلم فقد وقعت حادثة واحدة، وقع فيها خطأ في الاجتهاد فأقام الأعداء عليها الدنيا وأقعدوها، وعمّموها على كل بني أُميّة، وحدثت أيام عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ فردّ عليها بعبارته الخالدة: «إن الله بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جابياً»، وإن خلود العبارة قد خلّد الحادثة فغدت حقيقةً عامةً عند العامة وأهل الأهواء.

ولم يكن بنو أُمية أصحاب استهتار كما وصفهم الأعداء وصاغوا حولهم الأباطيل، فإن ما أشاعوه عنهم لم يقبله عقل عن رؤساء العصور المتأخّرة فكيف يقبله مؤمن عن عصر فيه الصحابة وفيه التابعون؟ عن عصرٍ قال فيه رسول الله ﷺ، أنه من خير القرون بعد قرن رسول الله ﷺ.

وأما البطش والقسوة التي ظهرت من بعض الولاة كزياد ابن أبيه وابنه عبيد الله، والحجاج بن يوسف و. . . فإن من اعتاد على الفتنة لا تردعه إلا القوة، وهؤلاء ولاة منطقةٍ واحدةٍ تعوّدت على الفوضى وإثارة الشغب، ولم يظهر البطش في ولاة منطقةٍ ثانيةٍ. وحماية الدولة لا بدّ لها من قوةٍ فلا يُثار الشغب إلا على الضعيف، ولا تضع الفتنة قرنها إلاّ في المكان الذي لا حماية فيه ولا رادع. ولا يُستهتر إلا بالمستكين. كما لا يصحّ وجود خليفتين في آنٍ واحدٍ في ديار الإسلام. وقد أُمر المسلمون بقتل الثاني إن لم يرعوِ، واجتهد أنصار الدولة الأموية أن ابن الزبير، رضي الله عنهما، هو

الخارج على الحكم، الثائر على الخلافة، وهو اجتهاد خاطئ إذ هو الخليفة الشرعي، وقد قاتلوه بناءً على اجتهادهم.

وعلى الرغم من أن أعداء بني أُميّة يطالبون أن يُخصّوا بالخلافة دون غيرهم، في حين أنهم يحملون على بني أمية استئثارهم بالسلطة، ونحن نأخذ هذا على كليهما، ونخصّ بني أمية إعطاءهم ولاية العهد لأكثر من واحدٍ ومن غير استثناء الصغير والضعيف الذي لا يقوى على تحمّل الأعباء وهو مما أضعف دولتهم وفسح المجال لتتحدّث الألسن، وتُسجّل الأقلام ما تشاء، تدفعها الأهواء.

وفي أيام الأُمويين، عُرّبت الدواوين، وشُكل المصحف، ووجد تنقيط الحرف العربي، وأُحييت الأرض الموات، وقامت الفتوحات، وعمّ الرخاء، وعاش الناس بسعادةٍ تامّةٍ وما يُغلّف هذا إلاّ ما أُشيع حول فئةٍ قليلةٍ هي الحاكمة ومع كذب هذه الشائعات فلننظر إلى المجتمع وما يسوده من هناءٍ ورخاءٍ وما أنتجه أبناؤه من فتح، ومن علمٍ عندما كان يتوقّف الفتح وهذه إشارة السعادة ودلالتها، فالحضارة لا تنتج إلا نتيجة الأمن والاستقرار ومع الشعور بالراحة والسعادة.

ولا شك فإن الخطّ البياني للمنهج الإسلامي قد هبط قليلاً عما كان عليه أيام الراشدين، ومع ذلك فإن مخالفة أحكام الإسلام لم تكن واردةً، وإن وجدت فإنما هي على حين غفلةٍ من المسلمين، وبتكتم شديد سواء أكانت من بعض المسؤولين أم من الرعايا. فالإسلام هو الذي كان يحكم أيام الأمويين والسعادة والرخاء كان يتمتّع بهما المجتمع.

العهد العباسي ١٣٢ ـ ٦٥٦:

وقامت الدولة العباسية، واستمر تطبيق المنهج الإسلامي إن لم نقل إن الخط البياني قد ارتفع نسبياً في المرحلة الأولى على الأقل. ولما لم ينل الأعداء ما يبغون بدأ الهجوم على الدولة العباسية بشكلٍ أقوى، بل يبدو عليه التضارب نتيجة الانفعال حيث لم يحقق المخططون أو الخصوم ضالتهم.

لم تقم الدولة العباسية على أيدي الموالي، ولم تكن شعوبية، كما هو عالق في أذهان الناس. كانت الكوفة مهد الدعوة العباسية الأول وهي في المنطقة العربية وليس في المنطقة الفارسية، وكانت (مرو) المركز الثاني لا لأنها حاضرة المشرق فحسب بل للصراع القائم بين القبائل العربية من قيسيةٍ ويمانية فيها فاستُغلّ هذا الصراع، إذ وقفت اليمانية بجانب الدعوة للعباسيين، وتُشكّل أكثرية العرب هناك. وإن معظم الدعاة كانوا من العرب إضافةً إلى أن صاحب الدعوة كان عربياً فكيف قامت الدعوة على أكتاف الفرس؟ وكيف كانت شعوبية؟ والواقع أن أعداء الإسلام لما اتهموا الأمويين بالعصبية كان عليهم أن يسموا خصوم الأمويين، وهم العباسيون بالشعوبية كنقيضٍ للعصبية.

لعلّ الأعداء قد انتبهوا إلى ما في أقوالهم من مجانبةٍ للحقّ والواقع فأرادوا أن يُبرروا أقوالهم بأحداثٍ جديدةٍ دون اعترافهم بالخطإ فادّعوا أن الخلفاء، وهم من العرب عندما وجدوا سيطرة العنصر الفارسي وقفوا في وجهه، وقتلوا رؤوسه، وضربوا أمثلة بقتل أبي مسلم الخراساني، والبرامكة، وهذا اعتراف صريح بأن القوة بيد العرب فالخليفة وحده لا يضرب، ولا يُقدّم، ولا يُؤخّر ولكن الذين بجانبه كانوا هم القوة الرئيسية وهي التي نفّذت القضاء على الفرس فهي ليست منهم وإنّما من العرب، فالفرس لم يكونوا أصحاب القوة، ولم تعتمد الدولة عليهم فقط، ولم تكن شعوبية. ومن ناحيةٍ ثانية ففي الوقت الذي قضى الخلفاء على أبي مسلم الخراساني قد قضوا على عمّهم عبد الله بن علي أحد عظماء قادتهم، ومؤسسي دولتهم، فالحكم لم يعرف قريباً أو بعيداً عربياً أم غريباً بل يعرف المؤيّد والمنافس فيدعم المؤيّد ويضرب المنافس أيّاً كانت جنسيته أو انتماؤه.

عاد الأعداء فناقضوا أنفسهم مرة أخرى فقالوا عندما سيطر الترك والأعاجم عامة ضعفت الدولة، وانتهى دور القوة أي أن المرحلة الأولى أو دور القوة كانت السيطرة للعناصر العربية، لا للفرس كما زعم الأعداء،

ومع أننا لا نقرّ العصبيات، ولا نعترف بها إلاّ أننا نقول: إن ما أشاعه الأعداء عن شعوبية الدولة العباسية وعن أثر الفرس غير صحيح، وإنما كان المنهج الإسلامي هو السائد، وهو ما أزعج الأعداء، فأشاعوا الشائعات، وتحدّثوا بما تناقله العامة حتى غدا عندهم يقيناً ووصل إلى أدعياء العلم عن طريق العامة.

لقد عاش المجتمع الإسلامي في سعادة في العصر العباسي الثاني، ومع توقّف الفتوحات انصرف الناس إلى العلم فأنتجوا علماً في مختلف الفنون، وكان المنهج الإسلامي هو السائد، وإن استمر هبوط خط بيانه ولكن كان نزوله ببطءٍ. وأكثر الناس سعادةً من كان بعيداً عن الساحة التي تُسلّط عليها الأضواء من الرجالات فهؤلاء تُسلّط عليهم الأضواء في الخير وفي الشرّ، ولكن في تاريخنا الإسلامي سُلّطت الأضواء على جوانب الشّر لأن الأضواء بيد الأعداء فلم يُدوّنوا إلا ما تهوى أنفسهم، وتطمع إليه أهواؤهم.

وجاء دور الضعف إلى الدولة العباسية وظهر الأعداء هنا بمظهر العصبية والمدافع عن العصبية العربية، فادّعوا أن الضعف قد حلّ في الدولة باختفاء السيادة العربية التي زعموا أنها لم تكن موجودةً في الدور الأول ولا أدري كيف جاءت وبرزت واختفت فجأةً! أو أنها اختفت من غير وجود! وحدث الضعف نتيجة سيطرة عناصر أعجمية من تُرك وبويهيين وسلاجقة ولم يكن للعرب أي دور. الواقع أن الضعف قد حلّ بالدولة ولكن لا لسيطرة عنصر من العناصر وزوال آخر، وإنما لكثرة الزعامات التي وجدت، والتي كانت تتناحر فيما بينها، وكل زعامةٍ تخرج حسب جنسية أبنائها، فالمنطقة العربية يخرج منها زعماء عرب وهو شأن كثيرٍ من البلدان التي استقلت أو انطلقت منها زعامات، والمناطق الشرقية من الدولة خرج منها زعماء من أبنائها سواء أكانوا من الأفغان أم من الفرس أم من الترك، وقد يكون من أصلٍ عربي وقد استقرّ بمنطقةٍ في المشرق عظم شأنه فخرج يريد الإمارة كالحسن بن زيد في طبرستان، ولما كانت العراق في منطقة الحدود بين بلاد العرب وبلاد الأعاجم فمن المحتمل أن يُسيطر عليها هؤلاء أو

أولئك، ولما كانت بغداد مركز الخلافة فهي محطّ الأنظار ومطمع الزعماء، ولما كانت المدنية لم تُغير من طابع أهل المشرق كثيراً، ولم تحط من عزيمتهم لذا فهو أكثر صلاحاً للقتال، وأكثر صبراً في الميدان، وقد استطاعوا من السيطرة على بغداد مجموعة إثر مجموعة فتمكن الترك من حكمها، ثم البويهيون، ثم السلاجقة على حين سيطر العرب الحمدانيون على الموصل، والبريديون على واسط.

كان مع كل صاحب نفوذٍ قوة يُقاتل بها، وهي كالقوة العسكرية إن لم تكن هي، فالحكم أصبح تناحراً بين العسكريين، والخليفة بشكلٍ طبيعي ليس له إلاّ الاسم في أفضل الحالات إذ كان يُلعب به في أغلب الأوقات. وهذا سبب الضعف الحقيقي الذي آلت إليه الدولة.

ومع كثرة أصحاب النفوذ وتناحرهم ومع امتداد سلطة أحدهم على منطقة الآخر زادت الإقطاعيات، وزاد الترف، وزاد التفاخر في الأملاك و.... الأمر الذي زاد معه الفساد، ووقعت مخالفات، فقامت حركات كردّ فعل، وكانت مارقةً من الدين كحركة الزنج والقرامطة، وما أمكن القضاء عليها إلا بالحل الإسلامي. وبقيت المفاسد عند المسلمين خفيّة وقليلة لا يمكن المجاهرة بها لذا بقي الضرر والانحراف مقصوراً على أصحابها، وظلّت بقية عناصر المجتمع بعيدةً تسير على الخطّ الإسلامي، وقد أفاد بعضهم من الناحية المادية فانصرفوا إلى العلم وقلّد ذلك الآخرون حتى ولو كانوا فقراء وقد زخرت هذه المرحلة بشتى أنواع العلوم، ومع بقاء سيطرة المنهج الإسلامي إلا أننا نستطيع أن نقول: إن الخط البياني لسير المنهج الإسلامي قد سقط درجةً أو هوى سقطةً مع بقائه ظاهراً.

إن الضعف الذي أصاب الدولة قد أطمع فيها الأعداء فجاء الصليبيون من الغرب، وأحرزوا بعض النصر، ونزل الخط البياني لسير المنهج الإسلامي درجةً أخرى، ولكن بقيت قوة المسلمين لا تُستهان، وإن كانت كامنةً، وعندما انطلقت من عقالها تحت تأثير الدعوة إلى الجهاد تمكّنت من طرد الصليبيين، لكن الفساد بقي يستشري إذ لم يلبث أن عاد الضعف من جديد.

وجاء المغول من المشرق تحت تأثير النقمة، والسلب، وتشجيع الصليبيين، غير أنهم وجدوا مقاومةً عنيفةً بسبب القوة الكامنة في الإسلام ولولا الخيانة من سكان البلاد من الشيعة لما استطاع هولاكو من دخول بغداد. وسقطت الدولة العباسية غير أن المنهج الإسلامي لا يزال يُطبّق، ولا تزال في الإسلام قوة، وإن بدأ الخط البياني للضعف ينحدر.

واستمرت هذه المرحلة مدة طويلة تقترب من خمسة قرون وربع.

العهد المملوكي ٦٥٨ ـ ٩٢٣:

وحمل المماليك في مصر المسؤولية، فأثاروا حمية الناس، ورفعوا لواء الجهاد، وتمكّنوا من وقف المد المغولي، ثم انتصروا عليهم، ونصّبوا خليفةً في القاهرة من أسرة بني العباس، كان صورةً، وهم يتصرّفون باسمه، ويحملون لقب «سلطان».

وتُعدّ هذه المرحلة من أغنى المراحل بالعلماء، وبناء المساجد، إذ كان هؤلاء المماليك يسمعون من العلماء، ويعطونهم حقّهم، ويكفي أن نعرف أثر العزّ بن عبد السلام، وابن تيمية. وكان التفاخر بينهم في عمران المساجد، وفي هذا بقاء لحفظ الذكر.

استمرّ تطبيق المنهج الإسلامي رغم المخالفات التي كانت تحدث، ولكنها في كتمانٍ شديدٍ خوفاً من أهل العلم وإقامة الحدّ، كما كانت محصورةً في فئةٍ من المماليك عندما يكون كبيرهم ضعيفاً يتحكّمون به، أو بين أُناس في مستوى متدنٍ.

واستمرت هذه المرحلة أكثر من قرنين ونصف.

العهد العثماني ٩٢٣ ـ ١٣٤٢:

وحمل العثمانيون الأمانة، وكان المستوى العلمي عندهم ضعيفاً، فما

عرفوا الخلافة قبلهم إلا وراثيةً فساروا على ذلك، فضمّوا أجزاء من ديار الإسلام تحت رعايتهم، وحموها من الوقوع بأيدي الصليبيين الذين بدؤوا يسيطرون على مناطق واسعة في قارتي إفريقية وآسيا. وهذا ما سبَّبَ حقداً زائداً عليهم من الصليبية العالمية وخاصةً من روسيا لقرابتهم من التتار الذين كانوا يحكمون روسيا، وهم من المسلمين أيضاً، ولفتحهم القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية وحامية المذهب الأرثوذكسي النصراني الذي يدين به الروس، ولتسلمهم المضائق حيث يحولون بين الروس والوصول إلى المياه الدافئة، ولأن وسط آسيا تقطنه قبائل تركية، وهو المجال للتوسع الروسي، كما أن دول غربي أوربا الصليبية اشتدّ حنقها على العثمانيين حيث حالوا بينهم وبين السيطرة على بلاد المسلمين، هذا إضافة إلى الحقد الصليبي على المسلمين عامةً ومنهم العثمانيون.

هذا الحقد الشديد على العثمانيين من قبل الصليبيين قد جعل حرباً مستعرةً دائمةً ضدّ الدولة العثمانية إضافةً إلى الحرب المعنوية التي شنّها الصليبيون سخريةً وهزءاً على العثمانيين وحكمهم، وقد استفادوا من ضعف الدولة العثمانية، والتأخّر العلمي في بلادها، والقوة الأوربية، والنهضة العلمية في أوربا، مع دعم الفئات النصرانية المقيمة في البلاد العثمانية والأقليات الأخرى مع من استغرب من المسلمين وقلّد النصارى، ورغب في السير على منهجهم، وهذا ما أثّر على نفسية السكان، وبدأت الهزيمة النفسية تظهر وتتسع مع الزمن، وتزداد الدولة ضعفاً، والعلم تأخّراً، وتزداد أوربا قوةً والعلم تقدّماً فيها حتى كانت الحرب العالمية الأولى فهزمت أوربا الدولة العثمانية، ودخل الصليبيون أجزاء منها بعد أن تقاسموها حتى وصلت الحالة إلى الحضيض، فساعد هذا في إلغاء الخلافة.

كان المنهج الإسلامي يُطبّق في هذه المرحلة مع جهلٍ في التطبيق، وانحرافاتٍ تزداد مع الزمن وإن كانت مخفيةً إلاّ أن المجتمع يحسّ بوقوعها، وما انتهى الحكم العثماني حتى غدت المجاهرة بها تحدث

أحياناً. ومع انتهاء هذه المرحلة انتشرت المفاهيم غير الإسلامية ودخلت في صراع معها، واستبدّ غير المسلمين بالمسلمين، وأشدّ من هذا الاستبداد استبداد من استغرب من المسلمين، وارتبط مع أعداء المسلمين، وكانت شدته قاسيةً دليلاً على بعده عن الإسلام، وعدم مهادنته لأهله، وتملّقاً لأعداء الإسلام، ومن ناحية ثانيةٍ أوكل الصليبيون غيرهم ليقوم بمهمتهم، ويروي غليلهم، ووقفوا ينتظرون ويُحرّكون الصور على شاشة العرض يُقدّمون من شاءوا، ويُنحّون من رغبوا، ويُوقفون من رأوا في مكان الانتظار كي يأتي دوره، ويدّعون بعدئذ أن الأحداث داخلية تقع بين المسلمين بعضهم مع بعض. ونكون في هذا الوقت قد انتهينا من التاريخ الإسلامي الذي كان يُطبّق فيه المنهج الإسلامي، وتسود المفاهيم الإسلامية، ودخلنا في التاريخ المعاصر حيث أبعد المنهج الإسلامي، وسادت مفاهيم غير إسلامية.

* * *

ومن هذا الموجز السريع نرى أن المنهج الإسلامي قد نُفّذ تماماً في عهد رسول الله ﷺ والعهد الراشدي، ثم بدأ الخط البياني بالهبوط تدريجياً بدءاً من العهد الأموي حتى نهاية العهد العباسي ثم زاد هبوطه أيام المماليك والعثمانيين مع بقاء تطبيقه ووجود مخالفات كانت تتم بالسرّ وفي إطار مجموعةٍ صغيرةٍ وعلى خوفٍ شديد ولا تنجو من العقوبة إن وصلت إلى يد القضاء، وهذا ما يُؤيّد التطبيق، والعمل بالشريعة.

أما أعداء الإسلام فيرون أن الإسلام لم يُطبّق إلا مدة ثلاث وعشرين سنة أيام رسول الله ﷺ، وصاحبيه أبي بكر وعمر، رضي الله عنهما. أما ما بقي فكانت الأحكام غير نافذة، وما قصدهم إلا ليقولوا أن أحكام الإسلام غير صالحة. ويوافقهم من استغرب من المسلمين متأثراً بما كتب المستشرقون، وبما أُشيع عن الخلفاء على مدى التاريخ الإسلامي. ويمكن أن أقول: إن مجلة الأحكام الشرعية التي كانت تصدر أيام العثمانيين وحتى نهاية عهدهم، وتدوّن فيها الأحكام الشرعية مستنبطةً من الأصول والقواعد

الإسلامية الأساسية ومعتمدةً على حاشية ابن عابدين الموسوعة الفقهية على مذهب أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ. لدليل على تطبيق المنهج، والرغبة في ذلك، وإن كان بنسبةٍ معينةٍ.

القسم الأول

مفاهيم إسلامية

[١] الأمّة

الأُمَّة جماعة من الناس ترتبط برباط العقيدة الواحدة غلى مدار التاريخ، وهو الذي يجمع أبناءها بعضهم مع بعض، بغضّ النظر عن الأصل الذي ينتمون له، واللغات التي يتكلمونها، والمستوى الاجتماعي والمعاشي الذي يعيشون فيه، والمهن التي يمارسونها، وبغضّ النظر عن الزمن الذي عاش فيه أفرادها. وما دامت العقيدة مستمرةً قائمةً فالأمة موجودة.

فالجماعات التي اتبعت الأنبياء الذين بُعثوا على طول الزمن من آدم عليه السلام إلى محمد ﷺ، وعاشت بعد ذلك حسب هدي آخر الأنبياء حتى يرث الله الأرض ومن عليها، تُؤلّف أمةً واحدةً على مدى هذا التاريخ الطويل، إذ هم جميعاً يعتقدون عقيدةً واحدةً، ويسيرون على نهجٍ واحدٍ هو النهج الذي أتى به رسل الله، فربّهم الذي يعبدونه واحد، وفكرتهم واحدة، وهم مُستسلمون لأمر الله، مُسلّمون بما بعث، ولما قضى، اعتقدوا بخالقهم، وآمنوا بما أُنزل إليهم من ربهم، وبملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وطبّقوا ما جاءتهم به رسلهم من نور... هذه الجماعة هي الأُمَّة المسلمة التي تتميّز عن غيرها بفكرتها التي تعيش بها ومن أجلها.

وهذا المعنى هو الوارد في القرآن الكريم، وهو الكتاب الذي يُعدّ المصدر الرئيسي للغة العربية، يقول هذا علماء اللغة جميعاً، ويقرّ بهذا العرب كلهم، سواء أكان الذين يتكلمون العربية ممن يدينون بالإسلام أم ينتمون إليه أم يخضعون لعقائد أخرى. وهذا المعنى هو الذي فهمه العرب قديماً من إسلاميين وجاهليين، وهو الذي قال به أسلافنا وفهموه، وليس هناك من مصدر بمستواه، وهو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه

ولا من خلفه، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا
لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾
وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن
قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا
عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى
ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ
أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ
يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا
فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ
﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا
فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ
ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ
أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا
تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ
فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا
فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ
﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً
يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ
وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى
كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ
مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ
ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ
سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ
غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا
وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ
صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ

عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِي رَحْمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًاۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ وَٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾[1] هؤلاء الذين عاشوا في أزمنةٍ مُتباعدةٍ في التاريخ، وانتموا إلى أصول متعددةٍ، وتكلّموا لغاتٍ عديدة يُكوّنون أُمّةً واحدةً لأنهم اعتقدوا عقيدةً واحدةً. وقال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾[2] أي وجدنا آباءنا على طريقةٍ وعقيدةٍ وسنسير عليها نحن أيضاً، فاقترنت الأُمّة بالعقيدة أيضاً.

ولكن ما حدث في أوربا في مطلع العصور الحديثة من تجمّع الإمارات بعضها مع بعض، وإنشاء تكتلٍ واحدٍ يضمّ إماراتٍ متعددةً بدأ الرؤساء يعملون لدمج هذه الإمارات بعضها مع بعض، وربط السكان بعضهم مع بعض ليكونوا مواطنين في دولةٍ واحدةٍ بدؤوا يُقربونهم بالأصل الواحد، واللغة الواحدة، والعادات المتشابهة فأصبحت هذه عندهم مع الزمن ولكثرة ترديدها عناصر تكوين الأمة حسب مفهومهم الخاص وطبيعتهم

(١) سورة الأنبياء: الآيات ٤٨ ـ ٩٢.

(٢) سورة الزخرف: الآية ٢٢.

الخاصة، وسار على نهجهم المستغربون من المسلمين الذين درسوا في الغرب، واستهوتهم علوم الغرب، وأصبحت أيديهم تخطّ مقومات تكوين الأُمّة على النهج الذي عرفوه الأمر الذي جعل الأمّة الواحدة أمماً عدة فكان منها من اعتمد على اللغة فكانت الفارسية والعربية والتركية، ثم ظهر من اعتمد على العادات والطباع فكانت وحدات أصغر منها كالسورية والفرعونية والمغربية والأفغانية والإيرانية، وهكذا باستمرار، ومنها من اعتمد على الأرض، ومنها من اعتمد الأصل، ومنها من اعتمد على التاريخ، ومنها من بحث في الواقع الاقتصادي.

وكانت هذه المُقوّمات مع الأسف كأنّها من الحقائق المُسلّم بها إلاّ أنّه اختُلف حسب الاتجاه فأهمل أهل العصبية الدين، وقدّمه المُتديّنون كردّ فعلٍ وكل ذلك دون الرجوع إلى القرآن الكريم أساس العقيدة، ومصدر اللغة. ومن هذا المنطلق لم يكن للمسلمين شخصيتهم المُتميّزة، وأفكارهم المنطلقة من العقيدة الصحيحة، وإنّما كانت ردود فعلٍ وإضافة عوامل أو تقديم بعضها على بعض إلا أن العناصر قد اعتُمدت بجملتها، وأُلّفت فيها المُؤلّفات، وسار الناس عليها ولقّنوها أبناءهم.

لا ترتبط الأُمّة ببقعةٍ من الأرض معينةٍ، وإنما ساحة عمل الأُمّة المُسلمة الأرض كلّها، فحيثما تمكّنت من إقامة حكم الله فذلك مقرّها الأول ونقطة انبعاثها، وبعد ذلك تتوسّع دائرتها منه بالدعوة، ونشر الفكرة والجهاد حتى تشمل الأرض جميعها، وما دامت الفكرة لا تعمّ الأرض كلّها، ولا تحكم العالم كافةً بما أنزل الله فمُهمّة الأمة باقية، وعليها واجب كبير، وهو الجهاد في سبيل الله حتى تتمكّن من تطبيق منهج الله في الأرض قاطبةً.

ولا ترتبط الأُمّة بالأصل، فالخلاف الذي يحدث بين أبناء الأصل الواحد إذا ما كانوا على عقيدتين مُتباينتين عنيفاً وشديداً، فلقد حدث الخلاف على أشُدّة بين المسلمين من العرب وأبناء جلدتهم من المشركين وأفراد قبيلتهم قريش وحتّى أولاد عمومتهم وإخوتهم وأبنائهم، وكم التقى

سيفان أحدهما بيد الأب والآخر بيد الابن فرّقت بينهما العقيدة وباعد بينهما الفكر، وما كان الخلاف إلا بسبب العقيدة، إذ لم يكن الأصل ليربط بين أتباع عقيدتين أو ليجمع بين جماعتين مختلفتين في الفكرة وتنتميان إليه مهما كانت الخلافات واهيةً والأسباب بسيطةً، ولا توجد مرحلة من مراحل التاريخ إلاّ وفيها النماذج الكثيرة من الخلافات الكبيرة التي قامت بين أبناء العقائد المتباينة والذين يرتبطون بأصلٍ واحدٍ وقبيلةٍ واحدةٍ وعشيرةٍ واحدةٍ وأسرةٍ واحدةٍ.

ولا ترتبط الأُمّة باللغة إلا بمقدار ما ترتبط اللغة بالعقيدة، فاللغة لسان مجموعة من الناس، قد يلتقون بأصلٍ واحدٍ، وقد يوحد بينهم فكر خاص، وقد لا يكون ذلك، ولكن اللغة تُؤثّر فيها العقيدة فالمسلمون اليوم من غير العرب يحرصون على تعلّم العربية. ولننظر إلى التاريخ قليلاً فمنذ عصر صدر الإسلام كان أغلب التراجمة من الفارسية وإليها ممن يدين بالمجوسية، ويتّفق مع الفرس بالمبدأ لذا حُرص على تعلم لغتهم، واستمر ذلك حتى عُرّبت الدواوين أيام الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان، وفي العصر الحديث نجد أن أكثر من استعملته فرنسا في دوائر الدولة في بلاد الشام أيام انتدابها عليها ممن كان يُجيد لغتها، وكانوا ممن يعتنقون عقيدتها، ولارتباطهم معها بالعقيدة فقد تعلموا لغتها، وحرصوا عليها، على حين لم يفعل ذلك ممن لا يتصل بها بفكرةٍ، ولا يلتقي معها بمبدأ وهذا شأن الدول المستعمرة كلّها وفي أيّ مكانٍ حلّوا به. ولننظر اليوم إلى أكثر الخلافات القائمة في العالم فنجد أن أكثرها إنما يقوم بين جماعات تنتمي إلى أصل واحدٍ، وتتكلم لغةً واحدةً، ولكنها تختلف في العقيدة، وما يجري الآن في الفلبيين، وفطاني، وبين الهند وباكستان، وبين ارتيريا والأحباش، وداخل سوريا، وفي بلاد الأفغان، وفي أوربا بين ألمانيا الغربية والشرقية، وما كان بين كوريا الشمالية والجنوبية، وبين فيتنام الشمالية والجنوبية في آسيا إن هو إلا بسبب العقيدة ويكاد ينطبق هذا على كل ما يحدث في العالم من حروبٍ وخلافات.

ولا ترتبط الأُمّة بالتاريخ إلا بمقدار ما يتّفق مع العقيدة إذ ليس هو بأكثر ربطاً للمجتمعات من الأصل واللغة، فالتاريخ أصلاً تاريخ الأُمّة، والأُمّة مرتبطة بالعقيدة، فرجال العقيدة الذين ضحّوا من أجلها هم المثل الأعلى لخلفهم، ومن الضرورة بمكان الاقتداء بهم لدى الأجيال، ونرى أن التاريخ الإسلامي يدرّس في بلاد المسلمين جميعها وخاصة السيرة والخلفاء الراشدون ثم تاريخ بني أمية ووصول الإسلام إلى المنطقة الخاصة بالسكان الذين يُخطّطون المناهج الدراسية، وبعدها يصبح التاريخ إسلامياً أما المراحل التي تسبق تاريخ الإسلام فتكون دراسته ثانوية ولا يُهتمّ به أبداً بل لا يَأبه به الناس، فما هو الذي يربط العراقي المسلم بالسومريين والبابليين والآشوريين والكلدان؟ وما يربط السوري المسلم بالفينيقيين والآراميين؟ وما يربط المصري المسلم بتوت عنخ آمون والفراعنة؟ وما يربط ساكن الجزيرة العربية بطسم وجديس؟ ولكن الجميع يرتبطون بأبي عبيدة بن الجراح، وتتحرّك قلوبهم مع تحرّك جيوشه، وتنتظر نتيجة المعركة لتفخر بالنصر بل إن الشاب الذي يقرأ وقائع الغزوات ومعارك الصحابة ليمتلئ فخراً أثناء القراءة، ويتحمّس بالقراءة فيرفع صوته، وكأنّه هو يقود الجيش ويُشجّع المجاهدين.

وأما العادات والتقاليد والمفاهيم والأفكار فكلّها تنبع من العقيدة، فهي تتشابه لدى أبناء الأمة الواحدة.

وأمّا ما عُرف حديثاً باسم العامل الاقتصادي أو المصلحة الاقتصادية فإن ذلك لا يجمع بين المجتمعات أو بين العناصر التي تُكوّن الأُمّة، وإنّما هذا أضعف العناصر وأقلّها شأناً إذ يبقى في مستوى المصلحة يتغيّر معها، ويسير تبعاً لها ويتذبذب حسبها، وما أكثر ما تتغيّر وتتبدّل.

أما المسلمون فلا يرون سوى العقيدة جامعةً بين الشعوب، والأُمّة إنّما هي جامعة من الناس تدين بعقيدةٍ واحدةً، وهذا المعنى العربي للأُمّة الذي بيّنه القرآن الكريم، كتاب الله لعباده، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

[٢] الخلافة

كان القادة والزعماء الكبار وحُكّام الدول الواسعة الأرجاء يرون من القديم أن العالم لا يتسع لأكثر من حاكمٍ واحدٍ، أو زعيمٍ فردٍ يتسلّط على الأرض كلّها ليملأ غروره، ويُشبع أطماعه. فقد كان الإسكندر الكبير المقدوني يحلم بحكم العالم فقد سار شرقاً ليُحقّق ما يجول في خاطره، وانطلق غرباً ليُؤمّن ما تصبو إليه نفسه، ولكنه لم يتمكّن أن يحصل على كل ما يُريد إذ جاءه أجله المحتوم، وإن كان قد ضمّ تحت سلطانه أجزاءً واسعةً من العالم المعروفِ يومذاك، وكذا كانت أحلام قياصرة الروم وأطماع أكاسرة الفرس و....

ويرى المسلمون أيضاً أن تنطلق دعوة الإسلام على كل محورٍ حتى تعمّ الدنيا، وعندها يخضع العالم لخليفةٍ واحد مع وجود حكامٍ في الأقاليم المختلفة، لهم صلاحياتهم في ولاياتهم، ويُمثّلون الخليفة فيها غير أن هنالك فرقاً كبيراً بين أطماع الجاهليين ومنطلق المسلمين الذين يبنون آراءهم عليه.

إنّ ما يطمع به المتغطرسون في السيطرة على العالم ليس من ورائه إلاّ إرواء غريزة حب السيطرة، وتأمين الشهوة، وتحقيق الشهرة، والاستبداد بالسلطان، واستعباد الناس. أما الخليفة فبعيد كل البعد عن هذا لأنه مُقيّد بكتاب الله وسنة نبيه، الدستور الإلهي، الذي يحول بينه وبين هذه الأطماع، ولا يمكنه أن يدّعي ما ليس فيه أو يعدّ نفسه فوق البشر، حتى رسول الله ﷺ ـ لم يقل هذا، ـ ومعاذ الله أن يقول ـ فقد جاء في كتاب الله ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِۦ

﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾[1]. وكان عليه الصلاة والسلام يقول: «أنا عبد آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد»[2]. وعن أمّ سلمة زوج النبي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إلي، ولعلّ بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له على نحو ما أسمع منه، فمن قضيت له بشيءٍ من حقّ أخيه، فلا يأخذنّه، فإنّما أقطع له قطعةً من النار»[3]. وقال أبو بكرٍ، رضي الله عنه، يوم وُلي الخلافة: «أما بعد: أيّها الناس فإني قد وُليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوّموني...»[4].

والحاكم الجاهلي مُستبدّ لا يُراجع برأي، ولا يُخالف في موضوع، قوله قانون، وإشارته أمر، يتصرّف بما يشاء وكيفما يرغب، كل شيء في سلطانه تحت إرادته، أما الخليفة فمُقيّد بما أنزل الله وبسنة رسول الله، يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾[5]. ويقول رسول الله ﷺ: «لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق»[6]. ويقول أبو بكرٍ الصديق، رضي الله عنه، يوم مُبايعته: «أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم»[7].

---

(١) سورة الكهف: الآية ١١٠.

(٢) أخرجه ابن حبان من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) متفق عليه.

(٤) البداية والنهاية لابن كثير.

(٥) سورة المائدة: الآيتان ٤٩، ٥٠.

(٦) شرح السنة: البغوي ج١٠/ ٤٤.

(٧) البداية والنهاية لابن كثير.

والحاكم الجاهلي يجعل شعبه يُسيطر على بقية الشعوب التي تتبع له، ويستعبدها، وبذلك يحصل على التأييد من شعبه، ويمكن أن نلاحظ في سيطرة الإغريق على الشعوب التي أخضعوها لهم أيام الإسكندر الكبير المقدوني، واستعباد الرومان للجماعات التي استولوا على أرضها، واستبداد الفرس بالأقوام التي ضمّوها تحت لوائهم. وحتى في العصر الحديث نُلاحظ معاملة المستعمرين للشعوب التي يحكمونها، وكيف يسوق الإنكليز، والفرنسيون، والروس، والهولنديون، والإسبان، والبرتغاليون، والبلجيك، والأمريكيون، والطليان، والألمان وكل المستعمرين سكان الشعوب المغلوب على أمرها إلى ساحات القتال لتنفيذ مُخططاتهم، وضمّ أراضٍ جديدةٍ إليهم، وإخضاع شعوب أُخرى لهم، والحصول على ثروات هم بحاجةٍ إليها على حين يحتفظون بأبنائهم بعيدين عن كل مكروه، وقد يُسلّمونهم قيادة تلك الجموع المغلوب على أمرها، وذلك لحماية شعبهم والسيطرة بأفراده على الآخرين، وقد فجّر الإنكليز حقول الألغام في معركة العلمين بالفرقة الهندية بدلاً من الكلاب التي لم تتوفّر لهم بسرعة. أما الخليفة فالشعوب التي تتبع له كلها متساوية لا فرق بين شعبٍ وآخر أو قوم وثان يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾[1]. ويقول رسول الله ﷺ في خطبة حجة الوداع: «إنّ ربكم واحد. وإنّ أباكم واحد. كلكم لآدم وآدم من تراب. إن أكرمكم عند الله أتقاكم. ليس لعربي على أعجمي فضل إلاّ بالتقوى». وفي رواية أُخرى ولا لأبيض على أسود. وعندما اشتكى قبطي في مصر من واليها عمرو بن العاص وولده محمد الذي ضرب القبطي، والقبطي نصراني من شعبٍ فُتح بلده، والشكوى من الفاتح الحاكم، وقد رُفعت الشكوى إلى الخليفة، فاستقدم الخليفة واليه عمرو بن العاص وابنه محمداً. فلما جاءا وحضرا إليه، دعا القبطي المشتكي. وقال للقبطي: دونك الدرّة فاضرب بها ابن الأكرمين.

---

(١) سورة الحجرات: الآية ١٣.

فأخذ القبطي الدرّة وضرب محمد بن عمرو بن العاص حتى أثخنه والخليفة يقول: اضرب ابن الأكرمين. ثم قال له: أَجِلْها على صلعة عمرو، فوالله ما ضربك إلا بفضل سلطانه.

قال القبطي: يا أمير المؤمنين قد استوفيت واشتفيت، وضربت من ضربني.

ثم قال الخليفة: أيا عمرو! متى تعبّدتم الناس وقد ولدتهم أُمّهاتهم أحراراً؟ فجعل عمرو يعتذر، ويقول: إني لم أشعر بهذا. ثم التفت الخليفة إلى القبطي فقال: انصرف راشداً فإن رابك ريب فاكتب إليّ[١]؟

والحاكم الجاهلي يُسخّر رعيته كلها لخدمته وتأمين مصالحه، بل ربما يتسابق الناس جميعاً، والمُقرّبون إليه لخدمته وتحقيق رغباته. أما الخليفة فيُسخّر نفسه لخدمة رعيته ويعدّ نفسه مسؤولاً عن هذه الخدمة. كان أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، يحلب للحيّ أغنامهم، فلما بُويع بالخلافة قالت جارية من الحيّ: الآن لا تُحلب لنا منائح دارنا، فسمعها أبو بكر، رضي الله عنه، فقال: بلى لعمري لأحلبنّها لكم؛ وإني لأرجو ألاّ يغيرني ما دخلت فيه عن خُلُقٍ كنت عليه. فكان يحلب لهم، وربما قال للجارية من الحي: يا جارية أتُحبّين أن أرغى لك، أو أُصرّح؟ فربما قالت: ارغ، وربما قالت: صرّح؛ فأيّ ذلك قالته فعل[٢]. وقال علي بن أبي طالب،رضي الله عنه: رأيت عمر على قتبٍ يعدو، فقلت: يا أمير المؤمنين أين تذهب؟ فقال: بعير ندّ من إبل الصدقة أطلبه. فقلت: لقد أتعبت من بعدك! فقال: فوالذي بعث محمداً ﷺ، بالنبوة، لو أن عَنَاقاً (عنزاً) ذهبت بشاطئ الفرات لأُخذ بها عمر يوم القيامة[٣].

والحاكم الجاهلي يجلب خيرات الأقاليم التي يُسيطر عليها، وتخضع

---

(١) العقد الفريد ص٥٩، وابن الجوزي ص٨٦.
(٢) تاريخ الطبري ج٣.
(٣) ابن الجوزي ص١٤٠.

له من غير إقليم شعبه، إلى مركز سلطته، وموطن نشأته ليعيش إقليم على حساب أقاليم، وشعب على جهود شعوب، ولعلنا نذكر كيف كانت حبوب بلاد الشام تُنقل إلى مركز الدولة الرومانية لينعم بها البيزنطيون في الوقت الذي يعيش فيه أهل الشام جياعاً، وهذه قاعدة عامة في الجاهلية، والمستعمرون في العصر الحديث اعتادوا على نقل خيرات مستعمراتهم إلى بلادهم، وترك أهالي المستعمرات يرزحون تحت وطأة الفقر والجوع والمرض. أما الخليفة فيعمل جهده لتعيش الأقاليم كلها بمستوىً معاشيٍ واحدٍ، ولا تُنقل منتجات إقليم إلى جهات أخرى إلاّ عند الضرورة، وحدوث مجاعاتٍ أو كوارث، ولا تعدّ التجارة بمنتجات بلدٍ إلى آخر من هذا النوع وإنما هي للأرباح وحدوث الرخاء بسبب وجود منتجاتٍ في منطقةٍ وحرمان أُخرى منها، مثل زيتون المنطقة المتوسطية الذي يُنقل إلى بقاعٍ ثانيةٍ، وفواكه الشام، وتوابل أندونيسيا، وأرز باكستان و. . . . وإن قيام خلافة يجعل سكان دار الإسلام جميعاً بل العالم كله عندما يسوده الإسلام في مستوى واحدٍ، حيث ينتقل الناس من مكانٍ إلى آخر للعمل حيث لا توجد تلك الحواجز القائمة الآن بين البلدان ولا الحدود التي تفصل الأقاليم بعضها عن بعض، ويبقى بعضها ثرياً مُتخماً والآخر جائعاً، ويتحكّم الأول بالثاني ويستعبده. وعندما تحدث مجاعة في بلد يتشرّد أهله ويموتون جوعاً على حين يكون الآخرون في جنّاتٍ ونعيم، وكذا عندما تحلّ كارثة أو نائبة. وقد تكثر الخيرات في جهةٍ، أو تزخر أراضيها بالثروات الدفينة والمعادن، فيصيب أهلها الترف، ولا تمدّ يد العون لجهات أخرى، أو لا يتمكن الناس في بلدان أخرى من القدوم إليها، وكانت أحوال الدول الاستعمارية هكذا تجمع لديها ثروات الدول الضعيفة بعد أن تنهبها، وتتركها تحت غائلة الحاجة. ولعلّ من ميزات النظام الإسلامي أن تعيش الشعوب التابعة له كلها في مستوىً ماديٍ واحدٍ وهو إحدى جوانب المساواة التي يمتاز بها هذا النظام.

والحاكم الجاهلي غالباً ما يصل إلى المركز الذي يحتلّه عن طريق

القوة وإراقة الدماء، أو عن طريق التعيين، والرعية في كلا الحالتين غير راضيةٍ أو تعيش بعيدةً عن المسرح، ويُفرض الأمر عليها فرضاً، ونذكر كيف قتل شيرويه أباه كسرى أبرويز، ثم قتل سبعة عشر أخاً له، وملك ثمانية أشهر، وقام ابنه أردشير فقُتل، وملك شهراز فقُتل، وملكت بعده بوران بنت كسرى، وجاء بعدها من جاء، وكل يقتل سلفه سواء أكان أباً له أم سيداً، وهكذا حتى دالت دولتهم، ولم يكن وضع الروم أفضل حالاً وقد قُتل قيصر فوقاس، وتسلم الأمر قائده هرقل و. . . واستمرت هكذا حالتهم حتى زال سلطانهم، والإغريق من قبل كانوا أكثر بغياً، وأكثر خلافاً فيما بينهم، وفي العصور الحديثة تتوالى الانقلابات العكسرية في البلدان الضعيفة. وقد يتعاقب الزعماء على السلطة بالمناورات السياسية وترتيب التكتلات كما يحدث في البلدان الشيوعية. أو يحصل الزعماء على الحكم بالأساليب التي تعرف بالديموقراطية، وهي لا تقلّ فيها اللعب السياسية والتكتلات الحزبية عن غيرها، وحتى طريقة الانتخابات التي تتبعها ليست بالطريقة الحسنة، إذ تلعب فيها الأموال، والمناورات، والزعامات، والسياسات دوراً كبيراً إضافةً إلى تساوي الأصوات بين أكثر الناس غباءً وبين أنضجهم عقلاً وأوسعهم علماً. أما الخليفة فيُختار من بين مجموعةٍ يُعرفون بأهل الحلّ والعقد، أو أهل الشورى، وهم أكثر الناس علماً ودرايةً، ويقصد بالدراية الحنكة السياسية، والقوة (عدم الأخذ بالعاطفة)، ورأي الناس بهم أو ما يُعرف اليوم بالقوة الشعبية أو الرصيد الشعبي، وهم غالباً أهل العلم، والولاة، والقادة. وقد يستخلف الخليفة كما فعل الصديق وذلك بعد مشاوراتٍ، أو يختار رجالاً بأعينهم، يُسمّيهم ليتفقوا على خليفة كما فعل عمر بن الخطاب، رضي الله عنه.

فالاستخلاف جائز، وقد استخلف أبو بكرٍ الصديق، رضي الله عنه، عمر بن الخطاب ولكن بعد أن استشار عدداً من الصحابة، وأخذ رأيهم في ابن الخطاب. ولكن الاستخلاف يجب ألا تلعب العاطفة به فيختار الخليفة ابنه أو قريبه مع جواز ذلك، إن رأى مصلحةً، فعندما أُشير على عمر بن

الخطاب أن يستخلف ابنه عبد الله، قال للمشير عليه وهو المغيرة بن شعبة: قاتلك الله! والله ما أردت الله بهذا، ولا أرب لنا في أموركم وما حمدتها فأرغب فيها لأحدٍ من أهل بيتي، إن كان خيراً فقد أصبنا منه، وإن كان شراً فبحسب آل عمر أن يُحاسب منهم رجل واحد، ويُسأل عن أمر أمة محمدٍ ﷺ، أما لقد جهدت نفسي، وحرمت أهلي، وإن نجوت كفافاً لا وزر ولا أجر إني لسعيد،[1]. أما عن الاستخلاف فقد قال: إن الله حافظ هذا الدين، وأي ذلك أفعل فقد سُنّ لي، إن لم أستخلف فإنّ رسول الله ﷺ، لم يستخلف، وإن أستخلف فقد استخلف أبو بكر. وذلك عندما طلب منه ابنه عبد الله. وأمّا علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، فقد قال عندما سألوه عن تولية ابنه الحسن بعده: ما آمركم ولا أنهاكم، أنتم أبصر. وربما لأن الصحابة الذين هم بمنزلة الحسن، رضي الله عنه، قليلون - إن وجدوا - فاختلف الأمر عما كان عليه أيام عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، من كثرة الصحابة والمُبشّرين بالجنّة. وأمّا مُعاوية بن أبي سفيان فقد استخلف ابنه يزيداً إذ رأى في ذلك مصلحةً، مع وجود عددٍ من الصحابة، ومن هم أفضل من يزيد بكثير، غير أن الخلافات التي دبّت في المجتمع الإسلامي وخوف مُعاوية، رضي الله عنه، من أن تقع هذه الخلافات بين الصحابة أمثال: عبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر، والحسين بن علي، فيزداد الخلاف بين المسلمين، ويقع هؤلاء الصحابة في أوحال الدنيا، لذا رأى الخليفة أن من المصلحة استخلاف ابنه يزيد. وإذا أصبح الاستخلاف بعد ذلك قاعدة بحكم العاطفة والمحافظة على السلطان فالأمر غير صحيح ولكن بعد أخذ البيعة - إن كانت بالرضا - وموافقة المسلمين تُصبح الخلافة صحيحةً، وعلى هذا اعتمد الأمويون، والعباسيون، والعثمانيون.

ولم يُفكّر المسلمون الأوائل بأنّ الخلافة غُنم، ورأينا ذلك في قول عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، للمغيرة بن شعبة عندما أشار عليه

---

(١) تاريخ الطبري.

باستخلاف ابنه عبد الله بن عمر. كما لم يُفكّر المسلمون في الصدر الأول بالمغالبة على الخلافة، فعندما قال خالد بن سعيد لعلي بن أبي طالب: يا أبا الحسن! أَغُلبتم يا بني عبد مناف عن الإمرة؟ قال له علي: أمُغالبة تراها أم خلافة؟.

وخشي المسلمون الأوائل من طموح بعض القادة، وحبّ جندهم لهم أو باصطلاح اليوم خاف المسلمون من السيطرة العسكرية، وتحكمّها، وفرض بعض آرائها على الخلافة، ولعلّ في عزل عمر بن الخطاب لخالد بن الوليد عن قيادة جند الشام أثراً واضحاً في هذا الجانب. ومن هذا المنطلق إذا قام آخر وادعى الخلافة فإنه يُقتل، ويقول رسول الله ﷺ في حديث طويل: «فإن جاء آخر يُنازعه فاضربوا عنق الآخر»[1]. وفي صدر الإسلام بويع عبد الله بن الزبير، رضي الله عنهما، فثار في وجهه مروان بن الحكم، ثم ابنه عبد الملك بن مروان، حتى انتزع عبد الملك الخلافة من عبد الله بن الزبير وبويع بعدها، فأصبح خليفةً بعد عبد الله بن الزبير، أما قبل ذلك فيُعدّ ابن الزبير هو الخليفة الشرعي، ومروان وابنه عبد الملك مُتمرّدين، ولكن الناس اليوم يفهمون عكس ذلك أن الخلافة لمروان وابنه عبد الملك. وأنّ ابن الزبير مُتمّرد عليهما، وتمكّن عبد الملك من القضاء عليه، ويأتي هذا الغلط بسبب أن الحكم كان في أسرة بني أمية، ويُعدّ ابن الزبير شاذاً بين أفرادها. أما تعدد الخلفاء فيما بعد فلا يعتدّ به لضعف الدولة والتخلّي عن بعض أسس المنهج الإسلامي.

وأما شروط الخلافة فهي الإسلام، والعقل، والبلوغ، وسلامة الحواس، والعلم، ولا شكَّ أنّ القوّة تدخل ضمن هذه الشروط وإن لم تُذكر، إذ أن هناك عدداً من الرجال يكونون على درجةٍ من الصلاح والتقوى، ولكن لا يصلُحون لقيادة الأمّة لضعفٍ أو سرعةٍ في التصديق، أو عدم معرفة في حيل الناس، والمناورات السياسية، أو يُمكن خداعهم.

---

(١) رواه مسلم في باب الإمارة.

وعندما سأل أبو ذر رسول الله ﷺ الإمرة قال له: «يا أبا ذرٍ إنك لضعيف، وإنّها أمانة، وإنّها يوم القيامة خزيّ وندامة إلاّ من أخذها بحقّها وأدّى الذي عليه فيها»[١]. أما شرط أن يكون من قريش، وقول رسول الله ﷺ: «الأمراء من قريش»[٢]، فإنّ العرب في صدر الإسلام لا تعرف هذا الأمر إلا في قريش التي تسكن بجوار بيت الله وتحميه، وموطنها مقرّ التقاء العرب حيث تحجّ القبائل كلها إلى مكة المكرمة، وقريشُ أوسط العرب نسباً ورسول الله ﷺ منها، وأنه صاحب هذا الدين، وعليه أُنزل كتاب الله، وقد بلّغه للناس، وأدّى الأمانة، ونصح للأمّة، فيصعُب للعرب أن تقرّ لغير هذا البيت، وهذا ما استشهد به المهاجرون يوم بيعة الصديق، رضي الله عنه، في سقيفة بني ساعدة. غير أن العرب عامةً، ومنها قريش، قد خرجت من جزيرة العرب للفتح، واستقرّ كثير من القبائل في المواطن التي اتجهت إليها، وبذلك توزّعت العرب وتشتت أمرها، وقطن عدد من أفراد قريش في جهاتٍ متعددة بل في كل البلدان التي فُتحت، فالأمويون استقروا في الشام، ثم انتقل عدد منهم إلى الأندلس بعد سقوط دولتهم في دمشق، كما سار عدد منهم إلى نواحٍ متفرقةٍ من إفريقية. واستوطنت أعداد من آل البيت في العراق عند قيام دوِلة بني العباس، وتحرّكت مجموعات منهم إلى طبرستان والمغرب وأواسط إفريقية إثر حركة محمد ذي النفس الزكية في المدينة عام ١٤٥، وبعد معركة فخ أيضاً عام ١٦٩، وهكذا توزّعت قريش بل آل البيت في جهاتٍ نائيةٍ متعددةٍ من العالم المعروف يومذاك. ونعلم أن الذين عاشوا في المدن لم يلبثوا بعد مدةٍ أن نسوا نسبهم نتيجة الحياة المدنية وهذا ما نعرفه ونلاحظه اليوم. بل إن جماعاتٍ كثيرة انتسبت إلى العرب، وإلى قريشٍ خاصةً بل وإلى آل البيت من البلدان المفتوحة من الذين دانوا بالإسلام حبّاً برسول الله ﷺ والعرب، ووضعوا شجرات نسبٍ لهم تبيّن هذا الانتساب، وقد كثرت هذه الشجرات في العالم الإسلامي

---

(١) رواه مسلم في باب الإمارة.

(٢) رواه البخاري وأحمد.

حتى لم يعد المرء يستطيع أن يعرف الصحيح من غيره من شجرات النسب هذه. من هذا، ومن مبدأ المساواة الذي دعا إليه الإسلام ومن عدم التمييز بين الشعوب، والجماعات، والقبائل، والألوان إلاّ بالتقوى نستطيع أن نعتمد حديث رسول الله ﷺ: «ولو استعمل عليكم عبد يقودكم بكتاب الله فاسمعوا له وأطيعوا»[١]. وعن أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة ما أقام فيكم كتاب الله»[٢]، وهذا ما استند عليه العثمانيون، وهو سند صحيح، ويمكن أن يقوم بالخلافة أيّ إنسانٍ توفّرت فيه شروط الخلافة مهما كان نسبه أو لونه. . .

أمّا مدّة الخليفة فغير مُحدّدة، ولا ينقض البيعة له إلا الوفاة، أو الجنون، أو الكفر البواح، أو العجز عن القيام بأعباء الخلافة، أو وجود حائل يحول دون ذلك، وإن كان في تحديد العجز مرونة إلاّ أنّ الخليفة الذي أوكلت إليه الأُمّة هذه المهمّة فهو غير حريص على التمسّك بها فما أن يشعر بالعجز حتى يُعلن ذلك. وهذا هو الأمر السليم غير أن الخلفية التي عندنا عن ضعفاء الخلفاء والمتأخرين منهم يجعلنا نتصور التمسّك بالخلافة، أو بالأحرى التمسّك بالحكم. وأمر تحديد مدة الخلافة غير واردٍ للهزّات الاجتماعية والسياسية التي تصيب الدول التي تجري فيها الانتخابات، وهذا ما نراه في عالمنا الحاضر. وعندما نُحدّد مدة الخليفة فإننا نحرم الأُمّة من الخبرة التي اكتسبها أو نحرمها من أيام قوته ونشاطه أو من أوقات نضجه الفكري وحنكته. هذا بالإضافة إلى صعوبة تغير سياسة الدولة بين خليفةٍ وآخر، وصحيح أن سياسة الدولة أو سياسة الأمّة لا تتغير أبداً على مرّ السنوات، ما دامت قائمةً على خطٍ واضح كل الوضوح فليس هناك من لبسٍ في الإسلام، أو خداعٍ ومكرٍ وتضليلٍ ـ كما يحدث في السياسة اليوم ـ غير أن هناك اختلافاتٍ فردية بين شخصٍ وآخر ولا بدّ أن

---

(١) رواه مسلم في باب الإمارة.

(٢) رواه البخاري.

يظهر هذا على السياسة مهما حاولنا التقريب، فالخلفاء الراشدون، وهم من أفضل الأمّة بعد رسولهم الكريم، ومن تربية مدرسة النبوة، وعلى منهج واحدٍ، وعلى درجةٍ تكاد تكون واحدةً في التطبيق ومع ذلك نجد بعض الفروق العامة في السياسة، فأبو بكرٍ يستشير ويُقرّر، وعمر يستشير ويُنفّذ. عمر يطلب من الصحابة عدم مغادرة المدينة، ويعدّ جهادهم مع رسول الله ﷺ كافياً لجهادهم، وعثمان يسمح لهم بالمغادرة، وعلي يصحبهم ويُولّيهم. عمر يُقدّم الصحابة في الولاية، وعثمان يختار القوي الأمين بغضّ النظر عن الصحبة، وعلي يُكلّف الأقوياء ويُحاسبهم. أبو بكر يضع آل البيت في موضعهم على سنة رسول الله ﷺ، وعمر يُقدّم آل البيت ويُرتّب الناس بعدهم حسب الصحبة والغزوات أهل بدر ـ المسلمون قبل فتح مكة ـ بعد الفتح و.... وهكذا وُجدت بعض الاختلافات الفردية البسيطة أيام الراشدين، وهم الراشدون، فكيف غيرهم إذا تعاقب الخلفاء بين مدةٍ وجيزةٍ وأخرى؟. وأخيراً فإن الخلفاء الراشدين وهم قُدوة الأُمّة، وتُؤخذ أعمالهم كقواعد يُسار على نهجها، فلم تُحدّد مُدّة خليفةٍ، وإنّما استمرت حتى الوفاة، واستمر الخلفاء بعد ذلك على هذا المنهج مقتدين بذلك، غير أنه لم يُقس على تصرّفات الخلفاء بعد الراشدين، ولكنهم اتبعوا ولم يبتدعوا لم يشذّ عنهم سوى معاوية بن يزيد الذي تنازل عن الخلافة لعجزٍ وجده في نفسه، وترك الأمر شورى للمسلمين يختارون من يشاءون وهذا منهج سليم، فإذا وصلنا إلى وقت الضعف حيث غدا الخلفاء يُخلعون، ويُمثّل بهم فهذا وقت ـ كما ذكرنا ـ لا يُعتدّ به لخروجه عن المنهج الإسلامي السليم، وذلك بعد النصف الثاني من القرن الثالث الهجري.

[٣] الإنسان الفرد

لقد خلق الله الإنسان في أحسن تقويم، حُسن في تركيبه، وحُسن في تقويمه، وحُسن في تعديله، وفي هذا فضل من الله كبير على هذه العناية، وهذا يُشير إلى أنّ له شأناً عند الله، ووزناً في نظام هذا الوجود. وتتجلّى هذه العناية في خلقه وتركيبه على هذا النحو الفائق، سواء في تكوينه الجثماني البالغ الدقة والتعقيد، أم في تكوينه العقلي الفريد، أم في تكوينه الروحي العجيب[١]. ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾[٢].

وتُريد المشيئة العليا أن تُسلِّم لهذا الكائن الجديد في الوجود زمام هذه الأرض، وتُطلق فيها يده، وتكل إليه إبراز مشيئة الخالق في الإبداع والتكوين، والتحليل والتركيب، والتحوير والتبديل، وكشف ما في هذه الأرض من قوىً وطاقاتٍ، وكنوزٍ وخاماتٍ، وتسخير هذا كله ـ بإذن الله ـ في المهمة الضخمة التي وكلّها الله إليه[٣].

ولقد كرّم الله هذا المخلوق البشري على كثيرٍ من خلقه. كرّمه بخلقه على تلك الهيئة، بهذه الفطرة التي تجمع بين الطين والنفخة، فجمع بين الأرض والسماء في ذلك الكيان. وكرّمه بعقله الذي يستعمله في اكتشاف ما خفي عنه، وإعمار الأرض واستثمار خيراتها، والتمييز بين الخير والشرّ، والحق والباطل، فيسلك الطريق المستقيم، ويبتعد عن كل ما فيه من سوءٍ يتوقعه.

---

(١) في ظلال القرآن ـ سيد قطب.

(٢) سورة التين: الآية ٤.

(٣) في ظلال القرآن.

وكرّمه بالاستعدادات التي أودعها في فطرته، والتي استأهل بها الخلافة في الأرض، يُغيّر فيها ويُبدّل، ويُنتج فيها ويُنشئ، ويُركّب فيها ويُحلّل، ويبلغ بها الكمال المُقدّر للحياة.

وكرّمه بتسخير القوى الكونية له في الأرض وإمداده بعون القوى الكونية في الكواكب والأفلاك. وكرّمه بذلك الاستقبال الفخم الذي استقبله به الوجود، وبذلك الموكب الذي تسجد فيه الملائكة ويُعلن فيه الخالق جلّ شأنه تكريم هذا الإنسان. وكرّمه بإعلان هذا التكريم كلّه في كتابه المُنزّل من الملأ الأعلى الباقي في الأرض... القرآن....[1] قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾[2]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾[3].

ومن التكريم أن يكون الإنسان قيماً على نفسه، محتملاً تبعة اتجاهه وعمله. وبها استخلف في دار العمل، فمن العدل أن يلقى جزاء اتجاهه وثمرة عمله في دار الحساب.

هذا الإنسان المكرّم عند الله، والمعتنى به من الله، والمفضّل في الأرض والتي هي مُسخّرة له، ومُهيَّئة له للعمل فيها، يجب تكريمه وحفظ حياته فهو اللبنة الأولى في المجتمع العالمي، وكان قتله جريمةً كبرى تُعدّ قتل البشر جميعاً، والعمل على إحيائه وإنقاذه من الموت إن تعرّض له ويُعدّ ذلك إحياءً للناس جميعاً، يقول تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا

---

(١) في ظلال القرآن.

(٢) سورة البقرة: الآية ٣٠.

(٣) سورة الإسراء: الآية ٧٠.

﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾[١]. وعن سعيد بن العاص عن ابن عمر، رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزال المؤمن في فسحةٍ من دينه ما لم يُصب دماً حراماً» قال: وقال ابن عمر: «إنّ من ورطات الأمور التي لا مخرج لمن أوقع نفسه فيها سفك الدم الحرام بغير حلّه»[٢].

ومن قتل مؤمناً مُتعمّداً فعقوبته القتل، وفي الآخرة جزاؤه جهنم، وأما الذي يقتل خطأً فجريمته خفيفةً نسبياً، ويمكن أن تُفتدى بالمال لأن الأمر قد وقع خطأً، ورُفع الخطأ عن المسلم لقوله ﷺ: «إنّ الله تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان»[٣]. والذي يقتل خطأً يعتق رقبةً مؤمنةً، ويدفع ديةً إلى أهل المقتول ويتوب إلى الله، يقول تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾[٤].

ولا يحلّ قتل المسلم إلاّ أن يكون قاتلاً، أو مُرتدّاً عن دينه، أو متزوجاً زانياً لقوله ﷺ: «لا يحلّ دم امرئٍ مسلم يشهد أن لا إله إلاّ الله، وأني رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة»[٥]، رواه عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه.

---

(١) سورة المائدة: الآية ٣٢.

(٢) أخرجه البخاري.

(٣) أخرجه ابن ماجه.

(٤) سورة النساء: الآيتان ٩٢، ٩٣.

(٥) أخرجه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي.

ولما كان قتل النفس فساداً عظيماً في الأرض، ولذا فلو اشترك عدد في قتل إنسان ظلماً وعدواناً قُتلوا جميعاً، يقول عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: «لو اشترك فيه أهل صنعاء لقتلتهم».

ولما كان الناس جميعاً متساوين لا فرق بينهم إلا بالتقوى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[1]. فلا توجد في المجتمع طبقات، ولا يتفاوت الناس في دمائهم، فليس هناك من فروق في الديّات، كما لا توجد فروق في القصاص بين رجل وآخر، فعن سمرة بن جندب، رضي الله عنه، أنّ رسول الله ﷺ قال: «من قتل عبده قتلناه، ومن جدع عبده جدعناه»[2]، وفي رواية زيادة [ومن خصى عبده خصيناه]. وإن كانت خلافات طفيفة بين العلماء في قيد السيد بعبده.

ولما كانت النفس البشرية مُكرّمة، وكان الإنسان ملكاً للأمة وليس ملك نفسه، لذا لا يحقّ له أن يتصرّف في نفسه، فيُنهي حياته بالصورة التي يراها، تهرباً من الواجبات أو تخلّصاً مما قد يُبتلى به، فعن أبي هريرة، رضي الله عنه، أنّ رسول الله ﷺ قال: «من تردّى من جبلٍ فقتل نفسه، فهو في نار جهنم يتردّى فيها خالداً مخلّداً فيها أبداً، ومن تحسّى سُمّاً فقتل نفسه، فسمّه في يده يتحسّاه في نار جهنم، خالداً مُخلّداً فيها أبداً، ومن قتل نفسه بحديدةٍ، فحديدته في يده، يتوجّأ بها في بطنه في نار جهنم خالداً مُخلّداً فيها أبداً»[3].

هذا الإنسان المكرّم عند الله يجب ألا يُظلم، فالله سبحانه وتعالى لا يحبّ الظالمين، ولن ينالوا عهداً منه، وسيجزون على ظلمهم جهنم. ﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ

---

(١) سورة الحجرات: الآية ١٣.

(٢) أخرجه أبو داود، والترمذي، والنسائي.

(٣) أخرجه البخاري، ومسلم، والترمذي والنسائي.

لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾[1]. و﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾﴾[2]. و﴿۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾[3]. و﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾[4]. وعن أبي ذر عن النبي ﷺ، فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: «يا عبادي إنّي حرّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم مُحرّماً فلا تظالموا...»[5] ومن الظلم إذلال الناس والضغط على حرّياتهم، ومحاولة إقلال الموارد والحاجات الضرورية عليهم، وحصرهم في أماكن لا يمكنهم تجاوزها.

هذا الإنسان المكرّم عند الله لا يُحقّر، ولا يُسخر منه، ولا يُخوّف، ولا يروّع، ولا يمسّ في عرضه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾[6]. وعن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والظنّ فإن الظنّ أكذب الحديث، ولا تجسّسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً»[7]. وقال ﷺ: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، التقوى ها هنا، ويشير إلى صدره ثلاث مراتٍ،

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٢٤.
(٢) سورة آل عمران: الآية ٥٧.
(٣) سورة الأنبياء: الآية ٢٩.
(٤) سورة الشورى: الآية ٤٢.
(٥) أخرجه مسلم، وأحمد في مسنده.
(٦) سورة الحجرات: الآيتان ١١، ١٢.
(٧) متفق عليه.

بحسب امرئ من الشرّ أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه»[1].

ولا يقف الإسلام أمام رغبات الفرد، فالرجل يستطيع أن يتزوّج أكثر من امرأةٍ إن كان بإمكانه ذلك مادياً، ونفسياً، وغريزياً. وكذلك بإمكانه الطلاق إن وجد أن الحياة لا يُمكنها أن تستمر بينه وبين من اختارها زوجةً له، إذ يمكن أن تختلف الطباع، أو تتباين الأمزجة والمعايير، وعوضاً من أن تكون الحياة جحيماً يمكن أن يجد كل منهما طريقه الخاص به، وعسى أن يُبدل الله كلاً منهما خيراً من صاحبه. وذلك على عكس بعض العقائد التي لا تبيح للرجل أن يستبدل زوجاً مكان زوج مهما كان الأمر، ومهما كان الاختلاف بينهما كبيراً، لذا حدثت المفاسد، وانتشرت الخلاعة، حيث يمكن للرجل أن يتخذ أكثر من امرأةٍ ولكن على صفة خليلةٍ، لا على أنها حليلة حيث تحرّم ذلك العقيدة، وجرّ ذلك على المجتمع ما جرّ.

وكذلك فإن للمرأة الحق أن تتزوّج إذا ما توفي عنها زوجها، وقد تتزوج أكثر من مرةٍ، ونذكر في مثل هذا المجال أسماء بنت عُميس، رضي الله عنها، التي كانت زوجاً لجعفر بن أبي طالب، رضي الله عنه، فلمّا استشهد في مؤتة، تزوّجت أبا بكر الصديق، رضي الله عنه، فلما توفي عنها، تزوجت علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، وأنجبت لثلاثتهم. وكانت تعيش مع كل واحد منهم حياةً ملؤها السعادة والرخاء، ويكتنفها الحب الحقيقي. وقد اختلف أحد أبناء جعفر مع محمد بن أبي بكر (وأمهما أسماء) في أفضلية أبي بكر وجعفر، وعلي يسمع، فقال لهما: اسألا أُمّكما أسماء. فسألاها، فقالت: ما رأيت شاباً أفضل من جعفر، ولا كهلاً أفضل من أبي بكر. فقال علي: وأين أنا منهما يا أسماء؟ فقالت: عرفت ثلاثةً أنت أقلّهم فقال: والله لو قلت غير ذلك لأقليتك.

وأم حكيم بنت الحارث التي كانت زوجاً لعكرمة بن أبي جهل، فلما

---

(١) متفق عليه.

استشهد في أجنادين تزوّجها خالد بن سعيد بن العاص، فلما استشهد في مرج الصُفَّر، تزوجها عمر بن الخطاب.

وعاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل التي كانت زوجاً لعبد الله بن أبي بكر، فلما توفي بعد أن أصيب بالطائف تزوجها عمر بن الخطاب، فلما توفي عنها تزوجها الزبير بن العوام، فلما استشهد خطبها علي بن أبي طالب فلم تقبل الزواج منه لا رغبةً عنه ولكن رغبةً فيه خوفاً من أن يُصاب، وقد أُصيب ولم يتزوجها.

والمرأة قد يموت زوجها، وتكون بحاجةٍ إلى زوج لا إلى من يُعيلها فقط ـ كما يتصوّر بعضهم ـ فإذا رغبت في الزواج فلها في ذلك الحقّ، ولا يمكن لأحد أن يقف في طريقها كما يفعل أصحاب بعض العقائد إذ يحولون بينها وبين ما ترغب باسم الحفاظ على ذكرى الذي فقدت و. . . .

هذا الإكرام الذي يُعطيه الإسلام للإنسان، وهذه الحرية التي يمنحه إياها تقف عند حدّ، فليس هناك حرية مطلقة، وإنما تقف حيث تبدأ حرية الآخرين، وحيث تسمح العقيدة بذلك. ليس للمرء أن يتكلّم بالألفاظ النابية، ولا بالألقاب، ولا يشتم، ولا يلعن، ولا يغتب، ولا يخوض في أعراض الآخرين، ولا يسيء إلى عقيدة المجتمع، ولا يرفع صوته في بيته ولا أصوات ما عنده من وسائل الإعلام لأن ذلك يؤذي الجوار، ولا يُسيء إلى ما حوله من أفراد لأن أي شيء من هذه التصرفات ينشر الكراهية، ويُعمّ البغض، ويجعل الكلام غير المستحسن يسود في المحيط الذي يعيش فيه.

وليس للمرء أن يتحدث بما يضرّ مصلحة الأمة، أو بما يخدم أعداءها من أسرار للمسلمين أو اطلاعٍ على عوراتهم، وكل ما ينطبق على الكلام ينطبق على الكتابة.

ولا يحقّ للمرء أن يلبس ما يؤذي المجتمع كأن يلبس الرجل لباس المرأة أو العكس، أو يرتدي غير ما تعارف عليه المجتمع، أو يظهر أكثر

جسمه ويتجول في الطرقات، أو تبدي امرأة مفاتنها، وتميس في الشوارع باسم الحرية، فهذا أمر ممنوع وسط المجتمع الإسلامي. عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: «لعن رسول الله ﷺ، الرجل الذي يلبس لِبْسة المرأة، والمرأة تلبس لبسة الرجل»[1].

ولا يحقّ للإنسان أن يبني في الشارع باسم الحرية فيسدّ على الناس طرقاتهم، أو يتطاول في البنيان فيحجب النور والهواء عن الجوار، أو يحفر الدروب، أو يحول دون وصول المياه إلى مستحقيها أو...

ولا يحقّ للمرء أن يبيع منتجات الأُمّة إلى أعدائها، ولا يُروّج لبضائع الخصم في محيطه الذي يعيش فيه، ولا يضع أمواله لتستثمر في بلاد الكفر وأُمّته بحاجةٍ إليها، ولا يأتي بأموالهم ليُقيم فيها المشروعات بدار الإسلام فتصبح خيراتها لهم و....

ولا يحقّ للفرد إن كان مسؤولاً أن يُذلّ من كان تحت سلطته، فيكبت الحريات، ويمنع الدعوة، ويحول دون التنقل، ويسعى في إفقار الشعب كي يخضع له ويتمكّن من السيطرة عليه، ولا يؤمن العمل للرعية، ويجعل الأفراد يلهثون وراء تأمين حاجاتهم فتراهم أرتالاً على المخابز، ومواقف السيارات، وأمكنة الحصول على المواد الضرورية، والجوازات، والتأشيرات و... وإذا ذلّ الشعب خضع لكل طاغِيةٍ، وعجز عن تحرير الناس من الظلم، والأرض من المعتدين، فإن التحرير لا يمكن أن يتم بالعبيد فلا بدّ من الحرية لإمكانية التحرير و... وهناك أشياء كثيرة حدّدها الشرع، وحدّد فيها حرية ذلك الإنسان الفرد الذي كرّمه الله تعالى، وما حُدّدت عليه إلا لمصلحة الآخرين من الأفراد والمجتمع لتعيش الأُمّة بسلام وسعادة.

وعندما ضعُف المسلمون بدأت تتفكّك عرا الإسلام عُرْوة بعد أخرى، وأهمل الناس أمور دينهم، وتغلّب عليهم أعداؤهم، وبدأ الضعيف يُقلّد

---

(١) أخرجه أبو داود.

القوي، فتسلّط على الناس الطغاة، وتحكّم فيهم البغاة فساد في المجتمع ما نراه من ألفاظٍ نابيةٍ، وشتائم، وغيبةٍ، ولعنٍ، وخوضٍ في أعراض الناس: وإيذاء الجوار برفع الأصوات داخل البيوتات ورفع أصوات المذياع والتلفاز دون تقديرٍ لحرمة الآخرين ولا حسابٍ لمشاعرهم، والكلام بسوء عن عقائد المجتمع، والرفع من قيمة الأعداء، والحطّ من شأن المسلمين والكتابة عن أسرارهم، والسير في الشوارع بأزياء غير معروفةٍ بل ومُنكرة، وتقليد الرجال للنساء، والنساء للرجال بصورٍ أقرب ما تكون إلى العري، والنساء كذلك باسم الحرية و.... وغدا التطاول في البنيان والتعدّي على حرمات الشوارع، وبيع ما هو ممنوع ومحرّم، وترويج بضائع الخصم، وتثمير أموال المسلمين في بلاد الكفر، وتمويل مشروعات المسلمين بأموال الكافرين. بل غدت بعض الأمور الشرعية غريبةً ومنكرةً في هذا العصر تأثّراً بأعداء الإسلام وأفكارهم ومفاهيمهم نتيجة حياة الضعف التي يحياها المسلمون، ومنها زواج المرأة بعد وفاة زوجها، ويظنّون أن المرأة تحتاج إلى الإعالة المالية فقط، ولا ترغب بما يرغبه الرجل، فما يمنعها من الزواج إن كانت تودّ بذلك، فالفطرة تقضي بهذا، فلو تزوّجها أخوه من بعده لتقوّلوا الأقاويل، وقد رأينا زواج علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، من أسماء بنت عُميس زوج أخيه جعفر، رضي الله عنه. ولو تزوّجها اليوم صديقه لنشروا الشائعات، وقد رأينا زواج الصحابة، رضوان الله عليهم، بزوجات أصدقائهم بعد وفاتهم، وفي هذا الزواج رعاية لمن ترك المتوفّى، وحماية للتي تُوفّي عنها زوجها وتكريم لها، وتحقيق لما تتطلب. ويُفضّل بعضهم أن تبقى دون زواج وفي ذلك إبعاد لها عما ترغب فيه، وعدم تحقيقٍ لما فطر عليه الإنسان، وينتج عن ذلك انتشار للمفاسد التي ينعكس أثرها على المجتمع، وكذا قضية التعدد التي نتحدّث عنها، إن شاء الله، في موضوع المرأة. وكل قضيةٍ إسلاميةٍ يحرص الأعداء الطعن فيها، وترك الأمر من غير أن يُكرّم هذا المخلوق الذي كرّمه الله سبحانه وتعالى.

إن المفاهيم التي سادت أو كادت تسود في المجتمع الإسلامي نتيجة

الظروف التي طرأت عليه، والتخلّف الذي أصابه، والضعف الذي حلّ به، والتأثّر بمفاهيم الذين تغلبوا عليه، من صليبيين ويهود، وأفكار عرفت على أنها عالمية بسبب سيطرة الحضارة المادية على العالم، كل هذه المفاهيم مرفوضة إن كانت تُخالف العقيدة الإسلامية، ففيها شقاء العالم ودماره إن كانت كذلك. ولا نقبل إلا ما فهمه المسلمون من صحابة رسول الله ﷺ، في الإنسان الذي كرّمه الله، وفي كلّ ما شرع له تكريم له، فعلينا أن ننفذه ليسعد وتعيش البشرية من رخاءٍ وطمأنينةٍ وسلام.

[٤] المجتمع

لما كان الفرد هو اللبنة الأولى التي يتألّف منها المجتمع، فالمجتمع عدد من اللبنات، ولا بدّ من أن يكون هناك تعاون بين الفرد والمجتمع، فإذا زالت لبنة واحدة من البناء ظهرت ثغرة فيه فبان عواره أو تهدّم كيانه، وإذا سُدّ مكانها بشكلٍ غير طبيعي أي بغير لبنةٍ من نوعها بدا المظهر العام مُشوّهاً، لذا لا بدّ من أن يكون هناك توازن بين الفرد والمجتمع أو بين الكيان وأعضائه الذين يتكوّن منهم فلا يطغى الفرد بسلطانه على المجتمع فيُذلّه أو بتصرّفاته فيُمزّقه، ولا يطغى المجتمع على أيٍ من أعضائه فيُذيبه، ويُفقده تكريمه الذي كرّمه الله سبحانه وتعالى، ويُبعده عن حريته التي منحه إيّاها.

يمنح المجتمع الفرد من أعضائه الحريّة الكاملة ضمن الحدود التي تكلّمنا عنها في موضوع الإنسان الفرد، فإذا منعها عنه أفقده الإبداع في الفكر، وقتل فيه الطموح، وجعله يعيش خنوعاً يقبل ما يُملى عليه، ويخضع لكل طاغٍ أو دخيل.

يُعطي المجتمع الفرد حقّ الملكية التي هي غريزة طبيعية وُجدت مع الإنسان، وفُطر عليها، فالصغير يحتجز ما يُحبّ، ويُخبئ ما يرغب فيه على أنه ملك له، فإذا منعته من ذلك جرحته، وأوجدت في نفسه شيئاً عليك قد يصل إلى الحقد في بعض الأحيان إن لم تكن صلة كبيرة بينك وبينه، وفي البلدان التي تمنع حقّ الملكية لأبنائها فإنما تفعل ذلك ليتكوّن حقد بين رعاياها تستغلّه في إبقاء سيطرتها، وفرض قبضتها على المناطق التي تخضع لها، ويستفيد رجال الدولة من ملكية الدولة لكل شيءٍ فيتصرّفون فيه على

أنه حقّ طبيعي لهم فيعيشون بترفٍ، وينفقون ببذخٍ، بينما يبقى الأفراد بوضعٍ بئيسٍ، وعيشٍ تعيسٍ. هذا إضافةً إلى أنّ الإنسان الذي يُحرم من بعض حقوقه تضعُف ملكة الإبداع عنده، وتتحطّم معنوياته، فلا يُعطي إلاّ القليل، ولا يُقدّم غير الزهيد من إمكاناته وطاقاته، فيقلّ إنتاجه، وبالتالي يضعُف إنتاج الأمّة وتُصبح بحاجةٍ إلى غيرها، وعندها الشيء الكامن ولكن لا تستغلّه، ولديها الاحتياطي غير أنها لا تبذله، وتملك القدرات ولكنها لا تستفيد منها، وكل ذلك على حساب الأفراد الذين لا يعيشون على المستوى المطلوب. وفي الوقت نفسه لا يحقّ للفرد أن تطغى ملكيته باسم الحرية، فيحتكر قوت المجتمع، ويجمع لديه الثروة عن طريق الرّبا وبيع المحرمات، ثم يُسخّر المجتمع كله لخدمته، ويدوس على الآخرين، وتصبح المقاليد كلّها بيده. قال رسول الله ﷺ: «من احتكر فهو خاطئ»[1]. وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾﴾[2]. وقال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾[3]. وكذلك يُحرّم بيع كلّ ما هو حرام والمتاجرة به مثل: الخمر، والمخدرات، ولحم الخنزير و.... وهذه أكبر وسائل المال الحرام وأكثرها جمعاً له.

وعلى المجتمع مُمثّلاً في السلطة أن يُؤمّن العمل للنّاس، ويمنع السؤال، والقعود بلا عمل، عن أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال: «والّذي

---

(١) أخرجه مسلم في المساقاة: باب تحريم الاحتكار في الأقوات.

(٢) سورة البقرة: الآيتان ٢٧٥، ٢٧٦.

(٣) سورة النساء: الآيتان ١٦٠، ١٦١.

نفسي بيده لأن يأخذ أحدكم حبله، فيحتطب على ظهره، فيأتي به، فيبيعَه، فيأكلَ منه، ويتصدّقَ منه خير له من أن يأتيَ رجلاً أعطاه الله من فضله، فيسأله أعطاه أو منعه»[1]. ولما كان الفرد ليس هو ملكاً لنفسه، وإنما ملك الأمة جميعها، لذا فالسّلطة تُلزمه على العمل، وتمنعه من الجلوس من غير عمل بحجة الثراء والاكتفاء بما لديه، وعدم الحاجة، إذ عليه العمل مهما كان مُستغنياً عنه ما دامت الأمة بحاجةٍ وهو ملك لها. وتأمين العمل واجب على السّلطة، عن أنس بن مالك، أنّ رجلاً من الأنصار أتى النّبي ﷺ، يسأله فقال: «أما في بيتك شيء»؟ قال: بلى حِلْس نلبس بعضه ونبسط بعضه، وقَعْب نشرب فيه من الماء، قال: «أئتني بهما»، فأتاه بهما، فأخذهما رسول الله ﷺ بيده وقال: «من يشتري هذين»؟ قال رجل: أنا آخذهما بدرهم، قال: «من يزيد على درهم»؟ مرتين أو ثلاثاً، قال رجل: «أنا آخذهما بدرهمين» فأعطاهما إياه، وأخذ الدرهمين وأعطاهما الأنصاري، وقال: «اشتر بأحدهما طعاماً فانبذه إلى أهلك، واشتر بالآخر قَدُوماً فأتني به» فأتاه به، فشدّ فيه رسول الله ﷺ، عوداً بيده، ثم قال له: «اذهب فاحتطب وبع، ولا أرينّك خمسة عشر يوماً» فذهب الرجل يحتطب ويبيع، فجاء وقد أصاب عشرة دراهم، فاشترى ببعضها ثوباً وببعضها طعاماً، فقال رسول الله ﷺ: «هذا خير لك من أن تجيء المسألة نكتة في وجهك يوم القيامة، إنّ المسألة لا تصلح إلا لثلاثة: لذي فقر مُدقع، أو لذي غُرم مُقطع، أو لذي دم مُوجع»[2]. ولسنا بحاجةٍ هنا إلى توضيح شروط العمل، والغاية منه، فإنّ هذا أمر معروف ولكن نشير إلى أنّ من شروطه أن يكون غير محرّم، وليس فيه ضرر للنّاس، أو شغل عن العبادة، والغاية منه، الاستغناء عن النّاس، والنهي عن البطالة، ونفع عباد الله، والإفادة مما أباح الله لعباده من طيبات الرزق.

وإذا عجز المرء عن العمل كان على الدولة أن تُعطيه ما يغنيه، فكما

---

(١) متفق عليه كما رواه الإمام مالك في الموطأ.

(٢) أخرجه أبو داود في باب الزكاة.

أنّ المجتمع مُمثّلاً في السلطة مسؤول عن عمل الفرد في شبابه كذلك مسؤول عنه في شيبته، وقد مرّ عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، بسائلٍ شيخٍ كبيرٍ ضرير البصر، فضرب عضده من خلفه وقال:

من أي أهل الكتاب أنت؟

قال: يهودي.

قال: فما ألجأك إلى ما أرى؟.

قال: أسأل الجزية والحاجة والسنّ.

فأخذ عمر بيده إلى منزله فأعطاه شيئاً من المال، ثُمّ أرسل إلى خازن بيت المال فقال له: أنظر هذا وضرباءه، فوالله ما أنصفناه، أكلنا شبيبته، ثم خذلناه عند الهرم. فأعُطي من بيت المال من غير أموال الزكاة، لأنّه لا يُعطى غير المسلمين من أموال الزكاة.

والسلطة مسؤولة عن تأمين حاجة الفرد من مواصلات، وتعليم، ونور وكل ما يتعلق بوسائل الحياة. فكان عمر بن الخطاب، رضي الله عنه يقول: «والله لو أنّ بغلةً عثرت على شاطئ الفرات لأخشى أن يسأل الله عنها عمر لم لا يُسوّي لها الطريق». ووسائل الحياة ليست واحدةً وإنما تختلف باختلاف الأزمنة فإذا كانت في القديم تمهيد الطريق فاليوم تعبيده، وإذا كانت في المرحلة السابقة السّراج والزيت فهي في هذا الوقت الكهرباء وهكذا مع الزمن ولا ندري ما يستجد في المستقبل، وكلّ هذا من واجبات السلطة.

ولم يتسلّم الحاكم أو أفراد السلطة المسؤولية ليمتازوا على الأفراد، ويتعالوا عليهم، ويُذلّوهم، وإنما كُلّفوا بهذا العمل لخدمة الشعب، وليعيشوا كبقية أفراد المجتمع إن لم نقل دونهم، فأبو بكر، رضي الله عنه، يقول: «إني قد وُلّيت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأطيعوني وإن أسأت فقوّموني و. . . .»، وعمر بن الخطاب، رضي الله عنه، لا يأكل من الشيء حتى تشبع منه رعيته، فيروى أن عتبة بن فرقد لما قدم أذربيجان أتى

بالخبيص، فلمّا أكله وجد شيئاً حلواً طيباً، فقال: والله لو صنعت لأمير المؤمنين من هذا. فجعل له سَفْطين عظيمين ثم حملهما على بعيرٍ مع رجلين، فسرّح بهما إلى عمر، فلما قدما عليه فتحهما قال: أي شيءٍ هذا؟ قالوا: خبيص. فذاقه فإذا شيء حلو فقال للرسول: أكُلُّ المسلمين يشبعون من هذا في رحالهم؟

قال: لا.

فقال: أمّا لا، فارددهما.

ثم كتب: أما بعد فإنّه ليس من كدّك ولا كدّ أُمّك، أشبع المسلمين مما تشبع منه في رحلك. وجاءت إلى عمر بُرود من اليمن، ففرّقها بين النّاس بُرداً بُرداً، ثم صعد المنبر يخطب، وعليه حُلّة منها (أي بُردان) فقال: اسمعوا رحمكم الله. فقام إليه سلمان فقال: والله لا نسمع، والله لا نسمع.

فقال: ولِمَ يا أبا عبد الله؟

فقال: يا عمر! تفضلّت علينا بالدنيا، فرّقت علينا بُرداً بُرداً، وخرجت تخطب في حُلّةٍ منها؟

فقال: أين عبد الله بن عمر؟

فقال: ها أنذا يا أمير المؤمنين!

قال: لمن أحد هذين البُردين اللذين عليّ؟

قال: لي.

فقال لسلمان: عجلت عليّ يا أبا عبد الله، إنّي كنت غسلت ثوبي الخلق، فاستعرت ثوب عبد الله.

قال: أما الآنَ فقل نسمع ونطيع.

وهكذا فرغم أن المجتمع له سلطة على الفرد، ويحدّ من سلطته،

ولكنه لا يُذيب شخصيته فللفرد كرامته المحترمة، وحريته المحددة، وحقه على المجتمع، ومحاسبته، وله أن يُجاب على تساؤلاته. إذن هناك توازن في الإسلام بين الفرد والمجتمع، فلا تطغى حرية الفرد حتى تسيء إلى المجتمع، ولا تتوسع سلطة المجتمع حتى تُذيب شخصية الفرد، وتسحقه في آلة سلطتها. والمسؤول خادم للفرد والمجتمع على حدٍ سواءٍ، لا مُترفعاً عنهما ولا مُتعالياً.

وما يوجد في العالم الإسلامي من مخالفةٍ لهذا فهو لا يُمثّل الإسلام، وإنما يُخالفه، وقد حدث نتيجة الزمن والبعد عن أوامر الله وتعاليم الإسلام تدريجياً، فبعد انتهاء الخلافة الراشدة والمسؤولون يتحللون من تعاليمه شيئاً إثر شيء حتى حدثت هذه الهوة بين ما ندّعي وبين ما نُطبّق على الواقع. إضافةً إلى هذا البعد هناك بعد آخر وهو تولّي أعداء الله الذين أصبح لهم نفوذ واسع في ديار المسلمين يرفعون من يتولاّهم، ويضعون من يُخالف ذلك، لذا لا نجد في العالم الإسلامي الصورة الحقيقية المُمثّلة للإسلام في توازن الفرد والمجتمع، وهو ما نسعى إليه.

[٥] المرأة

خلق الله من كل شيء زوجين اثنين، فخلق من نوع الإنسان الذكر والأنثى، وجعل منهما معاً حفظ النسل وبقاء هذا الأصل. وفطر لكلٍ منهما قدراتٍ وإمكاناتٍ مختلفةً عن قدرات وإمكانات الآخر تتناسب مع ما يُوكل إليه من مهمةٍ في الطبيعة والأداء، والسكن، وتكمل مهمة الآخر حيث تتكامل الحياة بالمُهمّتين، وجعل بينهما مودةً ورحمةً فلا يستغني أحدهما عن الآخر فلو استغنى لتوقّف النسل، وانتهى الأصل، وانقطعت الحياة. ولو امتنع أحدهما عن القيام بمُهمّته أو حاول تأدية عمل الآخر لعمّت الفوضى، وتخبّط الأمر، وأصبح الناس في بؤس وشقاء.

خُلق الرجل بجسم قويٍ يتحمّل الصعاب لأن في عمله المشقّة، وهو خارج البيت يكدّ في الليل، في النهار، في البرد القارس، في الحرّ اللافح، يدفع العجلات، يُحرّك المُسنّنات، يعمل بالحراثة، بالمناجم، بالغابات... ولتتكامل حياة هذا المخلوق فُطر بعقلٍ يُحبّ الجسم الضعيف ليودع فيه الرحمة والمحبة، وليجد فيه الهناء، وصفو العيش. ولذا فالرجل لا يميل إلى المرأة المسترجلة، ولا يطلب القوية، ولا يرغب في شريكة حياته الشدّة.

وخلقت المرأة بجسم لطيفٍ فيه اللين والنعومة لا يتحمّل المشاق، ولا يصبر على الشدّة، يُناسبه الهدوء ولطف الأعمال، وهو ما يتوفّر في البيت، وينسجم مع بعض المهن والأشغال، وفي الوقت نفسه يحمل طبيعةً تحبّ القوّة في صاحبها والشدّة في شريكها، فتُقدّم له الحنان، وتُخفّف من قسوته بالعطف، ومن تعبه بالركون إليه فيتوازن الأمر جسم قوي يحمل

عقلاً يحب اللين واللطف مع جسم ضعيف له طبيعة تحب القوة. فتستقيم الحياة على هذا المنوال، ويتكامل الإنسان فيها بنوعيه. والمرأة تحتقر المُخنَّث، وتتألّم من الذين يتشبّهون بالنساء.

ومن هذه الطبيعة التي فطر الله الناس عليها كانت المرأة تفخر برجلها القوي، وفارسها الشجاع، وتنظر إلى صاحب القوام الكبير، والعقل السليم الذي يتقي به الشدائد، ويُنقذه من المهالك في عمله الخارجي وأسفاره ورحلاته، ولذا فهو ليس بحاجةٍ إلى التنكّر والاحتجاب، وإنما إلى الظهور والاحتكاك، ويبحث دائماً في إعمار الأرض، واستخراج كنوزها، واستثمار خيراتها، وكان عليه الإنفاق في البيت، وكانت له القوامة فيه، وحمايته، فهو صاحب الإمكانات على تلك الحماية وتلك القوامة.

وكانت قوة المرأة في ضعفها، والرغبة فيها في نعومتها، والطلب عليها بأنوثتها، وحبّ الرجل لها في لطفها، والضعف، والنعومة، واللطف هي فتنة المرأة، وهذا سبب الصراع بين الأقوياء عليها، لذا كان عليها عدم إظهار هذا، فلا تلين بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض، ولا تخضع للغريب، ولا تتلطّف للبعيد، وتُخفي نعومتها، ولا تُبدي شيئاً من فتنتها، وهذا أصل الحجاب والاحتشام، وهو ما يضمنه لها عمل البيت، فإذا ما خرجت للعمل أو لحاجةٍ فعليها الهدوء والوقار والحشمة والحجاب. والعمل بما يتناسب وطبيعتها كالعلم والتعليم، والطب والتمريض، والبيع و. . . على أن يخلو من الاختلاط، وتمتنع فيه الخلوة، كما يجب ألا يتعارض مع عمل البيت من حيث الوقت والغياب عنه.

وكما يتوازن الأمر في الجسم يتوازن في العمل أيضاً، فعمل الرجل خارج البيت فيه عراك مع الحاجات وفيه الضوضاء، وفيه صراع مع الرجال وفيه الفوضى، فيحب أن يجد في بيته الهدوء والسكينة، واليد الحانية التي تمسح عنه ما كابده في عمله، وتزيل من نفسه ما وجده في شُغله. وعمل المرأة داخل البيت في طبيعته الهدوء فتتحمل ما تُقاسي من عناء، وترتاح نفسها إلى مداعبة الصغار وتهيئة مستلزمات حياة هذا البيت.

ومن هذا المنطق، وهذا التوازن في الطبيعة وفي العمل فإن الإسلام قد أعطى المرأة الحقوق نفسها التي أعطاها للرجل، من حيث الشخصيّة الاعتبارية، والملكية، والرأي في الزواج، والتصرّف بالملك، والشهادة، وفي الوقت نفسه فقد كلّفها بما كلّف به الرجل من عباداتٍ وواجباتٍ، وكل منهما يُسأل عما أدّاه من أعمال، وما قام به من واجبات، وما قدَّم من أعمال خير، ولا يتحمّل أحدهما عن الآخر شيئاً، ولا تزر وازرة وزر أخرى.

إن للمرأة شخصيتها الخاصة بها، واسمها الخاص بها، ولا يمكن تغييره ونسبها إلى أسرة زوجها مهما كان علو شأنها، فخديجة بنت خويلد، رضي الله عنها، لم يتغيّر اسمها بعد زواجها من أفضل البشر، محمد بن عبد الله، عليه الصلاة والسلام، بل بقي كما كان خديجة بنت خويلد، وبقيت محتفظة بهذا، وكذا كل امرأةٍ مُسلمةٍ يبقى نسبها ولقبها، وإن ما نراه في بعض المناطق اليوم ليس هو إلا تأثراً بالنصارى وأوربا عامةً، وفيه مخالفة للإسلام، كما فيه هضم لحقوق المرأة.

وللمرأة في الإسلام أن تمتلك ما يحقّ للرجل أن يمتلكه تماماً من أرض، ودور، ومحلاتٍ، ومالٍ على أن يكون من مصدرٍ حلالٍ، وكذلك لها الحقّ في أن تتصرّف فيه كما تشاء دون منعٍ من أحدٍ، أو إجبارٍ من زوجٍ أو قريب، مع العلم أن هناك دولاً كثيرةً تَدّعي الحضارة لا تسمح للمرأة أن تتصرّف بشيءٍ من مالها أو أملاكها دون رأي زوجها. وكذلك فلها الحقّ في مهرها والتصرّف فيه، ولها نصيب من الميراث، وإن كان هذا النصيب هو نصف نصيب الرجل فذلك لأن الرجل مُكلّف بالإنفاق، وهي غير مُكلّفة، وله القوامة، وعليه الحماية وليس عليها شيء من هذا، وهذا ما يجعل لها نصف نصيب الرجل في الميراث، وليس في هذا التفاوت الظاهري اختلاف، وإنما فيه توازن تام، فإن مجموع ما يرثه رجل وامرأته يُعادل تماماً ما يرث أخو هذه المرأة وزوجته. والرجل يدفع المهر، وهي لا تدفع شيئاً، والرجل يُنفق عليها وعلى الأولاد وهي لا

تُنفق شيئاً، بل من واجبه أن يرضع أولاده عند مُرضعات إن رفضت إرضاعهم.

وتُؤدّي الشهادة كالرجل، ولكن نتيجة العاطفة التي تتمتع بها جعل ميلها أكثر إلى ناحية الضعيف أو الوسيم، ويُؤدّي إلى النسيان لذا كانت شهادة الاثنتين تعد شهادةً واحدةً أو شهادة الرجل ﴿وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ...﴾[1] فهذا إذن ليس طعناً في شهادة المرأة وإنما خوفاً من النسيان الذي يمكن أن يقع نتيجة الفطرة التي فُطرت عليها المرأة.

وتنقص عبادتها عن عبادة الرجل نتيجة طبيعتها التي خلقها الله عليها، إذ تأتيها الدورة الشهرية، ولا يُصيب هذا الرجل، فتترك الصلاة وقتها، وتُعفى منها، فلا تقضيها لأن وقت تكليف الصلاة مستمر منذ البلوغ حتى الوفاة ما لم ينقطع بإضاعته للعقل، ويقضي من يُغمى عليه، أو نسي، أو أجبر على ذلك، ولكن الصوم له وقته المحدّد، وهو شهر رمضان المبارك، فتدع المرأة صومها أيام دورتها ولكن عليها القضاء إذ انتهى شهر الصيام، هذا النقص في العبادة عن الرجل، وشهادة المرأتين بشهادة الرجل، وهذا معنى ناقصات عقل ودين، وهو تقرير واقع لا حطّاً من شأن، روى أبو سعيد الخدري، رضي الله عنه، قال: خرج رسول الله ﷺ، في أضحىً أو فطر إلى المصلّى فمرّ على النساء فقال: «يا معشر النساء تصدّقن فإني أُريتُكُنَّ أكثر أهل النار، فقُلن: وبم يا رسول الله، قال: تُكثرن اللعن، وتكفرن العشير، ما رأيت من ناقصات عقلٍ ودينٍ أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن، قُلن: وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله، قال: أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل، قُلن: بلى، قال: فذلك من نقصان عقلها، أليس إذا حاضت لم تُصلّ ولم تُصم، قُلن: بلى، قال: فذلك من

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٨٢.

نقصان دينها»[1]. ومع هذا الذي قد يبدو منه شيء يتعذّر فهمه على البعيدين، فإن رسول الله ﷺ، وصّى بالنساء كثيراً، وانتقل عليه الصلاة والسلام وهو يُوصي بهنّ فقال: «استوصوا بالنساء خيراً فإنهن عندكم عوانٍ»[2]. وروت عائشة، رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ، قال: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي، وإذا مات صاحبكم فدعوه»[3] أي إذا مات الرجل فاتركوا ذكر مساوئه، وهذا على سبيل المثال، فإن وصايا رسول الله ﷺ كثيرة.

وللمرأة الحقّ في اختيار زوجها، فهو الذي ستعيش معه العمر كله، وتُعطيه قلبها، فعن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «لا تُنكح الأيم حتى تستأمر، ولا تُنكح البكر حتى تُستأذن»، قالوا: يا رسول الله، وكيف إذنها، قال: «أن تسكت»[4]. وإذا زوّج رجل ابنته وهي كارهة فالزواج مردود، وروى الجماعة إلا مسلماً عن خنساء بنت خذام الأنصارية «أن أباها زوّجها ـ وهي ثيب ـ فكرهت ذلك، فأتت رسول الله، فردّ نكاحها» أي أبطله.

وروى أبو داود، وابن ماجه عن ابن عباس، رضي الله عنهما: «أن جارية بكراً أتت النبي ﷺ فذكرت أن أباها زوّجها، وهي كارهة، فخيّرها النبي ﷺ».

إن الإسلام أعطى المرأة البالغة العاقلة بكراً كانت أم ثيباً كامل الحرية في رفض من لا ترضاه لها زوجاً، ولا حقّ لأبيها أو وليّها أن يُجبرها على من لا تُريده. وحتى لا تقع المرأة في خطإٍ فادحٍ كهذا في اختيارها لنفسها

---

(١) أخرجه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه، وأحمد، واللفظ للبخاري في باب الحيض.

(٢) أخرجه ابن ماجه في باب النكاح.

(٣) أخرجه الترمذي.

(٤) رواه البخاري، وأحمد، وأصحاب السنن الأربعة (الترمذي، والنسائي، وأبو داود، وابن ماجه).

بسبب عاطفتها فقد جمع الإسلام بين جعل الزواج لولي المرأة وحقّها في الموافقة على من ترغب فيه، ورفض من لا تُوافق عليه، فمنع بذلك من استبداد الأولياء ببناتهم وفي الوقت نفسه لهم الحقّ في ردّ من لا يرونه كفئاً لهن.

وما دام للمرأة الحقّ في الموافقة أو الرفض فيمن يتقدّم للزواج منها فلها الحقّ في رؤيته والنظر إليه كما له الحقّ في ذلك، فروى ابن ماجه في باب النكاح أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ يخبره أنه خطب فلانة فقال له: هل نظرت إليها؟ فأجاب: لا، فأمره أن يذهب وينظر إليها.

ولما كانت المرأة هي مستقرّ الأجنة فلا يُمكن أن يتناوب عليها عدد يُلقون بالنُّطف في رحمها أو تستقبل عدة رجال فإن ذلك يُؤدي إلى اختلاط الأنساب، وضياع الحقوق، والزواج من المحارم. وكذلك فإن المرأة لا يُمكنها أن تحمل أكثر من مرةٍ في العام، ولذا فلا فائدة من تعدد الأزواج على حين يستطيع الرجل أن يلقّح عدداً من النساء في يومٍ واحدٍ، وبذا تكون الفائدة في تعدد الزوجات فيما إذا رغبنا في زيادة النسلِ، أو التعويض عما نفقده، أو لظروفٍ تُحيط بالأمّة.

وشُرع تعدد الزوجات لأننا بحاجةٍ ماسةٍ إليه، يتزوّج عادةً الشباب فتياتٍ أصغر سناً منهم، وهذا ما ينشأ عنه بعد مدةٍ فتيات ليس لهن أزواج، فلو فرضنا أن الشباب يتزوّجون في السن الخامسة والعشرين فتيات في سنّ العشرين، وهذا ينتج عنه جيل من الفتيات لا أزواج لهنّ بعد مرور أربعة أجيالٍ، أو حسب هذا التقدير بعد ثمانين سنةً، هذا الجيل من الفتيات العوانس لا حلّ لهن إلاّ التعدد، وإلا عمّ الفساد، وانتشر الفحش، وعاش بعضهن في عُقدٍ نفسيةٍ، وانعكس ذلك على المجتمع، وهذا لم يقل أحد به، ولكن يحدث فعلاً، وهو سبب انتشار الفساد، وزيادة الفتيات العوانس صاحبات العُقد النفسية، وهذا يتناسب طرداً مع البلدان التي لا يوجد فيها تعدد، وإن كان يختفي هذا أحياناً تحت ركام المفاسد، واتخاذ الخليلات، وهو ما لا يقبله مسلم. هذا إضافةً إلى الحروب التي يكون وقودها الرجال

عادةً. كما يتعرّض الرجال إلى الحوادث التي تذهب ضحيتها الأعداد بسبب عمل الرجال في خارج البيوت، وفي الأعمال الشاقة التي تحدث فيها النكبات، والحرائق، والدمار، مثل: العمل في الغابات، وفي المناجم، وعلى ظهر السفن، والسكك الحديدية، وفتح الأنفاق، وبناء السدود، ومقالع الأحجار و. . . ومع هذا النقص في الرجال يرتفع معه عدد الفتيات اللواتي لا أزواج لهن، وتزيد المشكلة ولا يحلّها سوى التعدد.

ومن منطلق ضرورة التعدد وموافقة المرأة على الزوج تُحلّ المشكلة الجنسية، بل لا وجود لها بالأساس في المجتمع الإسلامي الذي يقوم على المنهج الإسلامي واقعاً لا ادعاء، وحقيقةً لا كلاماً، وإذا أردنا أن نأخذ مثلاً على ذلك يجب علينا ألا نفتش في عالمنا اليوم وإنما علينا أن نرجع إلى المجتمع الإسلامي الأول.

إن كثيراً من النساء يرغبن أن يكنّ زوجاتٍ لرجال لهم زوجات، ويرين في ذلك خيراً لهنّ من أن يعشن حياتهنّ كلّها بلا أزواج، ولا يعرفن ما فطر الله فيهنّ من غريزة الجنس، ويُفضّلن أن يعشن في بيتٍ فيه أنس من أن يحيين وحيداتٍ في بيوتٍ ليس فيها إلا الوحشة والقفر، وليس هناك من مساعد في الوقت الذي يكن فيه بحاجةٍ إلى المساعدة وإلى العطف وإلى تأدية بعض الأعمال لهن.

إن كثيراً من النساء يرين أنه من الخير لهنّ أن يعشن مع ضرائر من أن يُحرمن من عاطفة الأمومة. وإذا كان هناك بعض من يخدعن أنفسهنّ فيرفضن هذا الكلام تحت تأثير الفكر النصراني الأوربي فإنهن يُخالفن الطبيعة التي فُطرت عليها إذ يعترفن بالغريزة الجنسية وعاطفة الأمومة وأنهما من طبيعة النفس البشرية التي خلقها الله، وأودع فيها هذا.

والمرأة لا تحتاج إلى المال والمساعدة فقط، وإذا كانت هذه الحاجات مادية أساسية لها للبقاء فإنها بحاجةٍ إلى أشياء معنويةٍ أخرى وهي جوانب نفسية ملحّة لا تستقرّ من دونها النفس ولا تجد الراحة والطمأنينة، وهي الرجل، والعاطفة التي قد يكون الإنسان بحاجةٍ إليها وهو في سنٍّ

كبيرةٍ أكثر من حاجته إليها في مرحلة الشباب، فالحنان والعطف والشعور بالتقدير والحبّ أمر مهم جداً بالنسبة إلى الإنسان في مرحلة الشيخوخة. وما يؤدّيه الزوجان بعضهما لبعض لا يمكن تأديته من آخرين، فالمرأة بحاجةٍ إلى الزوج الذي يواسيها ويحنو عليها في كبرها، وإن تجالدت وصبرت على فقده في سن الصبا مُكرهةً.

وفي المجتمع الإسلامي لم يكن المسلمون يتركون امرأةً تُحرم مما تطلبه فما أن تفقد واحدة زوجها، وتنقضي عدتها حتى يطلبوها، فإن وافقت فذلك ما تبغي، وإن رفضت فحسب هواها، وربما لا ترغب شخصاً بعينه فتقول دون حرجٍ، فيتقدّم آخر... والأمر لها. وبذلك فقد حفظ المسلمون مجتمعهم من الفَساد، ومن انتشار العُقد النفسية، وفي الوقت نفسه كان في ذلك مدد لهم من الشباب استطاعوا به أن يفتحوا مناطق واسعةً، وأن ينشروا فيها عقيدتهم، وأن يرفعوا منها الظلم، ويبنوا حضارتهم، ولولا ذلك لما استطاعوا لقلةٍ في عددهم، وما أكلته الحروب منهم. وتمتّعت المرأة في ذلك المجتمع بكل ما تُريد.

ويمكن أن أضرب بعض النماذج من نساءِ ذلك المجتمع. توفي أبو سَلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومي ابن عمة رسول الله ﷺ، في بداية السنة الرابعة بعد أن جُرح في غزوة أحد، واندمل جرحه، وعوفي، ثم انتقض عليه، ومات منه. ونظر رسول الله ﷺ، إلى هذه الأسرة التي خلّفها صاحبه وابن عمته، ولم يكن لها من معيلٍ غير الله، وهي زوجة لم تتجاوز الثامنة والعشرين عاماً، وغلامان هما: سَلمة، وعمر، وابنة واحدة هي زينب، وفي روايةٍ أن هناك ابنةً أُخرى تُدْعى رُقيَّة. ورأى أن يتعهّدها من بعده، ويرعاها بعد موته، وليس أفضل من أن يضمّها إلى أُسرته، فليس أكرم من أن تصبح أُسرته، ولا أكثر احتراماً من مساواتها بمن يُعيل ويُكرم. وكان زواج رسول الله ﷺ، بأمّ سَلمة ورفعها إلى منزلة أمّ المؤمنين، ولنستمع إليها، رضي الله عنها، تتحدّث عن هذا قالت: لما انقضت عدّتي، استأذن عليّ رسول الله ﷺ، وأنا أدبغ إهاباً فسللت يدي منه، وأذنت

لرسول الله، ووضعت له وسادةً من أدم، حشوها ليف، فقعد عليها، فخطبني إلى نفسه، فلما فرغ قلت: يا رسول الله إني امرأة فيّ غيرة شديدة، وأخاف أن ترى مني شيئاً تكرهه يُعذّبني الله به، وأنا امرأة قد دخلت في السنّ، ذات عيالٍ، قال: أما ما ذكرت من الغيرة فسوف يُذهبها الله عنك، وأما ما ذكرت من السنّ فقد أصابني مثل ما أصابك، وأما عيالك فهم عيالي. قالت: فقلت: قد سلّمت أمري إلى رسول الله، فتزوّجني[١]. ويكفي أن أُعطي مثلاً آخر، والمجتمع الإسلامي كان على تلك الصورة.

كانت عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل العدوية، ابنة عمّ عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وقد تزوّجها عبد الله بن أبي بكر الصديق، رضي الله عنهما، وكانت بينهما مودة شديدة، فلما أُصيب بالطائف، اتفق مع زوجه عاتكة ألاّ تتزوّج بعده لما كان بينهما من حبّ، وقدّم لها المال الوفير تستعين به في حياتها، وتعيل أُسرتها، ولم يكن رأيه بسديد، فلما مات، وانقضت عدّتها، خطبها ابن عمّها عمر، رضي الله عنه، لنفسه، فأخبرته بما اتفقت عليه مع زوجها الأول عبد الله، فأعلمها أن هذا اتفاق غير صحيح، فاقتنعت، ووافقت عليه، وتزوّجها. وطُعن عمر ومات بعد ثلاثة أيامٍ، وانقضت عدة نسائه، ومن لعيال أمير المؤمنين سوى إخوانه وأصحابه. وطلب الزبير بن العوام، رضي الله عنه، عاتكة فوافقت، وتزوّجها، وهي تعلم أن عنده ثلاث زوجات غيرها، وعاشت معه حياة هنيئةً، وبعد مُدةٍ قُتل الزبير بعد أن قضى معها ما يقرب من ثلاثة عشر عاماً، وبعد انقضاء عدّتها طلبها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، فامتنعت خوفاً عليه، وقالت: لا رغبةً عنه ولكن خوفاً عليه إذ ظنّت أن مصيره سيكون القتل بعد أن قُتل عنها الرجال الثلاثة الذين تزوّجتهم من قبل، وهو ظنّ خاطئ، ولا يصحّ، وقد قُتل، رضي الله عنه، أيضاً، ولم

---

(١) السمط الثمين.

يتزوّجها. هكذا عاش الرجال في المجتمع الإسلامي الأول يُحقّقون رغباتهم، ويُعيلون أُسر إخوانهم الذين سبقوهم إلى رحمة الله، وعاشت النساء يُحقّقن رغباتهن برضاهن دون تعقيد، ومن غير صعوبةٍ في إعالة أولادهن، وكان المجتمع سليماً ليس فيه شيء من المشكلات التي تعيشها المجتمعات الحالية في كل مكان.

ومع بحث التعدد لا بدّ من أن أُعطي كلمة مختصرةً عن الطلاق. بنى رجل بامرأةٍ ثم تعثّرت استمرارية الحياة بينهما إذ غدت جحيماً لا يُطاق لسوء تصرّفٍ من أحدهما أو كليهما، فما هو الحل؟ لدينا طريقان لا ثالث لهما إما الطلاق وهو ما اختاره الإسلام، وإما المحافظة على الزواج الاسمي بينهما بحيث لا يُشارك أحدهما الآخر عاطفياً أو وجدانياً أو وديّاً بل ولا مُجاملة أبداً، بل يتجه كلاهما نحو هواه بالحرام فيُحقّق رغباته فيعيش الرجل مع خليلته وتغضّ المرأة النظر عما يحدث، وكأنها لا تدري، وتعيش هي في أحضان أصحابها، ويتعامى الرجل حتى كأنه لا يرى شيئاً، ثم يجمعهما البيت في آخر الليل وقد انهك جسميهما سهر الليل مع من أحب، وهو ما اختارته المجتمعات الحديثة، متأثرةً بالنصرانية واليهودية المُزيفتين واللتين لا تُقرّا الطلاق، وما اعتقد امرأةً أو رجلاً يُوافق على الحياة مع مخلوقٍ آخر مكرهاً لا يُحبّه، ولا يستطيع النظر إليه، وكيف يمكن أن يُشاركه وجدانه وغرائزه. ولذا اضطرت بعض الدول النصرانية إلى إباحة الطلاق مخالفةً عقائدها شاهدةً على زيفها وعدم صلاحيتها للحياة.

كانت المرأة في الجاهلية سلعةً تُتخذ وسيلةً لإرواء الغرائز وتحقيق الشهوة البهيمية، وجاء الإسلام فأعطاها حقّها، حتى إذا ضعف أبناؤه، وتحكّم أعداؤه، رغبوا في إعادة المرأة إلى الحضيض، فاتخذوها مُتعةً، وخدعوها برفع مكانتها وإعطائها حريتها باسم الاختلاط، والسفور، والتبرج، ففقدت حريتها، وحُرمت من حاجاتها الفطرية باسم مصالحها والحرص عليها وعدم التعدد، ومحاربة الطلاق، والدعوة إلى المساواة، فرجعت تئنّ من العمل، والإهمال، واعتبارها من سقط المتاع تُلقى إذا

انتهت الحاجة منها، ونال كل رغبته. وإذا زالت نضارة شبابها بدأت تبحث عن عمل مهما كان وضيعاً لتؤمّن لقمتها.

وأخيراً لابدّ مِنْ أنْ أُعطي لمحةً مختصرةً عن طريقة التوسع في استخدام العاملات في البيوت ومن غير حاجة إذ سأعود إليها، إن شاء الله، في موضوع الترف. إن استعمال الخدم في البيوت قد أفقد الأُسرة والعائلة كيانها، وأضاع نشاط الأمة وحيويتها، وجزّأ المجتمع إلى طبقاتٍ. وقد دخل هذا الأُسلوب باسم الرفاهية والترف، أو التباهي والتفاخر بذلك، أو باسم خدمة المرأة وراحتها لكنه في الواقع سبّب لها المتاعب والمشكلات، وأفسد المجتمع، ونغّص الحياة، وهدّم البيوت. إن وجود الخدم في المنزل سواء أكانوا رجالاً أم نساءً يُسبّب خطراً كبيراً على الفتيان والفتيات داخل البيت وأقلّ من ذلك على المرأة والرجل إن كانا على مستوىً معينٍ وإلاّ فالخطر عليهما أكبر، وتكفي الإشارة إلى ذلك، إضافةً إلى ما يحمل هؤلاء الخدم في نفوسهم من لهب الثورة الشهوانية، وخاصةً إن كانوا في سنٍ معينةٍ وهو الغالب، ويتولّد الحقد، وهذا ما يُؤدّي - إن زاد أعداد الخدم - إلى حركاتٍ تعصف ريحها بالأُمة كثورة الزنج التي لم تكن إلاّ من هذا القبيل، وحركة القرامطة التي دعت إلى شيوعية المال والنساء لهذه الأسباب، وتبدأ عادةً بتعدّياتٍ فرديةٍ على أصحاب البيوت وخاصةً على النساء وسرقة الأموال وهي دليل إنذارٍ بالخطر الذي لا يلبث أن تشتعل ناره إن لم يُتدارك أمره.

ومن جانبٍ آخر فإننا نفقد عمل جزءٍ من المجتمع، وهو النساء اللواتي لا عمل لهن، فإذا أوكلت المرأة مهمتها من تربيةٍ وأعمال المنزل للخادمة فماذا تصنع هي؟ وبذا ندع جزءاً من المجتمع عاطلاً عن العمل. ولكن إذا قامت بعملها فإنما تكون قد أدّت نصف الأعمال المنوطة بالإنسان، عمل داخل البيت تقوم به المرأة، وعمل خارجه يقوم به الرجل، لا كما يدّعي أعداء المجتمع أن العمل داخل البيت عطالة، والتربية بطالة.

ومن ناحيةٍ ثانيةٍ فإنا نطمح أن يكون للنساء كلهنّ أزواج، وأن يكنّ

صاحبات بيوت، وذوات عيال، ولهن كرامتهن، ولا توجد طبقات في المجتمع، أما خصوم الإنسانية فيرغبون أن يكون نصف النساء خادمات ممتهنات، وتعيش الباقيات على عملهن، وهم يستمتعون بهذا النصف.

وإذا دخلت الأمة بمرحلة الترف فقد آذنت بالانصرام، وسيطرت غيرها عليها، وآلت حضارتها بالزوال وقيام غيرها مكانها.

[٦] الأُخُـــوّة

فهم صحابة رسول الله ﷺ الأخوة بمعناها الصحيح وهي أنها أخوة العقيدة، وقد طبّقوها فعاشوا حياةً سعيدة ملئها الحبّ والطمأنينة، ويُظلّلها الأمن والرخاء، ويشعّ منها الوئام والهدوء النفسي.

وليس الأخ بمعنى الشقيق أي أخاً في الدم والنسب، إذ كثيراً ما يختلف الشقيق عن شقيقه في طباعه، وسلوكه، وتقويمه للأمور، ونظرته للحياة فيعيش كل في طريقه الذي يراه أو دربه الذي يرتضيه بعيداً عن شقيقه، وربما قاتل أحدهما الآخر أو كان كل منهما في صف جماعة محاربة للأخرى. أمّا الأخوة الصحيحة فهي الاتفاق شبه التام في السلوك، والطباع، والنظرة إلى الحياة و.... ولهذا قالت العرب قديماً: «ربّ أخ لك لم تلده أمّك»، ويقصدون بالأخ هنا الذي يُحبّك محبّةً تامةً ويتفق معكَ في كثيرٍ من جوانب الحياة وطريقتها.

ولما كانت العقيدة تُهذّب طباع المرء، وتحكم سلوكه، وتُوضّح له مهمته في الحياة، وتُبّين له المجال الذي يجب أن يسير فيه، والخط الذي ينهجه لذا كان أبناء العقيدة الواحدة إخوةً بحقٍّ، فهم أكثر تفاهماً بعضهم مع بعض من أشقائهم وأقربائهم، وأكثر صدقاً، وأكثر محبةً، وأكثر رعايةً وحَدباً بعضهم على بعض، ولِم لا وهم بسلوكٍ واحدٍ، ونظرةٍ واحدةٍ، ويرون المُهمّة المُلقاة على عاتقهم واحدةً، فهم أبناء عقيدةٍ واحدةٍ، والعقيدة منهج حياة.

وجاء قول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٠﴾[1]. وجاء قول رسول الله ﷺ: «لا

---

(١) سورة الحجرات: الآية ١٠.

يؤمن أحدكم حتى يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه»[1]. فالمسلم الصادق لا يريد لنفسه شيئاً إلاّ ويُحبّه لأخيه، ومن ذلك نشأ المجتمع المسلم المتراصّ بعضه إلى بعض، إن خرج أبناؤه إلى الجهاد لم يحدث فيه خلل، وإن حلّت به مجاعة أو أصابته نائبة لم يتأثّر داخله لما فيه من تعاونٍ بين أفراده ولبناته، ولما يتمّ من مساعدةٍ بين أسره وعائلاته، بل وبين المسؤولين والرعية، وذلك على غير ما يحدث في المجتمعات غير الإسلامية اليوم التي تتفشّى فيها الفاحشة بسبب الحاجة إن حلّ جدب، ويكثُر فيها السوء نتيجة المجاعة إن ساد قحط، ويستبدّ الغني بالفقير، ويستعبد القوي الضعيف إن نزلت نازلة، بل يعيش المسؤول في رفاهٍ ونعيم، وتُبطره النعمة على حين تكون الرعية في حالةٍ بئيسةٍ، وحتى تتحلل أواصر الصلات التي تقوم عليها هذه المجتمعات من نسبٍ، أو طبقةٍ، أو مصلحةٍ، أو حزبيةٍ أو أيّة رابطةٍ من هذه الروابط المعروفة اليوم، والتي تُتخذ عنواناً للتفاهم أو الاتحاد، ويعيش كل امرئٍ لنفسه يُصارع ما يعاني.

وتزيد رابطة النسب في الإسلام رابطة أخوة العقيدة متانةً وحبكاً: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ۝٧٥﴾[2]. ولا شيء سوى رابطة النسب تزيد في أخوة العقيدة. أمّا إذا اتفقت صلة الرحم واختلفت العقيدة فلا وزن للقرابة أبداً، وإنّما يعيش الذين لا يدينون بالإسلام خارج نطاق دائرة العقيدة بعيدين عن أقربائهم المسلمين، إمّا خارج حدود دار الإسلام نهائياً إن كانوا على الشرك أو في داخلها إن كانوا من أهل الكتاب، ولكن في دائرة تمسّ دائرة العقيدة من غير أن تتداخل فيها.

ولننظر إلى بعض أحداث التاريخ حيث يأتي التطبيق العملي للأخوة التي جاء بها الإسلام، وكما فهمها أصحاب رسول الله ﷺ.

---

(١) متفق عليه.

(٢) سورة الأنفال: الآية ٧٥.

بعد أن هاجر رسول الله ﷺ، إلى المدينة آخى بين المسلمين، المسلمين جميعاً ليكونوا كتلةً واحدةً، ولم يُؤاخ بين المهاجرين والأنصار في سبيل المساعدة المادية كما يتصوّر بعضهم، وإنما كانت المساعدة المادية نتيجة المؤاخاة. لقد آخى رسول الله ﷺ، بينه وبين ابن عمّه علي بن أبي طالب وكلاهما مهاجر، وآخى بين عمه الحمزة بن عبد المطلب وبين مولاه زيد بن حارثة وكلاهما مهاجر، وآخى بين الزبير بن العوام وعبد الله بن مسعود الهذلي وكلاهما مهاجر، وآخى بين بلال بن رباح وعبد الله الخثعمي وكلاهما مهاجر، وآخى بين جعفر بن أبي طالب ومعاذ بن جبل، وجعفر غائب في الحبشة هذا إضافة إلى رواية المؤاخاة بين أبي بكر الصديق وعمر بن الخطّاب وكلاهما مهاجر، وكذلك كانت مؤاخاة بين أنصاري وآخر، فلو كانت الغاية من المؤاخاة اقتصادية لكانت بين مهاجرٍ وبين عددٍ من الأنصار كي يمكنهم مساعدة المهاجر بشكلٍ أفضل، وخاصةً أن الأنصار أكثر عدداً، ويُشكّلون ثلاثة أمثال المهاجرين، أو لآخى بين أغنياء الأنصار وفقراء المهاجرين حيث يوجد بين الأنصار فقراء، كما يوجد بين المهاجرين أغنياء أمثال أبي بكر الصديق، وعثمان بن عفان و.... غير أن إيثار الأنصار، رضوان الله عليهم، وبعض المظاهر والحوادث هي التي جعلت المؤرخين ينظرون إلى الجانب الاقتصادي فقط، ويُركّزون عليه، وهذا ما جعل المستشرقين يعتمدون على هذا، ويبحثون في الجانب الاقتصادي، ويستنتجون أن المادة هي رائد كل موقف من مواقف المسلمين، وقد نردد نحن هذا دون علم ومن غير دراسة.

وعلى كلٍّ فإنّ المؤاخاة التي شملت المهاجرين والأنصار قد قوّت من أخوة العقيدة وأضعفت ما بقي من رواسب رابطة القرابة والجنس، فالمهاجرون الذين بعضهم أقرباء بعض قد غدا إخوانهم من الأنصار، والأنصار أصبح إخوانهم من المهاجرين، وبذا أضحت أخوة العقيدة هي الوحيدة، ويمكن ملاحظة وصية حمزة بن عبد المطلب التي كتبها قبل غزوة أحد لأخيه في العقيدة زيد بن حارثة. وتسجيل بلال بن رباح لحقه في الغنائم لأخيه في العقيدة عبد الله بن عبد الرحمٰن الخثعمي، إذ لم يكن

لبلال عقب، وذلك عندما أنشأ عمر بن الخطاب الدواوين.

ومن إيثار الأنصار ونتائج الأخوة في العقيدة قال عبد الرحمن بن عوف، رضي الله عنه: «آخى رسول الله ﷺ، بيني وبين سعد بن الربيع، فقال لي سعد: إني أكثر الأنصار مالاً، فأقاسمك مالي شطرين، ولي امرأتين، فانظر أيتهما شئت، حتى أنزل لك عنها، فإذا حلّت تزوجتها[1]، فقلت: لا حاجة لي في ذلك، دلّوني على السوق، فدلّوني على سوق بني قينقاع، فما رحت حتى استفضلت إقطاً وسمناً»[2].

هذه الأخوة بدأت نظريةً ثم غدت عمليةً طُبّقت فيما ذكرنا على الجانب المادي، ولكن النفس البشرية قد تكون أغلى بكثير من المادة عند بعضهم، فلننظر التطبيق عندما يبدأ القتال، وكيف يجود الإنسان المسلم بنفسه لينقذ أخاه في العقيدة، وكيف يُضحّي بأبيه وأخيه وأقربائه جميعاً ليحمي عقيدته، ويُدافع عنها، وكيف يقف بجانب إخوانه في العقيدة ضدّ أهله وعشيرته ما داموا يُخالفونه في العقيدة.

وكانت معركة بدرٍ الكبرى أولى هذه المعارك التي دارت بين المسلمين من مهاجرين وأنصار وبين قريش التي يضمّ جيشها أقرباء المهاجرين من آباء، وأبناء، وأبناء عمٍّ، وعشيرة، وما إلى ذلك من أواصر الدم، والنسب، والقربى، وعصبية الجنس، والمولد، والمصلحة، والسكن، وكل ما في الدنيا من روابط باستثناء رابطة العقيدة.

دعا عتبة بن ربيعة من المشركين يوم بدر إلى المبارزة فقام إليه من بين المسلمين ابنه أبو حذيفة، رضي الله عنه، فقال له رسول الله ﷺ: اجلس. فلما قُتل عتبة بن ربيعة كان أبو حذيفة بن عتبة قد أعان على أبيه

---

(١) قال سعد هذا لعبد الرحمن، رضي الله عنهما، بعد حديثه مع زوجتيه وموافقتهما على ذلك، وأن نساء الأنصار كانت كرجالهن أهل إيثار، ويحبون من هاجر إليهن، ويؤثرونهن على أنفسهن ولو كان بهن خصاصة.

(٢) أخرجه البخاري.

بضربة. فقالت أخته هند بنت عتبة زوج أبي سفيان بن حرب:

أبو حذيفة شرّ الناس في الدين ... الأحول الأثعل المشؤوم طائره
حتى شببت شباباً غير محجون؟ ... أما شكرت أباً رباك من صغرٍ

وقد قُتل في أول مبارزة عتبة بن ربيعة (والد أبي حذيفة)، وشيبة بن ربيعة (عمّه)، والوليد بن عتبة (أخوه). فلما أُلقي عتبة والد أبي حذيفة في القليب تغيّر وجه أبي حذيفة، فقال له رسول الله ﷺ: «لعلك دخلك من شأن أبيك شيء». فقال أبو حذيفة: لا والله، ولكني كنت أعرف من أبي رأياً وحلماً وفضلاً، فكنت أرجو أن يهديه الله للإسلام، فلما رأيت ما مات عليه أحزنني ذلك. فدعا له رسول الله ﷺ، بخير، وقال له خيراً.

ونادى أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، ابنه عبد الرحمن، وهو يومئذٍ مع المشركين، فقال: أين مالي يا خبيث؟ فقال عبد الرحمن:

وصارم يقتل ضلّال الشّيب ... لم يبق غير شكّةٍ[1] ويعبوب[2]

ودعا عبد الرحمٰن أباه إلى المبارزة، فقام إليه أبو بكر ليُبارزه، فقال له رسول الله ﷺ: «متّعنا بنفسك يا أبا بكر، أما علمت أنك عندي بمنزلة سمعي وبصري».

وقصد والد أبي عبيدة ابنه أبا عبيدة ليقتله فولّى عنه أبو عبيدة لينكفّ عنه فلم ينكفّ عنه، فرجع عليه وقتله، وأنزل الله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾[3].

---

(١) الشكة: السلاح.

(٢) اليعبوب: الفرس الكثير الجري.

(٣) سورة المجادلة: الآية ٢٢.

هذه رابطة الأبوة، والبنوة، والعمومة وهي أعظم روابط الدم والنسب، وقد انهارت وتحطّمت أمام أخوة العقيدة التي لا توازيها وشيجة أخرى في الدنيا مهما كانت صفتها. وذلك لأنها ناتجة عن معتقدٍ في القلب بينما تقوم الوشائج الأخرى على العاطفة أو المصلحة أو الهوى أو العصبية أو....

وقال عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، لسعيد بن العاص، رضي الله عنه، وقد مرّ به: إني أراك كأن في نفسك شيئاً، أراك تظنّ أني قتلت أباك، إني لو قتلته لم أعتذر إليك من قتله، ولكني قتلت خالي العاص بن هشام بن المغيرة، فأما أبوك فإني مررت به وهو يبحث بحث الثور بروقه[1] فحدث عنه، وقصد له ابن عمه علي فقتله. فقال له سعيد: «لو قتلته لكان على الباطل وأنت على الحقّ.

وكان بين أسرى قريش يوم بدر أبو عزيز بن عمير بن هاشم أخو مصعب بن عمير، رضي الله عنه، لأمه وأبيه، وكان الذي أسر أبا عزيز رجل من الأنصار يدعى أبا اليسر، وكان أبو عزيز صاحب لواء المشركين ببدرٍ بعد النضر بن الحارث، ومرّ مصعب بن عمير بأخيه الأسير فقال للذي يأسره: شدّ يديك به فإن أمّه ذات متاع، لعلها تفديه منك، فقال أبو عزيز لشقيقه مصعب: يا أخي، هذه وصايتك بي! فقال له مصعب: إنه أخي دونك.

واستشار رسول الله ﷺ، أصحابه في أسرى بدر فمنهم من أشار بالفداء كأبي بكر، رضي الله عنه، إذ قال: يا رسول الله، هؤلاء بنو العم، والعشيرة، والإخوان، وإني أرى أن تأخذ منهم الفدية، فيكون ما أخذناه منهم قوة لنا على الكفار، وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضداً. ومنهم من أشار بالقتل مثل عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وسعد بن معاذ، وعبد الله بن رواحة، رضي الله عنهم، فمما قاله عمر، رضي الله عنه: والله ما أرى رأي أبي بكر، ولكني أرى أن تُمكّني من فلان ـ قريب

---

(١) الروق: القرن.

لعمر ـ فأضرب عنقه، وتُمكّن علياً من عقيل بن أبي طالب فيضرب عنقه، وتُمكّن الحمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه، حتى يعلم الله أن ليس في قلوبنا هوادة للمشركين، هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم.

ونلاحظ في هذه الوقائع إصراراً على ترك العواطف، وتخلّياً واضحاً عن العصبيات، وتحدّياً سافراً لكل مُقوّمات المجتمع الجاهلي التي تقوم على التعصّب للقبيلة، والدفاع عنها بكل الإمكانات، والفخر بالانتساب إليها، ثم الذود عن الأسرة سواء أكان بالحقّ أم بالباطل، والموت في سبيل رفعتها وسمعة العشيرة. ثم نلاحظ التأكيد على الأخوة في العقيدة، والعمل على حماية الإسلام، والجهاد في سبيل الله لنشر الدين وكل هذه أفكار جديدة طرحها الإسلام، وأصبحت مبادئ لأبنائه الذين تركوا المبادئ الجاهلية وتخلّوا عنها، واعتقدوا أن مبادئهم الجديدة ستبقى سبب نجاحهم وانتصاراتهم، فإذا تراخت نفوسهم عن حملها ضعف كيانهم، وانحطّ مجدهم، وبدأت تزول دولتهم وفي الوقت نفسه تعود الأفكار الجاهلية للظهور والانتشار. وبمقدار ما تتوسّع أفكار أحد الجانبين تضمر أفكار الجانب الآخر.

وفي سنة ست كانت غزوة بني المصطلق على ماءٍ لهم يُسمّى: «المريسيع» فبينما رسول الله ﷺ، على ذلك الماء وردت واردة الناس، ومع عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أجير له من بني غفار يُدعى: جهجاه بن مسعود يقود فرسه، فازدحم جهجاه وسنان بن وبر الجهني حليف بني عون بن الخزرج على الماء، فاقتتلا، فصرخ الجهني يا معشر الأنصار. وصرخ جهجاه يا معشر المهاجرين. فغضب عبد الله بن أُبيّ بن سلول، وعنده رهط من قومه، منهم زيد بن أرقم غلام حدث. فقال عبد الله بن أُبي: أوقد فعلوها؟ قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا. والله ما أعدُّنا وجلابيب[1] قريش إلاّ كما قال الأذلّ: سمّن كلبك يأكلك! أما والله لئن

---

(١) الجلابيب: اسم كان يلقب المنافقون به المهاجرين.

رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزّ منها الأذلّ. ثم أقبل على من حضره من قومه فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم: أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحوّلوا إلى غير داركم. فسمع زيد بن أرقم ما قاله رأس المنافقين عبد الله بن أُبيّ بن سلول وشعر بأخوة الإسلام، فمشى به إلى رسول الله ﷺ، وذلك عند فراغ رسول الله ﷺ، من عدوّه، وأخبره الخبر، وعنده عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فقال عمر لرسول الله ﷺ، مر به عبّاد بن بشر فليقتله. فقال رسول الله ﷺ: «فكيف يا عمر إذا تحدّث الناس أن محمداً يقتل أصحابه؟ ولكن أذّن بالرحيل». وذلك في ساعة لم يكن رسول الله ﷺ، يترحل فيها. فارتحل الناس، وقد مشى عبد الله بن أُبيّ بن سلول إلى رسول الله ﷺ، حين بلغه أن زيد بن أرقم قد بلّغه ما سمع منه فحلف بالله ما قلت ما قال، ولا تكلّمت به. وكان ابن أُبيّ في قومه شريفاً عظيماً. فقال من حضر رسول الله ﷺ، من الأنصار من أصحابه: يا رسول الله عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه ولم يحفظ ما قال الرجل.

فلما استقل رسول الله ﷺ، وسار لقيه أُسيد بن الحضير، رضي الله عنه، فحيّاه بتحية النبوة، وسلم عليه، ثم قال: يا نبي الله، والله لقد رحت في ساعة منكرة ما كنت تروح في مثلها، فقال له رسول الله ﷺ: «أو ما بلغك ما قال صاحبكم؟». قال أسيد: وأي صاحب يا رسول الله؟. قال رسول الله ﷺ: «عبد الله بن أُبيّ». قال أُسيد: وما قال؟. قال رسول الله ﷺ: «زعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج الأعزّ منها الأذلّ؟». فقال أُسيد: فأنت يا رسول الله والله لتخرجنّه منها إن شئت. هو والله الذليل وأنت العزيز. ثم قال: يا رسول الله، ارفق به. فوالله لقد جاءنا الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوّجوه، فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكاً.

وبلغ الخبر عبد الله بن عبد الله بن أُبيّ، وكان شاباً مؤمناً، عرف حقيقة الإسلام، وفهم الأخوة الحقّة في هؤلاء القوم الذين يسير معهم، ويخالفهم في ذلك والده عبد الله بن أُبيّ، فأتى رسول الله ﷺ فقال: يا

رسول الله، إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أُبيّ فيما بلغك عنه، فإن كنت لا بدّ فاعلاً فمرني به فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجلٍ أبر بوالده منّي، وإني أخشى أن تأمر غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أُبيّ يمشي في الناس، فأقتله، فأقتل مؤمناً بكافر، فأدخل النار. فقال رسول الله ﷺ: «بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا».

ولما قفل الناس راجعين إلى المدينة أسرع عبد الله بن عبد الله بن أُبيّ ووقف على باب المدينة، واستلّ سيفه، فجعل الناس يمرون عليه، فلما جاءه أبوه عبد الله بن أُبيّ قال له ابنه: وراءك! فقال: مالك؟ ويلك! فقال الابن: والله لا تجوز من ها هنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ، فإنه العزيز وأنت الذليل! فلما جاء رسول الله ﷺ، وكان يسير ساقة (في مؤخرة الجيش ينظر المتخلف والضال والمحتاج إلى معونة). فشكا إليه عبد الله بن أُبيّ ابنه. فقال ابنه عبد الله: والله يا رسول الله لا يدخلها حتى تأذن له. فأذن له رسول الله ﷺ. فقال الابن: أما إذ أذن لك رسول الله ﷺ، فجز الآن. وهكذا فقد استعلى عبد الله بإيمانه على كل آصرةٍ عرفتها البشرية فكانت أقربها إليه تحت قدميه وهي آصرة الأبوة التي تُعدّ أهم رابطة عند كل بني البشر.

وللنساء دور لا يختلف عن دور الرجال في هذا المجال، فقد خرج أبو سفيان من مكّة قاصداً المدينة ليُؤكّد صلح الحديبية أو ليزيد في مدته، خوفاً من أن يقوم المسلمون بردّ فعلٍ بعد أن اعتدت بنو بكر حليفة قريش وبدعم منها وتشجيع على خزاعة حليفة المسلمين، فلما وصل أبو سفيان إلى المدينة دخل على ابنته أم المؤمنين أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ، طوته عنه؛ فقال: يا بنية، ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عنّي؟ قالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ، وأنت رجل مشرك نجس، ولم أحبّ أن تجلس على فراش رسول الله ﷺ؛ قال: والله لقد أصابك يا بنية بعدي شرّ.

وتمرّ النفس البشرية بمراحل من الضعف فيختلف المسلم مع أخيه، وتصطدم الجماعة المؤمنة مع الثانية، ولكن لا يلبث المؤمن أن يثوب إلى رشده عندما يُذكّر، وترجع الطائفة عن غيّها إذا ما نبّهت، وتقاتل إذا ما تمادت حتى تعود ولا يمكن أن ننزع صفة الإيمان عن هذا أو تلك.

عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً». فقال رجل: يا رسول الله أنصره إذا كان مظلوماً، أفرأيت إن كان ظالماً، كيف أنصره؟ قال عليه الصلاة والسلام: «تحجزه أو تمنعه عن الظلم، فإن ذلك نصره»[١].

قال أبو ذر الغفاري، رضي الله عنه: إني ساببت رجلًا فعيّرته بأمر فقال له النبي ﷺ: «يا أبا ذر إنك امرؤ فيك جاهلية إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تُكلّفوهم ما يغلبهم فإن كلّفتموهم فأعينوهم»[٢].

وأراد اليهود أن يحطّموا المؤاخاة التي تمّت بين المسلمين بإثارة العصبية وإيقاع الفتنة فمرّ أحدهم وهو شاس بن قيس على جماعة من المسلمين من الأوس والخزرج، وقد صفا لهم الجو، وراقت لهم الحياة، بعد أن أزال الإسلام عنهم روح الجاهلية، فساء هذا الودّ اليهود، فدعا شاس بن قيس أحد شباب اليهود وطلب منه أن يجلس مع هؤلاء النفر من الأنصار، ويذكر أمامهم يوم «بُعاث» وما قبله من أيام اختلف فيها الأوس والخزرج، وينشد ما قيل من أشعار في تلك الأيام الجاهلية لإثارة الفتنة ففعل، وقد كادت تقع، حتى تواعدوا ظاهر الحرّة، على حين غفلةٍ من أخوة العقيدة التي غرسها الإسلام، ووصل الخبر إلى رسول الله ﷺ، فأسرع إليهم، فوقف فيهم خطيباً، وقال: «يا معشر الأنصار، الله... الله، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام، وأكرمكم

---

(١) رواه البخاري والترمذي.

(٢) رواه البخاري.

به، وقطع عنكم به أمر الجاهلية، واستنقذكم من الكفر، وألّف بين قلوبكم». فما أن سمع الأنصار قول رسولهم حتى ثابوا إلى رشدهم، وانقلبوا بنعمة الله إخواناً، وزالت من نفوسهم وساوس الشيطان ودعوى الجاهلية.

وقد يتطوّر الخلاف ويستحكم، وتثور الفتنة، ويقع القتال، وعندها يقع أمر تحسمه أخوة العقيدة. ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩﴾[1]، إذ يُستباح قتال البغاة من المسلمين ليُردّوا إلى صفّ إخوان العقيدة، ولكن لا يُجهز على جريح، ولا يُقتل أسير، ولا يُتعقَّب مدبر ترك المعركة وألقى السلاح، كما لا تُؤخذ أموال البغاة غنيمة، ولا تُسبى الذراري لأن الغرض من قتالهم ليس هو القضاء عليهم، وإنما ردّهم إلى الصف، وضمّهم إلى لواء الأخوة الإسلامية.

هذا ما فهمه المسلمون الأوائل من صحابة رسول الله ﷺ، والتابعين، والسلف الصالح جميعهم من معنى الأخوة في العقيدة فطبّقوها، وتمكّنوا بعد ذلك من تكوين المجتمع المتراص البنيان الذي يستطيع أن يؤدّي مُهمَّته في الحياة، وقد قدّموا ـ رضوان الله عليهم ـ الدور العظيم في إعمار الأرض، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور.

---

(١) سورة الحجرات: الآية ٩.

[٧] أهل الذمّة

يضمّ المجتمع الإسلامي أهل الذمّة ومن يلحق بهم إضافةً إلى المسلمين، ولا يوجد فيه أصحاب ديانات غير ذلك. إذ لا يسمح بإقامة عبدة الأوثان، والمشركين وما سواهم من عبدة البشر كالذين يؤلهون علي بن أبي طالب، أو عدي بن مسافر، أو الحاكم بأمر الله أو آغا خان أو. . . . بين أظهر المسلمين، وما عليهم إلا اختيار إحدى الطرق الآتية وهي: الرحيل، أو اختيار إحدى ديانات أهل الكتاب وما يتبعهم من المجوس، أو الإسلام، أو السيف. وعلى هذا فالمجتمع الإسلامي خالٍ من تعدد أصحاب العقائد والديانات المتباينة.

ولا يُشكّل أهل الذمّة في المجتمع الإسلامي طبقةً خاصةً ـ كما يحلو لبعضهم أن يكتبوا ـ لأنه لا يوجد في الإسلام طبقات، كما أنهم ليسوا فئةً أو مجموعةً خاصةً، بل هم جزء من المجتمع، وقد وصّى بهم رسول الله ﷺ، قال جويرية بن قدامة التميمي: سمعت عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، قلنا: أوصنا يا أمير المؤمنين، قال: «أوصيكم بذمّة الله فإنه ذمّة نبيكم ورزق عيالكم»[1]. وعن عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «من قتل مُعاهداً لم يرح رائحة الجنّة، وإن ريحها يوجد من مسيرة أربعين عاماً»[2]. وعن ابن مسعود، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «من آذى ذمياً فأنا خصمه، ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة»[3].

---

(١) أخرجه البخاري.

(٢) أخرجه البخاري.

(٣) أخرجه الخطيب.

إن أهل الكتاب مُجرّد أن وافقوا على دفع الجزية وأدّوها أصبحوا في حماية المسلمين، وإن عجز المسلمون عن الدفاع عنهم أعادوا إليهم الجزية، كما ردّها أبو عبيدة، رضي الله عنه، لأهل حمص عندما لم يستطع حماية أهلها، وهم من أهل الكتاب، غير أن أهل حمص رأوا في هذا عدلاً لم يروا مثله، ولم يسمعوا به إلا من المسلمين، لذلك أبوا أخذ ما أُعيد لهم، وقالوا لعدلكم أحبّ إلينا من هرقل وجيشه وإن كنّا على دينهم، وإنّا لندفع عن المدينة جند هرقل مع ما تتركوه لنا من قوةٍ وأميرٍ. فالجزية التي تُؤخذ من أهل الكتاب من أجل حمايتهم[1] - والله أعلم -.

إن أهل الكتاب مُجرَّد أن وافقوا على الجزية أصبح بينهم وبين المسلمين عهد، والعهد هو الذمّة، ويقضي أن يحمي المسلمون أهل الكتاب مقابل الاعتراف بالخضوع لقوة المسلمين وسلطانهم، وعدم الوقوف في وجه الدعوة الإسلامية، وعدم خيانة المسلمين بالاتصال مع أعدائهم، أو إخفائهم، أو إرشادهم على عورات المسلمين، أو القتال مع أعداء المسلمين. وعدم إيذاء المسلمين ببيع المحرّمات أو نقلها كالخنزير، والخمر و. . . وعدم شتم النبي أو سبّه، وفي الوقت نفسه لا يبنون كنائس جديدة، ولا يرفعون صلبانهم، ولا يُشاغبون على المسلمين برفع أصواتهم عليهم من الكنائس أو غيرها، وما عدا ذلك فهم جزء من المجتمع من حيث المعاملة لا ينالهم أذى، ولا يقع عليهم ضرر، ولا تصيبهم إهانة، ولا يمنعون من عمل باستثناء الولاية العامة. وليس في هذا الذي ذكرنا عن ضرورة القيام به أيّ هضم لحقٍّ من حقوق أهل الكتاب.

إنهم يدفعون الجزية لقاء حمايتهم، ويُؤدّي المسلمون مقابل ذلك الجهاد، ويُعرّضون أنفسهم للقتل، على حين لا يقوم أهل الكتاب بشيءٍ من هذا بل ليسوا مسؤولين عن الدفاع والحماية ما داموا يعيشون في منعة

---

(١) هناك خلاف بين الفقهاء، هل الجزية ضريبة عادية، أو ضريبة قهرٍ وإذلالٍ، أم للحماية والدفاع عنهم، أم لعدم مشاركتهم في القتال، أو أجرة سكن. . . وقد نزلت آية الجزية في العام التاسع لذلك لا نستطيع أن نستشهد بالأحداث التي سبقت ذلك العام.

المسلمين، والمسلمون أهل البلاد، وهم المسؤولون عن الذود عن ديارهم، وإذا كان للمسلمين أجر في الشهادة التي يحصلون عليها إن قُتلوا، وثواب عظيم في قتالهم ضد أعدائهم، غير أن أهل الكتاب لا يُؤمنون بهذا، وحتى لو أدّوا ذلك لما حصلوا على الأجر لأن الثواب على الإيمان لا على القتال المجرّد. وكم من رجالٍ قاتلوا حميةً أو شجاعةً، أو دفاعاً، أو سمعةً فما كان لهم شيء من الأجر، بل كانوا من أصحاب النار.

إنهم يدفعون الجزية مقابل عدم قتالهم، وإن أكثر الناس في هذه الأيّام الذي ضعف فيها الإيمان، وبطل الجهاد، وأصبح قتالاً لمصالح الحكّام وتنفيذ آرائهم ليتمنون دفع مبالغ من المال في سبيل أن يُعفوا من الجندية في البلدان التي تُطبّق نظام الجندية الإلزامي، فما دام الأجر مفقوداً فشأن القتال عند المسلمين وأهل الكتاب واحد، فالبدل المالي أولى وأحبّ إلى النفس، وهو يتم أصلاً عند أهل الكتاب، فهو كما يرغبون وكما تتطلبه مصالحهم.

إنهم يدفعون الجزية، ويدفع المسلمون الزكاة، ويدفعون الصدقات، وليس على أهل الكتاب شيء من هذا الدفع، لأن الزكاة والصدقة ترتبط بالإسلام، ولا يعتنق أهل الكتاب الإسلام كي يدفعوا هذا، فلو أسلموا لوجبت عليهم، وليس من المعقول أبداً أن يدفع المسلمون الزكاة، والصدقة، ويقاتلون الأعداء وجزء من المجتمع الذين يعيشون فيه لا يُؤدي شيئاً، ومن هنا فرضت عليهم الجزية أيضاً.

إن أهل الكتاب الذين يعيشون داخل المجتمع الإسلامي من الأصل لا يحبّون إن كانوا صادقين في ولائهم للمجتمع الذي يحيون داخله أن يقاتلوا الأعداء مع المسلمين، لأن الأعداء الذين يُقاتلون إنما هم غالباً من النصارى أو اليهود، والنصارى واليهود بعضهم أولياء بعض، واليهود والنصارى وإخوانهم الذين يسكنون في وسطٍ إسلاميٍّ أبناء عقيدة واحدةٍ، فاحتراماً للعقيدة التي تربط بعضهم مع بعض لا يريدون قتالهم بل يصعب عليهم حربهم، وإخلاصاً للمسلمين الذين يحمونهم، ويسكنون معهم فلا يخونونهم، ولا يُقاتلون بجانب خصومهم.

هذا بالنسبة إلى دفع أهل الكتاب للجزية وعدم قتالهم مع المسلمين،

ويبدو لي أنه طبيعي جداً، وليس فيه أية إهانةٍ لهم بل من متطلباتهم ومصلحتهم. ولكن عندما يُحرم المرء شيئاً يبدأ بالمطالبة ولو كان فيه ضرر له، ويتكلّم الأعداء في هذا الموضوع ويُثيرون حوله الشكوك. ولو طلب منهم القتال لطالبوا بإعفائهم واتخذوا الأعذار، وذكروا عدم إمكاناتهم في قتال أبناء عقيدتهم. وإذا فُرض على الإنسان شيء لاحتجّ على ذلك ورأى فيه الإهانة، ولو رُفع عنه، وسُوّي مع الآخرين لطالب ببقائه. ولذا كانت الجزية ضريبةً على قهرهم وإذلالاً لهم ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾[1]، حتى لا تكون مطالبات واحتجاجات ولكن هذا لا يمكن أيضاً أن يُبعد الأعداء عن النقد، فلا بدّ لألسنتهم من أن تفتري الكذب، ولا بدّ لأقلامهم من أن تُشوّه الحقائق ـ إن استطاعت ـ، وتُحاول خديعة الناس.

أما عدم وقوفهم في وجه الدعوة الإسلامية فأمر طبيعي ما دام المسلمون هم الحكّام، ونظامهم هو النافذ، وفي الوقت نفسه فهم المسؤولون عن الأمن. والدعوة الإسلامية لا تضرّ بأهل الكتاب، ولا تمسّ عقائدهم لأن المسلمين يُؤمنون أن موسى وعيسى أنبياء من عند الله، أرسلهما الله لقومهما بني إسرائيل، وأنزل التوراة على موسى، والإنجيل على عيسى، ومن يؤمن بنبيٍّ فلا يمكن أن يتكلم عنه بسوء، وإن فعل خالف عقيدته، وعليه إثم عظيم، ولا يُمكنه أن يتهجّم على كتابٍ يعتقد أنه من عند الله، وإن فعل ذلك، فعليه إثم، ويُشكّ في عقيدته. مع الاعتراف بأن بني إسرائيل قد حرّفوا ما أُنزل عليهم في التوراة والإنجيل.

وأما عدم خيانة المسلمين فهم والمسلمون سواء، فمن خان الدولة التي يعيش في ظل نظامها، أو اتصل بأعدائها، أو أخفى أحدهم، أو دلّ الخصوم على عورات المسلمين، أو قاتل مع الأعداء، فإنه خائن سواء أكان

---

(١) سورة التوبة: الآية ٢٩.

مسلماً أم نصرانياً أم يهودياً أم مجوسياً ويُحاكم ويُقام عليه الحدّ على درجةٍ واحدةٍ، إذن لا توجد أية ميزةٍ لصاحب عقيدةٍ معينةٍ على ذي دينٍ معينٍ.

وأما عدم إيذاء المسلمين فهو من باب عدم إيذاء الجار، وعدم إدخال عليه ما يكره فكيف إذا كان شيئاً يمسّ العقيدة كالخنزير، والخمر! فإنه أمر صعب، وحتى لا يظلم المسلمون أهل الكتاب فيحرّمون عليهم ما هم بمُحرّميه يُفضّل أن يسكن أهل الكتاب في أحياء خاصة، ويُمكنهم عند ذلك في أحيائهم أن يتعاطوا الخمرة أو لحم الخنزير من دون أن ينقلوه إلى الأحياء الإسلامية وأن يبيعوه فيها، أو يجاهرون بذلك.

وأما عدم شتم رسول الله ﷺ، فمن باب عدم إيذاء الجار، واحترام العقيدة، والمعاملة بالمثل، ولما كان المسلم لا يُمكنه بصورةٍ من الصور أن يسبّ موسى أو عيسى، عليهما السلام، ما دام يعتقد أنهما نبيان من عند الله، والإسلام لا يفرّق بين أحدٍ من رسل الله، ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ۝٢٨٥﴾[1]، وكذا فعلى أهل الكتاب ألا يفعلوا شيئاً فيه إهانة أو تحقير لرسول الله ﷺ.

أما الكنائس، والبيع، والصوامع... فتبقى كما هي قبل أن يُصالح أهلها، ويخضعوا لحكم المسلمين، ويقبلوا دفع الجزية. فإن دخل المسلمون البلد عنوةً تصرّفوا بأماكن عبادة أهل الكتاب حسبما يرى الإمام، وإن دخلوا سلماً فتبقى على ما هي عليه، ولا يُضاف لها جديد لأنه بدأ تطبيق النظام الإسلامي، وما دامت السيادة للمسلمين فلا يحقّ لأهل الكتاب بالتعالي عليهم برفع الصلبان مثلاً على الكنائس وهو يدل على النظام القائم، وكذلك رفع أصوات النواقيس فهي إضافة إلى دلالتها على النظام ففيها أيضاً شيء من التحدي والإساءة للمسلمين، وهذا لا يقبله نظام، ويأباه حسن الجوار، وتمنعه السيادة.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٨٥.

وما استقام أهل الكتاب على عهدهم عاشوا في أمنٍ وطمأنينة وراحةٍ وهدوءٍ واستقام المسلمون على حمايتهم، وإذا نقض أهلُ الكتاب عهدهم بإخلال أي شرطٍ من شروطه عُدّوا محاربين، ويمكن للمسلمين طردهم أو قتلهم، وربما عفا المسلمون عنهم، ولا شك فإن نقض العهد الفردي يُؤدّي إلى عقوبةٍ فرديةٍ خاصةٍ بالمخالف الذي ينقض العهد، والمخالفة الجماعية تُؤدّي إلى عقوبة الجميع دون استثناء، وهذا أمر طبيعي، وحكم عادل.

والجزية التي تُفرض على أهل الكتاب تُفرض على القادرين على القتال إذ لا تُضرب على الأولاد قبل البلوغ، ولا على النساء، ولا على الرهبان المُتفرّغين للعبادة، ويرى بعض الفقهاء أن يُعفى منها الفلاحون المرتبطون بأرضهم والذين لا يشاركون في القتال.

وليست الجزية متساويةً على الرؤوس، وإنما تختلف بين الفقير والغني والمتوسط الحال. وإذا ما عجز رجل من أهل الكتاب عن الدفع لشيخوخةٍ أو مرضٍ أو. . . . فإنه يُعفى منها بل على الدولة أن تُعينه مادياً. ومعروف أن عمرَ بن الخطاب، رضي الله عنه، رأى سائلاً من يهود، فقال له: ما ألجأك إلى ما أرى؟ فقال: الجزية، والحاجة، والسن، فأعطاه، ثم ذهب به إلى خازن بيت المال، فقال له: انظر هذا وضرباءه، فوالله ما أنصفناه، أكلنا شيبته، ثم خذلناه عند الكبر.

وخوفاً من أن يؤخذ أحد أهل الكتاب مباشرةً ظنًّا من المسؤولين أو الناس أنه مسلم، ويُعاقب لارتكابه بعض الأعمال المخالفة للإسلام لذا من الأفضل أن يكون لباس أهل الكتاب خاص بهم، ويجب ألاّ يتشبهوا بالمسلمين.

ويُثير الأعداء أهل الكتاب لرفض النظام الإسلامي ما دام هو نظام مجموعةٍ أخرى يعيشون معها، تختلف معهم في العقيدة، وتُحاول تطبيق نظامها، وهو ينبع من عقيدتها التي لا يُؤمن بها أهل الكتاب سواء أكانوا نصارى أم يهوداً. وإذا كان أهل الكتاب لا يُؤمنون بالإسلام، ولا يأخذون منهجه عقيدةً، ولكن ماذا يُضيرهم لو اتخذوه نظاماً دون الإيمان به عقيدةً ما

دام يُحقّق لهم كل ما يرغبون، وقد عاشوا في ظلّه دهراً طويلاً شعروا بالراحة والطمأنينة، وأحسّوا بالأمن والاستقرار، وما شعروا هذا الشعور في ظلّ أيّ نظامٍ آخر. إن إخوانهم يُقيمون في بقاعٍ كثيرةٍ من الأرض وفي ظلّ أنظمةٍ وضعيّةٍ ينتقدونها باستمرار ويأخذون عليها في أنها لا تُقدّم لهم ما يطلبون، وتتبدّل على الدوام وإذا حقّق لهم قانون ناحيةً أفقدهم عدداً آخر يرغبون فيه. أمّا النظام الإسلامي فيُؤمّن لهم الذي يُريدون ودون انتقادٍ، وثابت لا يتبدّل، فما يمنعهم من قبوله نظاماً ولو كان المسلمون يعدّونه عقيدةً، ويحرصون على تطبيقه من هذا الجانب؟.

والمشكلة التاريخية هي المهمة في هذا الميدان، أهل الكتاب نعموا في ظلّ الحكم الإسلامي بكل ما يتمنّون وكان المسلمون أقوياء، وعندما ينقض أهل الكتاب العهد يجدون العفو، وعوضاً من أن يُقلعوا عن عادة النقض بعد حسن المعاملة والمقابلة بالعفو كانوا يزدادون إصراراً على النقض، ويعدّون ذلك قوةً واحتراماً لدينهم، وكلما وجدوا في المسلمين ضعفاً ظاهروا عليهم أعداءهم، وأبدوا تمرّداً، فقد كان لهم دور مع الصليبيين في الحروب الصليبية، ومثله مع المغول، واستمرت صلتهم مع الدول النصرانية مع ضعف المسلمين حتى كانت الحروب الصليبية الاقتصادية (الاستعمار) فكانوا أعواناً للأعداء، وعيوناً لهم، ولا يزالون كذلك.

ولما كان هذا كله نقض للعهد، فقد أصبحوا محاربين، ولم يعد بيننا وبينهم عهد ولا ذمّة، ويُمكن للمسلمين إخراجهم أو قتلهم، غير أن ضعف المسلمين جعلهم لا يستطيعون هذا، كما أن المسلمين قد ساروا في طريق غير إسلامية، فاتخذوا العصبية (القومية) مبدأ لهم، أو الاشتراكية، أو الرأسمالية، وغدوا مع الأسف في منأىً عن دينهم. ولو طبّقنا الإسلام، واستمرّ اليهود والنصارى على فعلهم هذا فما عليهم إلا الرحيل أو السيف.

كما كان المجتمع الإسلامي الأول يضمّ الأرقاء والسبايا، ولكن هذا لا يوجد اليوم، لذا لا أرى ما يدعو لبحثه.

[٨] اللغة

لا بدّ لكلّ أُمّةٍ من لُغةٍ يتفاهم بها أفرادها بعضهم مع بعض، ويُؤدّون شعائر عبادتهم بها، وينقل سلفهم إلى خلفهم ما خطّوه من فكرٍ، وما صاغوه من بيانٍ، وما حقّقوا من نصرٍ. وإذا كانت الأُمّة كبيرةً فقد يتكلّم أبناؤها أكثر من لُغةٍ وذلك حسب الشعوب التي تتألّف منها، فالأُمّة ـ كما مرّ ـ مجموعة من الناس تعتقد عقيدةً واحدةً على مدى التاريخ ـ فقد تعتقد مجموعة من الشعوب عقيدةً معينةً، لانسجامها مع الفطرة كالإسلام، أو نتيجة توسّعٍ بالغزو والقتال، أو بالتجارة كالبراهمية، أو تحت تأثير السيطرة كالنصرانية، وقد تنحصر في شعبٍ واحدٍ.

والأُمّة المسلمة يمتدّ أبناؤها على رقعةٍ واسعةٍ من الأرض. وتنضوي فيها عدة شعوب لكلٍ منها لغته التي يتخاطب أفراده بها. ولما كانت الأُمّة بعقيدةٍ واحدةٍ فإنها تُؤدّي الشعائر بلغةٍ واحدةٍ، وتقرأ كتاب الله بلغةٍ واحدةٍ، وحديث رسول الله باللغة نفسها، وهي العربية، لذا فإنَّ اللغة العربية يجب أن تكون معروفةً لدى الأُمّة كلّها. ولما كان لكلّ شعبٍ لغته الخاصة، لذا فإنَّ كلّ شعبٍ يتكلّم لغته، ويتعلمها وفي الوقت نفسه يدرس اللغة العربية كلغةٍ للعقيدة حيث يُؤدّي عبادته بها، ويدرس حديث رسول الله بها، حيث هو المصدر الثاني للتشريع، ويتعلّم الفقه، حيث دوّنت المذاهب الفقهية بالعربية أيضاً، ولا تُغني الترجمة. وبذا يكون لكلّ شعبٍ لغتان، لغة المخاطبة، والتعليم، والإدارة وهي لغة الشعب، ولغة العبادة أو لغة الدين وهي العربية وتعدّ اللغة الثانية للشعب، ولكن عليه تقويتها حتى تصبح الأولى في سبيل فهم العقيدة بشكل صحيح، أما الشعب العربي فله لغة واحدة، وما دامت العقيدة قويةً فلا يُخشى على لغة الدين أو العربية من

الضياع، بل تتوسّع باستمرار، وقد تصبح اللغة الوحيدة للشعب، إذ تضعف لغة الشعب تدريجياً، وهذا ما حدث للغات بعض الشعوب عندما كانت الدولة الإسلامية في أوج ازدهارها، إذ ضعفت الفارسية، والأفغانية، والتركية وغدت اللغة العربية الرسمية، وهي الأولى، وتعدّ لغات بقية الشعوب هي الثانية.

وهناك شعوب لا لغات لها إذ تتحدث بلغةٍ أجنبيةٍ هي لغة الاستعمار حيث فرضها عندما كانت له الهيمنة والسيطرة، كالشعوب التي تستعمل اللغة الفرنسية في غربي إفريقية ووسطها مثل: السنغال، ومالي، وتشاد، والنيجر، وساحل العاج، وإفريقية الوسطى، والداهومي، وغينيا و... والشعوب التي تستعمل اللغة الإنكليزية مثل غامبيا، وسيراليون، ونيجيريا، وتانزانيا، إضافةً إلى الشعوب التي تتكلّم لغاتٍ أخرى مثل غينيا ـ بيساو التي تتحدث بالبرتغالية. إنّ هذه الشعوب لا تلبث أن تصبح لغتها العربية هي الرسمية، لأنها تضمّ عدة قبائل لكلّ قبيلةٍ لغتها الخاصة، وهي على مستوىً صغيرٍ، فتعمّ فيها العربية مع بقاء عدة لغاتٍ محليةٍ كالهاوسا والفولاني والماندينغ و.... ومن الأفضل لها أن تصبح عربيةً لمستوى اللغة العربية وعالميتها ولأنها لغة العبادة ومن الضروري معرفتها أصلاً.

إنّ بعض الشعوب لها لغات ولكن ليس لها حرف تكتب به لغتها، وذلك بسبب ضعف مستوى اللغة، ومن الأفضل اتخاذ الحرف العربي لكتابة لغتها إن رغبت في المحافظة عليها فإن هذا يُسهّل عليها تعلّم اللغتين العربية والمحلية ما دامتا بحرفٍ واحدٍ. وقد دوّنت بعض الشعوب لغاتها بالحرف العربي في أيام ازدهار الدولة الإسلامية سواء أكانت لغات ذات حضارةٍ كالفارسية أم لغات عادية كالتركية والأندونيسية وبعض لغات الشعوب في جنوب شرقي آسيا مثل مناطق جنوب الفيليبين، وفطاني وغيرها. وبقيت هذه اللغات بالحرف العربي إلى هذا اليوم كالفارسية، والأُردو، وفطاني و.... وبدّل المستعمر بعضها الآخر إلى الحرف اللاتيني بعد أن أقدم مصطفى كمال، وغيّر اللغة التركية من الحرف العربي إلى الحرف اللاتيني،

فتشجّعت هولندا في أندونيسيا وروسيا في وسط آسيا وقامتا بالفعل نفسه.

إن كتاب الله، وحديث رسول الله عندما يُترجم من اللغة العربية إلى لغةٍ أُخرى لا يُعدّان قرآناً وحديثاً وإنما تفسيراً، والتفسير لا يعبد به لذا لا بدّ من قراءة القرآن بالعربية سواء أكان ذلك في الصلاة، أم في التلاوة للعبادة. أما الحديث، وإن كان وحياً، فلا يُتعبّد بقراءته ولكن يُقرأ كما حدّث به رسول الله ﷺ، أمّا الترجمة فهي معنى للحديث لا الحديث نفسه.

فاللغة العربية للمسلمين مرتبطة بالعقيدة، وكل محاولة لإحلال لغة أخرى محلها، أو إنزال اللغة العربية عن مكانها بإدخال غيرها تعليماً أو كلاماً أو حرفاً فإنه هو تهديم وحرب للإسلام، وإن تظاهر المسؤول بغير ذلك.

[٩] المُسْلِم ومحيطُه

نشأ رسول الله ﷺ، في مُحيطٍ جاهلي، وبدأ دعوته وحده فآمنت به مجموعة صغيرة بالنسبة إلى أهل مكّة، فكانت هذه المجموعة هي النواة الأولى للأمة المُسلمة، وكانت حياتها في ذلك الوسط الأُنموذج الذي يجب أن يسلكه كلّ مُسلم يعيش وسط مُجتمعٍ يختلف معه في العقيدة، ويتميّز عنه في السلوك، فدراسة حياة تلك الفئة في تعاملها مع مُجتمعها تُعطينا الصورة التي يجب أن تسير عليها الأقليات المُسلمة مع مُجتمعاتها، والدُّعاة في بيئاتهم، والمُضطهدون في مُحيطهم، والمجموعة التي تُحكم من قِبَل قومها المُخالف لها في المنهج.

لم تكن المجموعة الإسلامية الأُولى تشعر أن مجتمع مكّة هو المجتمع الجاهلي فقط، وإنّما كان مجتمع الجزيرة يلفّه بجاهليةٍ أُخرى ومن ثم فالعالم كلّه يعيش في تلك الجاهلية ويُطوّق الجزيرة أيضاً، وإن كانت الجاهلية تختلف بين منطقةٍ وأُخرى إلاّ أن لها سماتٍ واحدةً، وهي طُغيان السلطة، أو المال، أو الشهوة، أو النفوذ والقوّة، أو الجاه والمنصب، أو تحكّم دينٍ ما أنزله الله فاستبدّ الكاهن باسم الآهلة، وطغى وتسلّط، وفعل رجاله ما يفعله غيرهم من الطغاة، وقد تجتمع عدّة أمورٍ معاً، وبشكلٍ عامٍ فقد شرّع الطغاة ما لم يأمر به الله، شرّعوا حسب أهوائهم، وشهواتهم، ومصالحهم، فأذلّوا الضعفاء والفقراء، وهتكوا الأعراض بل استبدّوا بالمجتمع كلّه فكانوا يستعبدون من الرجال من شاءوا، ويصطفون من الفتيات من اختاروا، ويأخذون من الأموال ما أرادوا، ويُسلّطون من رغبوا على من رغبوا، ويعدّون هذا حقًّا لهم من عند الآلهة أو بما امتازوا به، فكان المجتمع لذلك قطيعاً من السوائم تتحكّم فيه مجموعة مُتعاونة من الذئاب.

هذا المنهج الذي كان يسير عليه الناس أو المُتعارف عليه بينهم، أو الأعراف التي يبنون عليها أحكامهم، أو التي يدّعون أن الآلهة منحتهم إيّاها، أو كلّفتهم بتنفيذها هو الجاهلية، أو أن الأحكام التي تُشرّع حسب الأهواء، والشهوات، والمصالح هي الجاهلية، أو أن الأحكام التي ليست من عند الله هي الجاهلية، إذن: إن كلّ القوانين الوضيعة التي تصوغها الأيدي البشرية إنّما هي أسلوب جاهلي، ومن يحتكم إليها فهو جاهلي، فالجاهلية هي التي تحكم بغير ما أنزل الله، وليست هي الجهل الذي يُقابل العلم، فالمجتمعات التي لا تحكم بما أنزل الله جاهلية ولو كانت على درجاتٍ واسعةٍ من العلم والتقدّم العلمي.

لقد رفضت المجتمعات القديمة هذا المفهوم أو هذا الاصطلاح وأنِفت على ما يطلق عليها جاهلية، وظنّت نفسها أعلى من ذلك، إذ لديها معارف، وعندها عُلوم، فكيف يُطلق عليها جاهلية؟ ولم تنظر إلى واقع مجتمعها الذي يعيش في الحضيض، ويئنّ من الظلم يُحطّمه، والقابع فوقه بسبب أعرافٍ ونظمٍ شرّعها المتنفّذون حسب أهوائهم وشهواتهم. وكما رفضت المجتمعاتُ القديمة هذا المفهوم أو هذا الاصطلاح فقد رفضته المجتمعات الحديثة وبشكلٍ أقوى وأعنف إذ كيف تكون جاهليةً وقد حقّقت تقدّماً رائعاً في العلم، وقطعت أشواطاً واسعةً في المعرفة، ووصلت إلى مرحلةٍ لم تصل إليها البشرية من قبل، وخاصةً في الآونة الأخيرة إذ كان تطوّرها سريعاً جداً، وعلى قفزاتٍ واسعةٍ، وتُنجز في القفزة الواحدة التي لا تزيد مدتها على العام إن لم نقل أكثر من ذلك على ما أنجزته البشرية في تاريخها الطويل بمراتٍ ومراتٍ؟ فأخذت المفهوم بالمعنى المقابل للعلم لذا فقد سخرت منه. ولننظر إلى المجتمعات الحديثة، إن عظام الفقراء تُسحق بآلات المُترفين المُتخمين الذين يسمعون صرير السحق فيرقصون على أنين صرعاهم ويطربون لصُراخهم. وإن الطائرات تنقل متتابعةً أفواجاً من الفتيات الشقراوات من أوربا إلى المشرق ليُتاجر الأثرياء بأجسادهن، وتؤوب حاملةً أفواجاً من الفتيات الصفراوات ليخدمن في بيوت الأغنياء، وإن رحى

الحروب تدور على جماجم الملايين لتدور مصانع السلاح، وتمتلئ خزائن تُجّاره، وتزداد دول الصناعة تُخمةً، وللسبب نفسه تنطلق الثورات، وتتصارع الطبقات. وإن الملايين من البشر تعيش سُكارى أو مُخدّرةً لينعم أفراد قلائل بأموال الناس، أو على مائدةٍ فيها فتاة باسم حرية المرأة وحرية التجارة. وإن مئات الآلاف من المسلمين وفي بلاد المسلمين لا يرون النور ولا يعرفون ما حولهم، يقبعون في السجون، وما كان ذنبهم إلاّ أن قالوا ربنا الله، وجاهروا بذلك فاستحقّوا ما هم فيه. إنّ كلّ هذا الذي يحدث ليس إلا جاهليةً، مهما ارتقى العلم، والجاهلية اصطلاح إسلامي يدلّ على تطبيق غير منهج الله فيُؤدّي إلى الظلم، ويجرّ الناس نحو الهاوية التي يتخبّطون فيها بلا وعي، ويعيشون في مياهها الآسنة القذرة التي تزكم الأنوف من روائحها الكريهة، وهذه قوانين من يحكم بغير ما أنزل الله فيشرّع حسب أهوائه وشهواته، وهذه النتائج، وهذه الجاهلية، ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾[١].

عاشت المجموعة الإسلامية الأولى وسط ذلك المجتمع الجاهلي، وكانت تشعر أنّها فئة واحدة من دون الناس، وليس معنى هذا أنها من غير طينة الناس، أو أعلى منهم، فليست هي شعب الله المختار كما تعتقد يهود. والأفضلية عند الله، أما في الحياة الدنيا، فالناس سواء، وكلهم لآدم، وآدم من تراب، كما قال ﷺ، ويقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾[٢] فالتفضيل بالإيمان، والتقوى عند الله، والمساواة في الدنيا هي الأساس، ونظرة هذه المجموعة إلى أنها فئة واحدة من دون الناس في عقيدتها، وتصوّراتها، وأفكارها، وسلوكها، وعباداتها، ومعاملاتها و.... فهي بذلك مجموعة خاصة دون سائر الناس الذين يعيشون معها.

عاشت المجموعة الإسلامية الأولى وسط ذلك المجتمع الجاهلي،

---

(١) سورة المائدة: الآية ٥٠.

(٢) سورة الحجرات: الآية ١٣.

وكانت تنظر نظرة الإشفاق على أهله، الإشفاق على أولئك الطغاة المتغطرسين الذين لا يكادون يصحون من سكرهم، لا يعرفون من حياتهم إلاّ الظلم أو الشهوة، لا يعدّون من أيام عمرهم إلا التي يُعربدون فيها أو يظلمون، قلوبهم قاسية كالصخر لا تعرف الرحمة، ونفوسهم لئيمة تُسرّ لهتك الأعراض والأستار، وتنظر المجموعة المسلمة نظرة الإشفاق على أولئك الضعفاء المقهورين الذين استذلّهم الطغاة، واستعبدهم العُتاة، فسخّروهم لخدمتهم وإرواء غرائزهم، وقد تمزّقت أجسادهم بالضرب، وماتت نفوسهم من كثرة ما أصابها من ذلٍّ وهوانٍ، وتحطّمت معنوياتهم لشدّة الاحتقار، ولم يكن لهم من أملٍ يُرتجى. كانت المجموعة المسلمة تنظر نظرة الإشفاق على هذا المجتمع، فتُريد له التغيير، وتدعوه إلى الإسلام فتستجيب بعض النفوس الطيبة، وأصحاب القلوب اللينة فكان يزداد عدد المجموعة المسلمة باستمرار. أما أصحاب القلوب القاسية التي لا تلين فكانت ترفض الدعوة، ولا ترضخ أصحاب النفوس اللئيمة بل تسخر من الدعوة، وتهزأ من أهلها، ومع هذا التعنت والعناد، وذاك اللؤم والسخرية فلم يزد المسلمين إلا إشفاقاً على مجتمعهم ورغبةً في هدايته، ويقول رسول الله ﷺ: «اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون». ويحاول المسلمون إثارة عاطفة الجاهليين ومُخاطبة عقولهم، ولكن لم يزدهم هذا إلا استكباراً في الأرض وعتواً، فكانت المجموعة المسلمة الأولى تشعر على أنها فئة خاصة دون سائر الناس الذين يعيشون معها.

عاشت المجموعة الإسلامية الأولى وسط ذلك المجتمع الجاهلي، ولم تكن تنظر إليه نظرة الازدراء والاحتقار رغم ما يبدو من رؤوسه من سوءٍ ولؤمٍ يصل أحياناً إلى الإساءة إلى رسولها الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام، وهذا أصعب شيءٍ على نفوس المؤمنين، ورغم ما يبدو من رؤوس الكفر من تعذيب إخوانها بأشد أنواع العذاب المعروف يومذاك، حتّى لقي بعضهم مصرعه فاستشهدت سُميّة زوج ياسر، وحتّى اضطر المسلمون إلى مغادرة ديارهم والهجرة إلى الحبشة مرتين فعاشوا هناك حياة

الغربة والتشريد، والغريب معذب أبداً إن حلّ لم يشعر بالراحة وإن ارتحل لم ينعم في رحلته، وحتّى قاطعت قريش بني هاشم وبني المطلب وحصرتهم في شعب أبي طالب، واضطروا أن يأكلوا ورق الأشجار والأعشاب، ومع هذا كله فقد بقي المسلمون يُظهرون الاحترام لأولئك الكفار، فيُنادون عمرو بن هشام «أبا الحكم» ولا يُنادونه بلقبه «أبا جهل». وإذا دُعي أحدهم أجاب، فقد أجاب رسول الله ﷺ، دعوة جاره عُقبة بن أبي معيط أحد رؤوس الكفر إلى طعام، طمعاً في هدايته. إن الاحتقار قد يُؤدّي إلى ردّ فعلٍ من قِبَل أولئك المتنفذين الطغاة، ويكون لهذا أثره على الدعوة، إذ يمكنُ أن يُقضي عليها ولم يشتدّ عودها، لذلك كان ما يُبديه المسلمون من حسن نيّة، وحسن معاملة، هو الحكمة، وهو الطريقة المثلى. وكانت المجموعة المسلمة الأولى تشعر على أنها فئة واحدة دون سائر الناس الذين يعيشون معها.

عاشت المجموعة الإسلامية الأُولى وسط ذلك المجتمع الجاهلي، وكانت تكظم غيظها، وتصبر على الأذى، ولا تقوم بردّ فعل على تصرّفات الجاهليين. فقد كانت تكفي إشارة من رسول الله ﷺ، إلى أصحابه كي يقضوا على أي رأسٍ من رؤوس الكفر، بل ربما إشارة من كبار الصحابة إلى إخوانهم تفعل الفعل نفسه الذي تفعله إشارة رسول الله ﷺ، ولكن لم يُفكّر أحد بمثل هذا التصرّف لأنه قد تنهي حادثة واحدة الدعوة وأصحابها، وهذا ليس في مصلحة الإسلام، لذا كان الصبر على الأذى، وكظم الغيظ، وتحمّل الشدائد، ومُغالبة النفس على المكاره إحدى سمات هذه المرحلة من تاريخ الإسلام، ولهذا كانت الجماعة الإسلامية الأولى تشعر أنها فئة واحدة دون سائر الناس.

عاشت الجماعة الإسلامية الأُولى وسط ذلك المجتمع الجاهلي، وكانت تتعامل معه بإسلامها، بأخلاقها، بسلوكها لا بأعماله وتصرّفاته، وكان رسول الله ﷺ، القدوة الحسنة لأصحابه، وكان رسول الله ﷺ، هو الصادق عند الجميع فيقول عنه الجاهليون: ما جرّبنا عليه كذباً، وهو الأمين

عند الجميع، فكان بيته مكان الأمانات لأعدائه وأصحابه على حدٍ سواء، إذ لم يعرف أعداؤه أكثر منه أمانةً يضعون عنده أماناتهم، ويقولون عنه: ما عرفنا عليه خيانة، وكان يصل الرحم، ويحمل الكلّ، ويكسب المعدوم، ويقري الضيف، ويُعين على نوائب الحقّ وكان أصحابه، رضوان الله عنهم، يقتدون به، وهذا ما رفعهم في أعين خصومهم رغم كراهيتهم لهم، وهو في الوقت نفسه ما جعل الإقبال على هذا الدين يزداد، إذ لا يرى الكفار في المسلمين إلاّ خيراً، ولا يسمعون منهم إلا خيراً، ولا يجدون في سلوكهم إلا فضلاً، وهذا يُشجعّهم على اعتناق الإسلام، وبذا كانت تشعر الجماعة المسلمة الأولى أنها فئة واحدة من دون قومها.

إن الشعور من الجماعة المسلمة الأولى أنها فئة وحدها من دون الناس قد زاد نتيجة تصرّف المشركين من قريش، وكانت مفاصلة شعورية بينها وبين قومها، مفاصلة شعورية لا واقعية إذ لو فكّرت بالمفاصلة التامة، واعتزلت المجتمع لما حقّقت ما أُمرت به، ولخالفت تعاليم رسول الله ﷺ، حيث يقول: «المؤمن الذي يُخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يُخالطهم ولا يصبر على أذاهم»[1]. ولو اعتزل رسول الله ﷺ، قريشاً يكون قد خان الأمانة، ولم يُؤدّ الرسالة، ولم ينصح للأمة، ويستحيل عندها أن يكون رسول هذه الأمة وخاتم النبيين. وكيف تكون الدعوة مع العزلة؟. أما الهجرة فلا تكون إلا إلى بلدٍ يُطبق فيه شرع الله، إذ أصبحت هجرة المسلمين إلى المدينة واجبةً عندما أُقيمت فيها دولة الإسلام، أما بعد أن دخلت مكة في دين الله فليس السفر منها والانتقال بهجرة، وليس له أجر الهجرة «لا هجرة بعد الفتح». وتكون الهجرة واجبةً عندما يكون القصد منها إقامة دولة الإسلام في مكانٍ، كهجرة رسول الله ﷺ، وأصحابه الأوائل إلى المدينة بقصد تنفيذ أوامر الله، وإقامة دولة الإسلام هناك. وتكون الهجرة فراراً بالدين عندما لا يستطيع المسلم أن يحتمل الأذى ويصبر عليه

---

(١) رواه ابن ماجه والترمذي وأحمد.

لشدته، كهجرة المسلمين الأوائل إلى الحبشة عندما اشتدّ عليهم أذى قومهم، ولم يكن رسول الله ﷺ، قادراً على حمايتهم. وما عدا ذلك فليس هناك من هجرة وإنّما دعوة، وجهاد، وصبر على المكاره. عن ابن عباسٍ، رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا»[1]. إذن لا فرار وعزلة ونُسمّيها هجرة، ولا انتقال من مجتمع إلى آخر مثله إلا إذا اضطررنا، خوفاً من الفتنة في ديننا أو أُلزمنا إلى ذَلك. ويجب البقاء ما دام المرء يستطيع أن يُؤدّي شعائره، ويدعو إلى الله. والمجتمع الصغير كالمجتمع الكبير، وما ينطبق على المجتمع القريب ينطبق على البعيد وبغضّ النظر عن اللغة التي يتكلّمها أبناء المجتمع، والجنس الذي ينتسبون إليه.

إن المجتمع الذي يدين أكثر أهله بالإسلام، ويُؤدّي أكثرهم أو بعضهم عبادته، وتُقام فيه الشعائر، ولكن لا يُطبّق منهج الله، ولا يُحكم بما أنزل الله، هل نعدّ هذا المجتمع كافراً؟ إننا لا نستطيع أن نعدّ هذا المجتمع كافراً، ولكننا في الوقت نفسه لا نعدّه مسلماً، لأن المجتمع المسلم هو الذي يُطبّق شرع الله، وهذا لا يُطبّقه، ولكن نُطلق عليه مُجتمعاً جاهلياً، وهذا هو الاصطلاح الإسلامي، ولو رفض أبناء هذا المجتمع هذه التسمية، كما سبق أن ذكرنا بأن الظنّ يتجه إلى الجهل الذي يُقابل العلم، إذن ليست المجتمعات التي نعيش فيها كافرةً، ولا تصحّ الهجرة منها إلا بالاضطرار - كما ذكرنا -. وليس معنى ذلك أن يقبل المسلم بالدنيّة وإنما عليه الصبر، والدعوة، والقوة حتى يأتي نصر الله.

لقد صبرت الفئة المسلمة الأولى على المكاره، وتحمّلت الأذى، وواصلت الدعوة حتى زاد عددها، وكثُر أتباعها، وقوي أمرها، واستعدّت، وأعدّت ما استطاعت من قوةٍ حتى جاء أمر الله، وطلب من رسوله الهجرة إلى المدينة حيث كثُر أنصاره، وهناك أُقيمت دولة الإسلام، واشتدّ

---

(١) أخرجه البخاري في باب الجهاد.

ساعدها، وجاء نصر الله، فانتصرت على أعدائها، وانتشر الإسلام شرقاً وغرباً، وتمّت كلمة الله الحسنى ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾[1]، وهذا أسلوب المسلم مع محيطه وطريقته في التعامل معه.

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٣٤.

[١٠] المدينة

كان تصوّر المسلمين للمدينة تصوّراً بسيطاً سليماً لا تعقيد فيه، تصوّر ينسجم مع عقيدتهم، ويتفق مع نظرتهم إلى الحياة، وتُؤدّي المدينة دورها المخطط لها، ويجد فيها ساكنها الراحة والطمأنينة.

المدينة كانت صورةً متطوّرةً عن الحياة البدوية التي تُعرف بالخيمة القائمة وسط البادية، ترتفع أطرافها فيدخل إليها الهواء نسيماً عليلاً، فيُخفّف ما بها من حرارةٍ، وينتقل بطلاقةٍ، ويحمل ما يُمكن أن يكون هناك من روائح تحدث فيما إذا كانت أطراف الخيمة مُثبّتةً بالأرض فيُحبس الهواء، وتعلق به الروائح. أما إعداد الطعام فيكون بعيداً عن الخيمة في مكانٍ فسيحٍ لا يترك أثراً لرائحة، ولا يُسبّب إزعاجاً لساكن. وما يحتاجه البدوي من قهوةٍ فيكون على مقربةٍ من الخيمة وأمامها صاحبها حيث يتناول ما بدا له من قهوةٍ، ويُقدّمها لضيوفه وزوّاره. وتكون الخيمة أفضل المنازل سكناً من الناحية الصحية.

تتألّف المدينة غالباً من بيوتٍ ذات دورٍ واحدٍ، ثم أصبحت ذات دورين فقط لتُخفّف من حرارة أشعة الشمس عند الظهيرة بفضل فصل الدور الأول عن تلك الأشعة بالثاني منها، وفي الوقت نفسه يخضع الدور الثاني عند المساء لنسمات الهواء. ويُحاط المنزل بساحةٍ كي ينفصل عن الأبنية المجاورة فيبدو كأنه خيمة وسط البيداء، إضافةً إلى ساحةٍ داخليةٍ تُحيط بها الحجرات فتكون محجوبةً بها عن الجوار، تأخذ المرأة فيها حريتها، وتجد فيها سعادتها، وتنفتح نوافذ الحجرات كلّها نحو الساحة الداخلية كي تخفي ساكنيها، ولا تُظهر ما فيها، على حين تُحرم الحجرات من نوافذ تُطلّ على

الساحة الخارجية للسبب نفسه، وبشكلٍ طبيعيٍ فالجدار الخارجي محروم منها كذلك. والشوارع عامةً واسعة، كما تفصل بين المنازل أزقة أقل اتساعاً من الشوارع. وإن وجود المناطق الكثيرة الخالية من البناء، الشوارع، الأزقّة، ساحات المنازل الداخلية والخارجية، وعدم ارتفاع الأبنية يجعل حركة الهواء طبيعيةً، وهذا قريب من الخيام في البادية، فيُقلّل من الأمراض، على عكس ما يتمّ في المدن الحديثة حيث يكون الهواء محبوساً بسبب ارتفاع البناء، وضيق الشوارع بالنسبة إلى علو المنازل. وفي الساحة الخارجية تكون أدوات الطهي وما يُعدّ لذلك. وقد يبقى الباب الخارجي مفتوحاً دلالةً على الكرم، ويجلس صاحب الدار عند الباب الداخلي على شرفةٍ، وأمامه النقرة، وأدوات القهوة يستقبل ضيوفه، ويُرحّب بزوّاره وجيرانه عند الأصيل غالباً.

وفي وسط المدينة المسجد الجامع حيث يلتقي أهل المدينة كلّهم أسبوعياً فيه، هذا إضافةً إلى المساجد داخل الأحياء تتناسب واتساع الحيّ، أو تتقارب بحيث لا يصعب على الشيخ الكبير الوصول إليها، ولا يشعر المريض بالضيق ليُؤدّي العبادة فيها. وغالباً ما تُعرف الأحياء باسم القبائل التي تَشغلها أو العشائر الكبيرة التي تُقيم فيها. أمّا في الأعياد فيخرج المسلمون إلى المُصلّى، وغالباً ما يكون خارج المدينة.

تُؤثّر إقامة كل قبيلةٍ في حيٍّ خاصٍ تأثيراً كبيراً على الحياة العسكرية والاجتماعية إذ يسهل جمع المجاهدين الذين ينطلقون في مجموعةٍ واحدةٍ، ويُقاتلون معاً، وتظهر شجاعتهم، إذ يخشون أن يُقال أوتينا من قبلكم، هذا في القديم أمّا اليوم فيبدو أثر الحياة الاجتماعية، عندما يكون أهل الحي أقرباء يكون على المرء ثلاثة واجبات: واجب الأخوة في الإسلام، وواجب الجوار، وواجب صلة الرحم والقرابة، وعندما يدخل غريب إلى الحيّ يُعرف مُباشرةً، إذ الجميع يعرف بعضهم بعضاً، فلا يستطيع أن يتعدّى أو يتجاوز حدوده، أو يقوم بعملٍ مشين، وكذلك فإنّ قاطن الحيّ لا يُمكنه أن يتصرّف تصرّفاً غير لائقٍ لأنّ الجميع أقرباؤه، ومعروف من قِبَل السكان

كلّهم، وكذا الفتاة و. . . . وعندما يتخلّف المرء عن مسجد حيّه يُفتقد فإن كان مريضاً عِيد، وإن كانت السُّنّة عيادة كل مريض، إلاّ أنها أكثر وجوباً لصلة الرحم، وإن كان مُتهاوناً نُصح وذُكّر، وإن كان لضرورة نُظر في أمره وقُدّم له ما يحتاج. ولمّا أصبحت هناك هُوّة بين الرعية والحكم، ولم تعد الدولة تستند على قاعدةٍ من رعاياها غدت تخشى تجمّع الأقرباء في حيٍّ أو المعارف في منطقةٍ لأن هذا يُشكّل خطراً عليها فبدأت تحرص على توزّعهم وتفرّقهم، كما أن في هذا التشتيت زيادة في انتشار المفاسد إذ لم يعد أحد يعرف أحداً يهابه، ولا يخشى امرؤ من قريبه، ولا بعيد من كبير أسرته، وهذا ما نلاحظه في المدينة الحديثة حيث لا يعرف الجار جاره، ولا صاحب الدار فيمن يقطن بالقرب منه. كما تخاف مثل هذه الحكومات سكان الأحياء القديمة حيث تضمّ مثل هذا النوع من التجمّعات فتعمل على التخلّص منها باسم التنظيم والتخطيط، وفتح الشوارع، وإقامة المشروعات والمرافق العامة و. . . .

وإلى جانب المسجد الجامع يكون مقرّ الإمارة، والسوق. وربما تكون الشوارع المُؤدّية إلى خارج المدينة محدودةً، ولا تزيد على الأربعة غالباً بحيث يكون منفذ من كل جهةٍ وذلك لأسبابٍ أمنيةٍ. ونلاحظ هذه التقسيمات عندما مصّر المسلمون المدن، إذ يختطّ الأمير المسجد الجامع في الوسط، ويبتني دار الإمارة، ثمّ يُعطي كل قبيلةٍ جانباً معيّناً لتُقيم مساكنها عليه، مثل البصرة، والكوفة، والفسطاط، والقيروان و. . .

إن المدينة كانت تتسع أفقياً عندما كانت صغيرة، والأرض قليلة القيمة لاتساعها وقلة السكان، أما اليوم فقد كثُر السكان، وضاقت بهم الأرض، وارتفع ثمنها لضيق رقعتها فلا بدّ من التوسّع شاقولياً وزيادة عدد الأدوار. يبدو هذا الكلام صحيحاً نظرياً غير أن أقل دراسةٍ تُظهر لنا سوء التخطيط وعدم المعرفة في التدبير، إذ نُلاحظ عدداً من المدن تتوسع بسرعةٍ، وترتفع فيها الأبنية بسرعةٍ، وتزداد أسعار الأرض، ويشكو الناس من ضيقها، ونلاحظ أن ذلك كله يقوم على أرضٍ زراعيةٍ وهي التي تئنّ الدولة من

ضيقها، وتشكو من عدم وجودها، ثم نرى بعد ذلك أن الأرض الزراعية التي يُبنى عليها، والتي نحن بأشد الحاجة إليها لا تبعد عن الأرض الصحراوية، أو الجبلية والتي لا فائدة منها سوى عدة كيلومترات، ثم نترك الأرض غير الصالحة ضائعةً في حين يُمكن البناء عليها وإقامة المشروعات فيها، نتركها ونبني فوق الأرض الزراعية الصالحة للاستثمار ونستهلك أجزاءً واسعةً منها بإقامة مشروعات عليها.... لننظر إلى هذا واضحاً في دمشق والقاهرة وكثيرٍ من مدن العالم الإسلامي.

تدبّ الحياة في المدينة الإسلامية من الصباح الباكر بعد أن يُؤدّي الناس صلاة الفجر ينطلقون إلى أعمالهم، وتتوقف عجلة الحركة قليلاً بعد صلاة الظهر إذ يخلُد بعضهم إلى الراحة والقيلولة حتى صلاة العصر حيث يُعاود الناس نشاطهم حتى الغروب حيث يتوقّف العمل تقريباً باستثناء المؤسسات التي يتناوب عليها العمال على نوباتٍ متتابعةٍ. وإذا ما أُديت صلاة المغرب يكون وقت تناول طعام العشاء، وبعد صلاة العشاء الأخير يخلد الناس إلى الراحة، ويأوي كل إلى بيته، وتتوقّف الحياة في المدينة تقريباً فلا ترى إلا العسس، ومن كانت له حاجة ماسة كعيادة مريضٍ اقتضت ظروفه تأخيرها وما يُشبه ذلك. وتتوقّف وسائل الإعلام عن البثّ بوقتٍ مبكرٍ كي يتوفّر الهدوء، وتُعطي الفرصة للناس كي ينصرفوا إلى الراحة أو إنجاز واجباتهم وما هم في صدده من أمورٍ عائليةٍ و.... وكي يتمكّنوا من استعادة نشاطهم لليوم التالي بنومٍ مريحٍ.

ويُتفقّد المريض والمنقطع عن الصلاة، ويُعاد المريض، ويوصل الرحم، ويُساعد صاحب الحاجة والمعوزين، ويُسأل عن الجار، ويصحّ أن نقول: إن المدينة كتلة واحدة بسكانها، وكل حيٍّ من أحيائها أسرة واحدة، وهكذا المجتمع الإسلامي في مودته بعضه لبعض أو كما قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمنين في توادّهم، وتراحمهم، وتعاطفهم، كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر البدن بالسهر والحمى».

ولا توجد في المدينة الإسلامية الملاهي والمقاهي التي تستقبل روّادها

ليلاً ونهاراً، وإنما لها وقت محدد يتفق مع ساعات الراحة وقبلها وبعدها قليلاً. كما تخلو هذه المدينة من كل أنواع المحرّمات، وما يُؤثّر على راحة السكان من ضوضاء أو فوضى أو إثارة مشاعر.

والبناء في المدينة الإسلامية هو الصورة الصحيحة للبناء، والطريقة الصحيحة لاحترام الأسرة ووقارها، والسمة المثالية للتعاون.

[١١] الأرض

أوجد الله الأرض، وجعل فيها شروطاً مُعيّنةً مُناسبةً للمخلوق الذي سيوجده، ثم فطر هذا المخلوق، ومنحه مُؤهلات وقُدرات يستخدمها لاستخراج ما يصلح له من هذه الأرض، ويُبدّل فيها ويُغيّر ضمن قوانين ثابتة لا تتحوّل، وفي الوقت نفسه سخّر له الأرض وذلّلها، فلا تتعثّر ولا يتعثّر فيها نظام، وكل ما فيها مُوافق لحياة هذا المخلوق نعمةً من الله وفضلاً، وإن كان الإنسان ينسى هذه النعم لأنها تغمره باستمرار. ومن هذه النعم أيضاً ما أودعه الله من أرزاقٍ وخيراتٍ في الأرض، وفي جوفها، وفي الفضاء الذي تسبح فيه، ويستطيع الإنسان أن يحصل على هذه الخيرات بما منحه الله من عقلٍ يستعمله، ويستفيد من تجاربه وخبراته التي يكتسبها هو وغيره على مدى الدهر فالقوانين ثابتة، وسنّة الله لا تتغيّر.

ولما كان الله سبحانه وتعالى قد منح الإنسان العقل، والإنسان جنس الإنسان بغضّ النظر عن لونه، أو عرقه، أو عقيدته، فالناس متساوون بهذه الهبة الربانية، غير أن بعضهم قد هداهم عقلهم للإيمان فآمنوا ولهم أجرهم عند ربهم، وجحد بعضهم نعمة الله وأنكرها، وأنكر وجوده فله جزاؤه أيضاً عند ربه يوم القيامة. أما في الحياة الدنيا فالجميع يعملون وكل مسؤول عن عمله أيضاً، والأرض مُذلّلة للمُسلم والكافر على حدٍ سواء، وكل يستعمل عقله، ويتّخذ الأسباب، وكلما جدّ حصّل النتائج وتوصّل إلى مُعطيات أفضل، وكلما توانى وتكاسل لم يظفر بحاجته وعاش عالةً على الآخرين، هذه سنّة الله في الكون، وسنّة الله لا تتبدّل.

والإسلام حثّ على السعي وحضّ على البذل لاستخراج ما في

الأرض من خيراتٍ وكنوزٍ، والأرض مُذلّلة للجميع لا تمتنع عن أحد، ولا توصد أبوابها في وجه أحد. والقوانين مبذولة للجميع، وثابتة للكل لا تتحوّل عن صياغتها. والعقول ممنوحة للناس سواء، وما على المرء إلا أن يُعمل عقله، ويتعرّف على ما أودع الله من خصائص وأسرار في قوانين هذا الكون، ويمكنه الإفادة ممّا توصّل إليه الآخرون، ويُضيف، ويستنبط، ويستخرج الخيرات، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا...﴾[1]. فمن اتخذ الأسباب، وسلك السبيل الصحيح تمّ له ما يُريد ـ إن أراد الله له ذلك ـ.

ولقد قام المسلمون الأوائل بما فرضه عليهم دينهم من السعي والبذل فدانت لهم الأرض وألقت بكنوزها لهم حسب القوانين التي كانت معروفة في ذلك الوقت وحسبما أضافوه إليها من تجاربهم وخبراتهم التي حصلوا عليها، وتوصّلوا إلى أشياء كانت آنذاك ابتكارات رائعةً، ثم نام منهم من نام، وتواكل من تواكل وظنّ أن الرزق يأتي دون سعي، وأن بركات الأرض تخرج دون تعب، وما ذلك إلا للجهل الذي انتشر، وعدم المعرفة الذي ساد، حتّى فسّروا كتاب الله تفسيراً ما سبقهم إليه أحد، ولا قاله قبلهم أهل علـم ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾[2]. الإيمان وحده لا يكفي فالسماء لا تُمطر ذهباً على المؤمنين، ولا تُخرج لهم فضةً، ولكن لا بدّ من العمل واتخاذ الأسباب. والعمل بلا إيمان لا يكفي أبداً فالإيمان قوة دافعة نحو الحقّ والخير، مانعة من الشطط والانحراف والظلم والتعسف. ويحصل أعداء الله على نعم الله بلاءً ومدًّا لهم، دون إيمانٍ منهم أو اعترافٍ بفضل الله عليهم.

وعندما كان المسلمون اليوم يميلون إلى الضعف، والكسل،

---

(١) سورة الملك: الآية ١٥.

(٢) سورة الأعراف: الآية ٩٦.

والتواكل، والجهل، والقعود عن العمل كان غيرهم يتجه إلى النهوض، والجدّ، والعلم، والقيام للعمل فتقدّموا وحصلوا على منجزاتٍ علميةٍ، ونظروا إلى المسلمين نظرة ازدراءٍ، ونظرة تعالٍ، ورجع المسلمون إلى أنفسهم فرأوا التأخر، فاتجهوا إلى أعدائهم يلهثون وراءهم، وأعطوهم فوق ما يستحقّون، ونظروا إلى أنفسهم نظرة صغارٍ وضعةٍ، وغدت عندهم عقدة نقص، وبدا كل شيءٍ من الغرب حسناً، ومن ديار المسلمين قبيحاً وبدأ تقليد الغرب.

إن الله يُعطي الذين يُريدون الآخرة ويسعون لها، ويُعطي من يُريد من الذين يرغبون في الحياة الدنيا، إنه يُعطي الجميع على جدهم ومن هنا يكون التفاوت حسب الجهد والوسائل والأسباب، ويُحاسب الجميع على عملهم وإيمانهم ومن هنا تمتلئ الجنة وتمتلئ النار. ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾[1]. فعطاء الله لا يُحظر على مؤمنٍ، كما لا يُحظر على كافرٍ، وإنما يتفاوت هذا العطاء بين البشر حسبما يبذلون من جهدٍ، وحسب الوسائل العلمية التي يستخدمونها والأسباب التي يتخذونها. ومن هذا المنطلق فإن الدول الغنيّة والمُتطوّرة هي التي تُطبّق العلم على العمل، وتسلك سبيل التنظيم والتخطيط، وتقوم بالمشروعات الإنمائية، وتُوفّر كل ما يحتاج إليه بناء الدولة والتطوّر الاقتصادي من وسائل علمية وعملية. وأما الدول المُتخلّفة فلا تُطبّق العلم لعدم توفّره ولانتشار الجهل، ولا تقوم بالمشروعات لإهمال الدولة واهتمامها بشؤون المُتنفّذين، وهذا ما يُفقد أعمال التنظيم والتخطيط، وفوق كل هذا فاقتصاد الأمة نهب بين رجالاتها الذين إن طالت مدتهم تسلّطوا على الخيرات، واستبدّوا، وإن قصرت أيامهم كلما جاء جديد غرف بكلتا

---

(١) سورة الإسراء: الآيات ١٨ ـ ٢٠.

يديه كل ما في وسعه، ونقل ما غرفه إلى خارج البلاد حتى غدت الدول الغنية تعيش، وينمو اقتصادها على ما ينهبه المتسلّطون في بلادهم.

ولو أعطى الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين فقط ـ كما يتوهّم بعضهم ـ لآمن الناس جميعاً، وكانوا مُكرهين على هذا الإيمان للحصول على الرزق، وكانت عبادتهم للمال لا لله خالقهم، ولم يكن هناك من شكرٍ على ما أنعم الله عليهم، ولا من اعترافٍ بفضل الله و... إذن فعطاء الله للجميع هو الحكمة، وهو الحقّ، وهو الخير ليؤمن من آمن على بيّنةٍ ويكفر من يكفر على بيّنةٍ.

ووعد الله للمؤمنين بالعطاء وعد حقّ ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، والإيمان ليس قضية تعبّدية بحتةً لا صلة لها بواقع الناس في الأرض، وإنما هو عمل في واقع الحياة، يدفع صاحبه للعمل ليُحقّق مشيئة الله في خلافة الأرض وعمارتها، ويدفع صاحبه ليحصل على بركاتٍ من السماء والأرض، ويدفع صاحبه لأنه مأمور بذلك، وهذا العمل يُؤدّي إلى الإنتاج، ويُؤدّي إلى ترقية الحياة وتطوّرها، ونموها باستمرار.

[١٢] الدعـــوة

عندما يستبدّ البشر بعضهم ببعضٍ، وتتحكّم القوّة، وتسود القوانين الوضعيّة على اختلاف أنواع الحكم ومسمّياته من شعبيّ (ديمقراطيّ)، أو عسكريّ، أو نظام حرٌ أو موجّهٍ، أو جاهليٌ قبليٌ فوضويٌ، فإنّ الأوضاع في هذه الأنظمة كلّها تسير على غير ما أنزل الله، ولا بدّ للمسلمين من أن يدعوا إلى تطبيق منهج الله في الحكم لتحقيق العدل، والكفّ عن الظلم، وعدم استبداد النّاس من أصحاب القوّة بغيرهم من الضعفاء، ولا شكّ فإنّ دعوتهم لن تُسمع بل ستُحارب لأنّها تتعارض مع مصلحة المُستبدّين، وتتناقض مع تسلّط الطغاة، وليت الأمر يُكتفى بعدم سماع الدعوة بل يتجاوز ذلك إلى التخلّص من هؤلاء الدعاة والقضاء على أفكارهم قبل أن تعظُم ويشتدّ خطرها ـ على زعم أصحاب السلطة ـ، وهنا لا بدّ من اتخاذ الحكمة والسّير بالطريق المستقيم التي تُجنّب الدعوة وأصحابها من التعثّر أو التعرّض للإبادة. ولننظر إلى بدء دعوة رسول الله ﷺ في مكّة حيث كان المجتمع الجاهليّ لا يختلف كثيراً عن الأوضاع السائدة اليوم في أكثر بقاع الأرض، باستثناء الإيمان النظري الذي يُعلن به، ويُقال بالأفواه، وتُخالفه الأعمال كلّها، سواء في البلدان الإسلامية أم التي تُعادي الإسلام وتُحارب أهله، وسواء أكان بشكلٍ صريحٍ واضحٍ أم بطريقةٍ مُبطَنةٍ مُستترةٍ. ولننظر إلى طريقة رسول الله ﷺ التي اتبعها في الدعوة، ولنسر على هديه فهو قُدوتنا وقائدنا.

لقد سار رسول الله ﷺ في طريقٍ ذات ثلاث شعبٍ هي: التربية، وعدم الصدام المباشر مع أصحاب السّلطة، والعمل على إيجاد مكانٍ يحمي الدعوة وتستطيع أن تنمو فيه وتنطلق منه. وكانت هذه الشعب الثلاث يسير

بعضها مع بعضٍ بشكلٍ مُتوازٍ، ويجب ألاّ يحول بعضها دون السير في الأخرى.

لقد كان رسول الله ﷺ يلتقي بالمسلمين لقاءً تنظيمياً سرّياً في دار الأرقم بن أبي الأرقم عند الصفا، ودار سعيد بن زيد بن عمرو وغيرهما يُربّي أتباعه، ويُعلّمهم كتاب الله، ويتلو عليهم ما أنزل الله، ويُوجّههم إلى الطريق الصحيح، وكان عدد المسلمين يزداد يوماً بعد يوم بالإقبال على الدعوة التي تنسجم مع الفطرة البشرية السليمة التي فطر الله النّاس عليها، ولأنّ الفرد من أتباعها كان يُمثّل المسلم الصحيح والقدوة الحسنة في المعاملة والصدق والتقيّد بأوامر رسول الله ﷺ، والصبر على الأذى، وتحمّل الشدائد في سبيل الدعوة، وعدم القيام بردّ الفعل ضدّ ما يُصيبه لأنّه يُدرك أن هذا يُؤدّي إلى جرّ الدعوة إلى حربٍ غير متكافئةٍ تقضي على الدعوة وأتباعها، وهذا ما يحدث على مرّ العصور. هذا التصرّف، وهذه الحكمة تدعو الآخرين إلى الدخول في الإسلام وزيادة الأتباع.

لقد حرص رسول الله ﷺ أن يُجنّب دعوته العثرات فحال دون الصّدام مع السّلطة من زعماء مكّة وأثريائها، وطلب من إخوانه ألاّ يقوموا بأيّ ردّ فعلٍ مهما أصابهم، أو إخوانهم، أو أصابه هو نفسه من أذى، وفعلاً لقد تعرّض ﷺ للأذى والإهانة والسّخرية، ونال أصحابه العذاب الشديد دون أن يفعل أحدهم شيئاً، ودون أن يقوم عليه الصلاة والسلام بأيّ شيءٍ، وإنما كان يدعوهم إلى الصبر، وتحمّل الشدائد، ويذكّرهم بما تحمّله أصحاب الدعوات السابقين فعن خبّاب بن الأرّت، قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ، وهو متوسّد بردةً له في ظلّ الكعبة، فقلنا: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: «قد كان من قبلكم يُؤخذ الرجل فيُحفر له في الأرض حفرةً فيُجعل فيها ثم يُؤتى بالمنشار فيُوضع على رأسه فيُجعل نصفين، ويُمشّط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصدّه ذلك على دينه؛ والله ليُتمّنّ الله هذا الأمر حتّى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف

إلاّ الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»[1]. وكان بنو مخزوم يخرجون بعمّار بن ياسر وبأبيه وأمّه، وكانوا أهل بيت إسلام، إذا حميت الظهيرة، يُعذّبونهم برمضاء مكّة، وقد قتلوا أمّه سميّة ولم يملك رسول الله ﷺ إلاّ قوله: «صبراً آل ياسر، موعدكم الجنّة» ولم يملك المسلمون إلاّ عبرةً يذرفونها، وحسرةً تُذيب الأفئدة. ولو أراد رسول الله ﷺ أن يقوم بعملٍ مُعادٍ باسم حماية الدعوة ـ كما يتصوّر بعضهم ـ أو كي لا يتجرّأ عليها أحد، أو حتّى لا يعود طاغٍ لتعذيب المسلمين لكان بإمكانه بكلّ يُسرٍ، فلو أمر أحد أصحابه أن يقتلَ أبا جهلٍ عمرو بن هشام لما يناله المسلمون على يديه، أو أميّة بن خلف لما يفعل بالمستضعفين من المسلمين، أو أيّ واحدٍ من أولئك الطُّغاة المُتغطرسين لما تردّد ذلك الصحابيّ أبداً، بل لأسرع في التنفيذ وعدّ ذلك تقرّباً إلى الله بطاعة رسول الله وتنفيذ أمره، وحنقاً على أولئك القُساة الظالمين وانتقاماً منهم لما يفعلون، لكنّ رسول الله ﷺ لم يفعل ذلك خوفاً على الدعوة من أن يتكالب عليها الظالمون، وينقضّ على أتباعها البُغاة. وعلى المسلمين في كلّ وقتٍ إذن، تحمّل الأذى مهما اشتدّ، والصبر على المكاره مهما تعاظمت لا استسلاماً ولا جبناً وإنما خوفاً على الدعوة، وليُفوّتوا على خصومهم الفرصة في تنفيذ ما يُخططون له. فكم من مُتهوّرٍ اليوم جرّ على حركته النكبة وهو يظنّ بنفسه الشجاعة؟ وكم من مُغفّلٍ ألحق بجماعته الويل وهو يحسب أنّه يُحسن صنعاً؟ وكم من قائد اكتسب الزعامة على جماجم إخوانه؟ إنّ هذا كلّه لم يفعله رسول الله ﷺ، وعلينا أن نترك ما ترك رسول الله ﷺ. ولم يُؤذن للمسلمين بالقتال حتّى أصبحت لهم دولة في المدينة، وعندها كان الصراع وجهاً لوجه ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ

---

(١) رواه البخاري، وأبو داود، والنسائي.

وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾[1]. ويجب ألا ننسى أننا لا نزال نعيش في المرحلة المكّيّة وسط مجتمعٍ جاهليٍّ مؤمنٍ نظرياً، ولكننا مُكلّفون بتطبيق كلّ ما نزل.

وفي الوقت نفسه كان رسول الله ﷺ يُحاول أن يجد مكاناً للدعوة تحمي نفسها فيه لتنطلق منه، وينصرها أهله، لِما رأى ما يُصيب أصحابه من البلاء، وما هو فيه من العافية لمكانه من ربّه، ثمّ من منعة عمّه أبي طالب له، وأنّه ﷺ لا يقدر أن يمنع أصحابه ممّا هم فيه من العذاب والبلاء، فاتجه نظره ﷺ إلى الحبشة، فقال لهم: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإنّ بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد، وهي أرض صدقٍ حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه»، وهاجر المسلمون مرتين إلى الحبشة، ولكن لم يطب لهم المُقام فيها حيث كانوا قلّةً لم يزد عددهم على الثمانين كثيراً، والقلّة تشعر بالغُربة، وتحسّ بالعُزلة وخاصةً إن كانت تختلف عن المجتمع الذي تعيش عقيدةً ولغةً، كما هي حال المسلمين في الحبشة، هذا بالإضافة إلى مُقاومة البطارقة لهم، ومع رعاية النجاشي لهم إلاّ أنّه لم يكد يصل إلى أسماعهم خبر إسلام أهل مكّة وانفراج الكُربة عن المسلمين فيها حتى عاد بعضهم مُسرعين إلى بلدهم، غير أنّهم ما أن وصلوا إلى مكّة حتى عرفوا أن الخبر غير صحيح، ولم يستطع أحد منهم أن يدخل بيته إلاّ بعد أن أجاره أحد سادات مكّة، أو دخل مُستخفياً.

وعادت الحياة في المجتمع المكّيّ إلى حالتها الأولى، وارتحل رسول الله ﷺ إلى الطائف علّه يجد النصرة من ثقيف، ولكنّه لم يرَ إلاّ الصّدود والمطاردة فرجع إلى بلده حزيناً كئيباً.

ويعرض رسول الله ﷺ نفسه على القبائل في كلّ موسم عسى أن تُقبل بعض القبائل على نُصرته لكنّ قريشاً كانت له بالمرصاد فتحول بينه

---

(١) سورة الحج: الآيتان ٣٩، ٤٠.

وبين القبائل بافتراء الكذب عليه، واختلاق الشائعات ضدّه وضدّ دعوته، غير أنّه تمكّن في موسمٍ أن يلتقي ببعض حجّاج يثرب بعيداً عن أعين قريشٍ فعرض عليهم دعوتهُ فآمنوا، وتواعدوا على اللقاء معه في الموسم التالي في العقبة، وتمّ اللقاء، وحضر معه عمّه العبّاس، ولم يكن قد أعلن إسلامه بعد، فاستوثق لابن أخيه ﷺ، وبايع اليثربيون رسول الله، عليه أفضل الصّلاة والسّلام، على السمع والطاعة في المنشط والمكره، ومنعه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم إن قدم إليهم. . . فأشار رسول الله ﷺ إلى أصحابه بالهجرة إلى يثرب، فبدؤوا يُهاجرون إليها جماعاتٍ وأفراداً سِرًّا خوفاً من قريشٍ وفي بعض الأحيان جهاراً عندما يكون المُهاجر صاحب منعةٍ أو ذا شكيمةٍ. ثمّ هاجر رسول الله ﷺ وصاحبه أبو بكر، وفي المدينة آخى، عليه الصّلاة والسّلام، بين المسلمين، وأصبح الجميع كتلةً واحدةً مُتراصةً، وتكوّنت النواة الأولى للدولة الإسلامية، ولم يعد الآن بحاجةٍ إلى تنظيم لأنّ الأكثريّة أصبحت إخوةً مؤمنين، وكذا الحال عندما يُطبّق الإسلام في مصرٍ من الأمصار إذ تصبح الدولة الإسلاميّة هي القائمة والراعية لشؤون المسلمين جميعاً.

أمّا التدريب على القتال فقد كانت الأسلحة عاديةً أيام رسول الله ﷺ ويُجيد الرجال فنّ استعمالها بطبيعة حملهم لها منذ سنٍّ مُبكّرةٍ، أما اليوم فالأسباب ميسّرة أيضاً لكن يجب ألا نُخلّ بالنواحي السالفة الذكر من حيث التربية، والتعمية، وعدم الصدام.

أمّا مدّة التربية فكثيراً ما يحبّ أصحابها السرعة فيها فتتشوّه الأمور، ويتخرّج أبناؤها بطرقٍ معوجّةٍ، ويقع كثير منهم في شرك غيرهم إذ لم يتحصّنوا بالقدر الكافي. لقد بقي رسول الله ﷺ ثلاث عشرة سنة يدعو في مكّة، ويتعهّد أصحابه، ولم يتمكّن من إقامة الدولة رغم التربية القويمة وتهيئة العناصر الرشيدة المُؤهّلة لكل الصعاب والأدوار، ولو لم تكن الهجرة، ونُصرة الأنصار، وسيادة الإسلام في المدينة، لطالت مدّة الدعوة في مكّة لوقتٍ، الله أعلم به، ولم يُحدّد رسول الله ﷺ مدةً معينةً لهذه المرحلة إذ ليس بيده هذا وإنما عليه الدعوة والعمل، والله يتولّى الأمر

وينصر من ينصره، وكان ﷺ يقول لأصحابه عندما يطلبون الدعاء بالنصرة «ولكنكم تستعجلون» ونحن مُكلّفون بالدعوة والعمل لله والإخلاص في ذلك، والنتائج وزمن تكامل التربية بيد الله سبحانه وتعالى، ونحن نُؤجر على قدر عملنا وإخلاصنا، والإسراع يُجهض العمل إذا لم يتكامل بشكلٍ طبيعي، وقد يقتله إذا لم يكن قد وقف على قدميه بعد.

وقد يقول قائل: كان المسلمون أيام رسول الله ﷺ يجتمعون في مدينةٍ واحدةٍ، مرجعهم واحد، ومنبع ثقافتهم واحد، وحتّى عندما توسّعت الدولة بقيت المدينة المركز الرئيسي للإشعاع والتوجيه، وكذلك عندما انتقل مركز الدولة إلى دمشق أو بغداد أو القاهرة أو استانبول بقيت وحدة جامعة سواء أكان في شخص الخليفة أم في مصدر الثقافة، أمّا اليوم فقد تغيّر الوضع إذ فصلت الحدود بين الأمصار، واختلفت المشارب، وتباينت الأهداف، بل سار العمل في كلّ مصرٍ باتجاه.

هذا الكلام صحيح ولكن يجب أن ننظر نظرةً شاملةً فالعمل الإسلامي قائم في كثير من الأمصار ـ ولله الحمد ـ إضافةً إلى المؤسسات الكبيرة التي تعمل إلى حدٍّ ما للصلة والارتباط بين الحركات الإسلامية، والتعريف بها، وإنشاء المراكز الإسلامية لتوثيق العُرا بين المسلمين، والمفروض أن ننطلق من منطلقٍ إسلاميٍ صحيحٍ، ونبتعد عن العصبية والحزبية كلّ البعد، يجب أن نتصوّر:

١" ـ أنّ كل حركةٍ إسلاميةٍ إنما هي جزء من العمل الإسلامي العام الذي يقوم به المسلمون جميعاً أينما كانوا بغضّ النظر عن جنسياتهم أو لغاتهم، فالعمل واحد في الأمصار كلّها وضمن خطٍ واحدٍ.

٢" ـ أنّ كلّ جماعةٍ إنّما هي جزء من المسلمين، وليست هي جماعة المسلمين، تعمل وحدها بالإسلام، ويشذّ غيرها، لذا تعدّهم خارجين عن نطاقه، وبذا تتعدد الجماعات الإسلامية، والإسلام واحد، ويُفقد التعاون، وتكون العصبيات، والحزبيات، والخلافات، وما أكثر ما وقع العاملون في الحقل الإسلامي بهذا الخطأ، وأصرّ بعضهم عليه، مع العلم أنّ أيّة جماعةٍ لا تُمثّل واحداً بالمائة من المسلمين مهما بلغ شأنها، لذا تبقى جزءاً من

المسلمين، ولا يمكن أن تكون هي مجموعة المسلمين.

٣" ـ أن يكون العمل ضمن إطار الآية الكريمة ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ فيُساعد الجميع بعضهم بعضاً، وأيّ مُسلمٍ بمعنى الإسلام هو أخ للآخر فيجب أن يُعاونه ويدعمه كأخيه الذي يعمل معه في مصره، ومدينته، وحيّه. أمّا أولئك الذين يرفضون أن يُعاونوا إلاّ الذين يلتزمون معهم فإنّما هم مُخطئون يفهمون الأُخوّة الإسلامية بالمعنى الحزبي الضيّق، المعنى الحزبي البغيض، المعنى الحزبي بمفهوم القومي، والاشتراكي، وصاحب المصلحة. إنّ الأُخوّة بالإسلام لا بالحزبية، ولا بالتنظيم، ولا بالعصبية للمدينة، أو للمصر، أو للجنس، أو لأيّ مفهومٍ من العصبيات.

٤" ـ أن يكون العمل بالإسلام وحده دون التعلاّت والتأويلات التي تخدم المصالح الشخصية والمنافع الذاتية أو الحزبية كأولئك الذين يرتمون في أحضان المتسلّطين يتزلّفون لهم، ثم يُبررون مواقفهم المُخزية بأنّها لخدمة الإسلام كي لا يتعرّض أتباعهم لخطر المستبدّين، أو لتستفيد جماعتهم التي تخدم الإسلام ـ على زعمهم ـ أو لتحمي نفسها من الشرّ وما إلى ذلك من مُبرّرات ينفثها الشيطان في آذان أصحاب النفوس المريضة.

٥" ـ أن يكون التجمّع والعمل حول الفكر الإسلامي لا حول أشخاص يدّعون أنهم يُمثّلون الإسلام دون أن يتمثّل بهم. الرجال يذهبون والعمل يبقى، الرجال يُخطئون ويُصيبون والإسلام سليم خالٍ من أيّة شُبهة. ونُقدّر الرجال بمواقفهم الموافقة للإسلام، ونقف أمام الذين يُخالفون. وكلّ عملٍ برجاله ومواقفهم وسلوكهم وأفكارهم.

٦" ـ التعاون مع أهل العلم في كل مكان والتناصح وتبادل المناهج والمعلومات عن مخططات وأهداف الأعداء.

إذا أخذ كل عمل بهذا الخط كان سليماً، ومُخلصاً لله، ونرجو أن يُتقبّل، وعندها يحقّ لنا طلب النّصر، ولا بدّ من أن نُعطاه ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

[١٣] الانتخاب

يتراءى لبعض الناس أنّ الانتخاب هو الطريقة المثلى لتمثيل الشعب، ويُبالغ بعضهم فيعدّها أقرب الطرق للنظام الإسلامي «نظام الشُّورى»، ويُفتي آخرون بغير علم فيدّعون أنّها هي نظام الإسلام ذاته، معاذ الله أن يكون في الإسلام طَريقة غير صحيحة، ويقولون: إن الانتخاب يُعطي رأي الأكثرية، والأكثرية هي التي يجب أن تحكم، ويجب على الأقلية أن تخضع لرأي الأكثرية وترضخ، وهو ما يُسمّى حكم الشعب بنفسه، أو ما يُعرف بـ «الديمقراطية»، إذ فُتن كثير من الناس بالغرب نتيجة التطوّر المادي والعلمي الذي قام، وأصابهم شيء من النقص نتيجة التخلّف والضعف الذي حلّ بنا، فساروا في طريق التبعية والتقليد، وفُتنوا بالنظم القائمة هناك فأحبّوا أتباعها، ومن أحبّ شيئاً رفعه، وأعطاه صفاتٍ ليست فيه، وهذا ما جعل عدداً ممن يدّعي العلم يدعو إلى تطبيق نظم الغرب، ويصفها بأنها أقرب طرق الحكم إلى الإسلام، وهو الجهل ذاته، فإذا كان الأمر كذلك من أقليةٍ وأكثريةٍ، فأين دور الأنبياء والرسل؟ وأين مُهمّة القادة والمصلحين؟ أيتركون ما أُرسلوا به وما أخذوه على أنفسهم؟ أم ماذا يصنعون؟ أيسيرون وفق أهواء الكثرة الجاهليين والعامة أم ماذا يفعلون؟

إنّ الإسلام لا يُوجد فيه أقلية وأكثرية، ولكن يُوجد فيه حقّ وباطل، فالحقّ يجب أن يُتبّع ولو أنّ صاحبه فرد واحد، والباطل يجب أن يُترك ولو أنّ الجماعة كلّها تقول به وتحمله، والأنبياء والرسل يبدؤون بالدعوة مُنفردين يحملون الحق ويدعون له، وتُقاومهم أقوامهم كلها تبعاً لمصالحها وأهوائها تحمل الباطل وتتمسك به. ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ

يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾[1].

بُعث رسول الله ﷺ، وكُلّف أن يُبلّغ الرسالة، فصدع بما أُمر به، غير أن قريشاً وقفت في وجهه خوفاً على زعامتها وشهواتها، فأغرت سفهاءها برسول الله ﷺ، وسخرت من جعل الآلهة إلهاً واحداً، وهزئت من ترك ما عبده الآباء والأجداد، وأعلنت أن هذا مجرد افتراءٍ واختلاق، وما سمع أحد بهذا من قبل ﴿صٓۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾﴾[2]. ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾[3].
فماذا يفعل رسول الله ﷺ، أمام موقف قريش؟ أيترك الدعوة ويسير برأي الأكثرية يعبد الأصنام أم يسير بالقلّة التي آمنت معه لا يُبالي بالكثرة التي وقفت في وجهه، وأعلنت الحرب عليه؟ لا بدّ من متابعة الطريق والسير مع الحقّ مهما قلّ أنصاره والإعراض عن الباطل ومُحاربته مهما كثر أتباعه وزاد مؤيّدوه.

بدأت مع الزمن تدخل إلى عقول الناس بدع وخرافات تكثر مع انتشار الجهل، وظنّها بعضهم من الدين، وغدا الظنّ يقيناً عندهم، والوهم حقيقةً، وقام المصلح الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ يُبيّن لهم الحقيقة، ويوضّح لهم الأمر، وبُعد ما هم عليه من الدِّين، وأنّ هؤلاء من الصالحين قد ماتوا وانتهى أمرهم، فلا يُجيبون داعياً، ولا يمكن لهم أن يُلبّوا مُغيثاً، وإنما السؤال يجب أن يكون من الله وحده ودون سواه، فهو الذي يُجيب

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١١٦.

(٢) سورة ص: الآيات ١ ـ ٧.

(٣) سورة الزخرف: الآيتان ٢٢، ٢٣.

دعوة المضطر إذا دعاه، ويصرف عنه ما به، لذا يجب إزالة هذه القباب من فوق هذه القبور، وتسويتها، فاستغرب الناس، وعدّوا ذلك تجنيًا على الدين وبُعداً عنه، فهؤلاء صالحون... أولياء... لهم كرامات فكيف؟ و... ووقف الناس في وجه الشيخ، واضطر إلى الانتقال من مكان إلى آخر، حتّى هيأ الله له من شدّ من أزره، وأخذ بفكرته فانتشرت... وحاربه أعداؤه خارج منطقته على السماع، بأنّه أدخل على الدين جديداً، وجاء بجديد... والواقع أنه لم يأت بجديد، وإنما وضح الحقيقة، وأبان سبيل الحق. فلو سكت المصلح أمام رأي الأكثرية الجاهلة، وأطاع العامة فيما تعارفوا عليه لدخل إلى الدين ما ليس منه، ولتبدّل صفاؤه إلى أساطير. فالدين لا يعرف أكثريةً ولا أقليةً فالأُمة جميعها تلوي أعناقها أمام نصٍ واحدٍ.

عاشت أوروبا في جهلٍ، ثم بدأت تستنير بعض العقول، ويظهر بعض العلماء الذين يُجرون التجارب، ويتوصّلون إلى نتائج علميةٍ معينةٍ، غير أن رجال الكنيسة الذين تسلّطوا على العقول قد هالهم ما توصّل إليه هؤلاء العلماء فأنكروا عليهم، وعدّوا عملهم مُروقاً من الدين، وأغروا العامة بهم، وتكلّموا للحُكّام عنهم حتى قُتل من قُتل خروجاً عن الدين، ثم بدأ الصراع بين رجال الكنيسة والعلماء حتى شدّ أزر العلماء بعض الأمراء فقوي أمرهم، وحدث الانفصام بين الكنيسة والعلم، وهُزمت الكنيسة في النهاية، وساد العلم، وبدأت التجارب، وانطلق التطبيق، ونهضت أوروبا بعد غفلةٍ، واستيقظت من جهالتها. إنّ الحقائق العلمية لا تعرف أكثريةً ولا أقليةً إنه العالم كلّه ليخضع للعلم التجريبي والبراهين العلمية حتى يظهر ما ينقضها.

تسلّل اليهود إلى فلسطين، وتمكّنوا فيها بدعم من الصليبيين، وشرّدوا أهلها، واغتصبوا أرضها، وبدؤوا بالاعتداءات على البلدان المجاورة ليُحقّقوا سياستهم التوسعية، وفرضت بعض البلدان المجاورة الجندية الإلزامية على شبابها لردّ العُدوان والوقوف في وجه الطامعين، ورحّب السكان بهذا الإجراء، ولما بدأ التنفيذ ظهر التهرّب من الجندية الإجبارية، وكلّ يسعى

في دفع البدل النقدي حتى اضطرت الدولة إلى إلغائه، والإلزام بالخدمة، وبعد مدةٍ بدأ النقد من أكثرية السكان لأن كلاً ينظر من خلال مصلحته، ويُفكّر في قضيته، ويُهمل قضية البلاد العامة ومصلحة الأُمّة. فهل نُلغي الخدمة الإلزامية حسب رأي الأكثرية، ونُعرّض الأُمّة للخطر أم نُبقي ما قُرر حسب رأي الأقلية؟. إن مصلحة الأُمّة لا تعرف أكثريةً ولا أقليةً وإن الأُمّة كلّها لترضخ لما تقتضيه المصلحة.

قد يرى بعض الناس شيئاً في موضوع الجندية، ويرفضون تهرّب الأكثرية، غير أنه يُقنعهم رؤية الحُزن الذي يعمّ الأسرة عندما يذهب أحد أبنائها للجيش، والإقبال على دفع البدل فيما إذا أُعلن، وفرح الشباب وإسراعهم فيما إذا تمّ. وهناك نقطة أخرى يجب أن نعرفها، وهي أن رأي الفرد بينه وبين نفسه يختلف عن الرأي الذي يتحدّث فيه مع أقرانه ويتباين كلّياً مع الرأي الذي يُعلنه على ملإٍ من قومه أو حشدٍ من الجموع، فالرأي الإعلامي أو الجماهيري كلّ النّاس يُؤيّدون الخدمة، ويُحبون التطوّع للقتال، ويُضحّون في سبيل الواجب وما إلى ذلك من الكلمات الإعلامية وإذا كان كذلك فلماذا الرغبة في دفع البدل؟ ولماذا السعي في عدم الذهاب إلى الجبهة والبقاء في المكاتب داخل المدن عند تأدية الخدمة؟ ولماذا السفر إلى الخارج وقضاء خمس سنوات من أجل دفع البدل؟ ولماذا الانزعاج في الأسرة كلها عند التحاق أحد أفراد الأسرة بالجيش؟ و. . . وربما يقول بعضهم: يحدث هذا فعلاً ولكن بسبب ضعف الإيمان، وعدم وجود الجهاد، والأوضاع السائدة، وموضوع الاحتفاظ، وقضية الاحتياط و. . . تعلّات وتعلّات والرأي الشخصي وما يجول في النفس غير هذا كله ينطلق من المصلحة الفردية. إنَّ مصلحة الأُمّة تقضي وجود الخدمة الإلزامية وإنا لنطالب بالإصلاح وتحقيق أمر الجهاد.

فإذا كانت أُمور الدين، والعلم، ومصلحة الأمة لا تنظر إلى موضوع الأكثرية والأقلية فماذا بقي كي نُعطيها أهميةً، ونبحث فيها، ونتحدّث عنها، ونعدّها أمراً مُهمًّا؟ وقد يسأل بعضهم: لماذا فصلت العلم ومصلحة الأمة

عن الدين وهما منه؟ فأنا لم أفصل ولكن للتوضيح وتسهيل المناقشة.

ونعود إلى موضوع الانتخاب لنرى قيمة الأكثرية لنحكم على الانتخاب ووزنه الحقيقي سواء أكان في الحكم أم في السياسة أم في التنظيم. إنّ الشعب ليس كلّه في مستوىً واحدٍ وإنّ الأكثرية فيه دون المستوى المطلوب، وعندما ندعو إلى الانتخاب نُساوي بين الأصوات، صوت العالم المُفكّر الذي يُقلّب الأمور، ويُوزنها بالعقل وبين صوت الجاهل الذي لا يعرف شيئاً ولا يُقدّر النتائج ولا ضير عنده أن يُعطي صوته لمن يدفع، أو وراء مصلحةٍ ينتظرها. أيّ عقلٍ يقبل هذه المساواة؟ وأيّ منطقٍ يتوقّع الحصول على نتائج سليمةٍ؟

ما دامت الأكثرية دون المستوى المطلوب فيمكن توجيه هذه الأكثرية بالقرابة، بالصداقة، بالعاطفة، بالمال، بالسياسة، بالضغط، بالخوف... ونحن نعلم الأموال الكثيرة التي يبذلها المرشحون لكسب الأصوات، أصوات العامة، فتكون النتائج إذن نجاح ممثلي المال لا ممثل الشعب، ونحن نعلم في الولايات المتحدة كيف تفعل أموال الأثرياء دورها! وينجح ممثلوها حفاظاً على الرأسمالية ونظامها ـ على حدّ زعمهم ـ. ونعلم كيف تفعل أصوات اليهود، وأثرها على نجاح مُؤيّديها لبقاء السياسة الأمريكية موافقةً لإسرائيل ودعمها بالمال، ومدّها بالسلاح، وتنفيذ سياستها، وتحقيق مطالبها، فأين رأي الشعب؟ ومن يحكم الشعب؟ هل الشعب أم المال والسياسة العامة المتفق عليها مسبقاً، والمساومات؟

وفي الإمبراطورية الروسية يحكم الحزب الشيوعي الذي لا تزيد نسبة أعضائه على ٥٪ من سكان الإمبراطورية، ومع ذلك فهو يتسلّط على السكان كلّهم. أفراد الحزب الشيوعي وحدهم الذين يحقّ لهم الترشيح، ومنهم وحدهم يتألّف المجلس، والأعضاء الكبار منهم هم الذين يرسمون السياسة الروسية، ويُبذّرون المال، ويبزّون بذلك أكبر الرأسماليين. هؤلاء وأولئك يدّعون أنهم يُمارسون الحُكم الديمقراطي أو حُكم الشعب بأوسع معانيه، فإن كانوا صادقين فتعساً له من حُكم، وإن كانوا كاذبين فتبًّا لنظامٍ

يقوم على الكذب. والشعب يُسحق في الإمبراطورية الروسية باسم الديمقراطية، ويُمنع من الحصول على أولى الحقوق وأدنى الحريات، فيُمنع من حقّ الملكية، ويُحرم من ممارسة الشعائر الدينية، بل وتُداس مُقدّساته، ويُهان، ويُذلّ حتى ولو أظهر الشيوعية إن لم يكن من النصارى الأرثوذكس الروس. وفي الولايات المتحدة تُصاب فئة الرأسماليين بالتُخمة، وتلعب دورها في السياسة، وتُقاسي فئة الفقراء شظف العيش وحياة الذلّ والشقاء. وفي الإمبراطورية الروسية يُعدّ الروس مواطنين من الدرجة الأولى بشرط أن يكونوا نصارى ومن الأرثوذكس، وما عداهم فهم من الدرجة الثالثة أو الرابعة، ولا يعرف ترتيب درجة المسلمين، وعلى كلٍ تأتي في مؤخرة الترقيم. وفي الولايات المتحدة يُعدّ البيض من النصارى من مواطني الدرجة الأولى وغيرهم من درجات أخرى إضافةً إلى التمييز العنصري بين البيض والسود.

ليس الحزب الشيوعي في الإمبراطورية الروسية هو الذي يتسلّط على الحكم في بلاده بل ويُشاركه كلّ الأحزاب الشيوعية في البلدان التي تُسيطر فيها الشيوعية، إضافةً إلى البلدان التي يحكمها حزب واحد سواء أكان ذلك في البلدان المتطوّرة - حسب تصنيفهم - أم في البلدان المتخلّفة وهو الغالب. فأفراد الحزب هم المُتسلّطون، والدولة نهب بين المتنفّذين فيهم، وبعد ذلك يدّعون الديمقراطية إذ يجمعون أعضاء حزبهم الذين يختارونهم باسم «انتخاب» في مكان يُسمّونه «مجلس نيابي»، ويتلقون التعليمات فيوافقون عليها بالإجماع، أو يأخذون عليها التواقيع باسم «جلسات نيابية». وهذا ما نراه مُطبّقاً، ولا يقبله عقل سليم، وإن كان كلّ يتغنّى باسم نظامه، ويدّعي أنه المثالي.

ويجب ألا ننسى توجيه الدولة، والخوف من الضغط، لذا تقوم أحياناً حكومات حيادية مؤقتة للإشراف على الانتخابات، ومع ذلك لا تنجو من التوجيه، وفي الغالب يكون ما تراه الدولة.

إذا كانت الأقلية والأكثرية لا وزن لها، وأن ما يُدّعى أنّه ديمقراطي

«حكم الشعب» لا قيمة له، وأن نظام الانتخاب المعمول به لا يصلح، ولا يصحّ اتباعه، وأن ما يُطبّق قائم على فساد. فأي نظامٍ يصلح؟ وما هي طريقة تنفيذه؟. إن النظام الإسلامي هو النظام الذي يصلح للبشر، فالله الذي خلق الإنسان أنزل له ما يصلح له، وهذا المنهج يصلح للبشرية في كل مراحل نموها وارتقائها. ومع فارق التشبيه فإن الذي يصنع آلته، يكون أدرى بها من غيره، وهو الذي يضع طريقة إدارتها ونظام صيانتها وما يمكن أن ينشأ فيما بعد تشغيلها مدةً كذا، وبعد كذا و. . .

إن نظام الحكم في الإسلام يعتمد على مبدأ الشورى. ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾[1]. و﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾[2] ليست الشورى أن يُسأل كل فردٍ، وإنما يُستشار أهل العلم والرأي والحكمة، كما يُسمع من كل من يُبدي رأياً أو يَعرض فكرةً، والمستشارون هم أهل الحلّ والعقد، وهم الذين يستشيرهم الخليفة، ويُقلّب وجهات نظرهم، ثم يُعطي رأيه، ويأمر بتنفيذه. واختيار أهل الحلّ والعقد، هو الأساس في النظام الإسلامي لا الانتخاب، وهم أساس التوجيه واستنباط الأحكام في النظام الإسلامي لا المجلس النيابي القائم في أعراف اليوم.

يُختار أهل الشورى أو الحلّ والعقد من أهل العلم في أرجاء الدولة الإسلامية كلها. اختيار يتعلّق بالإيمان لا بالرغبة، ولا الترشيح، ولا دفع المال، ولا كثرة الأنصار، وأعداد القبيلة وكلّ ما يرتبط بالمادة والمصلحة وحبّ الزعامة. وقد لا يرغب أكثرهم في اختيارهم بمجلس الشورى والانتقال إلى مقرّ الحكم ولكن المصلحة العامة تقتضي ذلك، فيضطرون إلى الموافقة إن لم يُجبروا عليها، ويُعطون آراءهم بما يرونه أو يستنبطونه

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٥٩.

(٢) سورة الشورى: الآية ٣٨.

من القواعد الأساسية للإسلام، لا بما تقتضيه مصالحهم، أو شهواتهم، أو مصالح ناخبيهم، أو أهواء قبيلتهم، أو سياسة دولتهم أو. . . وقد يقع الخلاف في الاجتهاد والتباين في الاستنباط، وهذا ما يُعرض على أمير المؤمنين أو الخليفة أو الأمير أو ما نراه من أسماء فيرجّح رأياً على آخر، ويحكم به، وهو لا يأخذ برأي أكثريةٍ أو أقليةٍ وإنما ما يتراءى له على أنه أقرب إلى الصواب، أو أنه يُحقّق فائدةً للمجتمع أكبر. ويحكم هذا كله نقطتان رئيسيتان أولاهما النظام المعتمد على كتاب الله وسنة رسوله الكريم إذ لا يصحّ أن يخرج عنهما أيّ حكم مهما كان، إذ يُعدّ خارجاً على الدستور، وأُخراهما الإيمان، فإذا ما اختلفت الآراء نتيجة الاجتهاد كان الإيمان هو الضابط لها، والموجه الرئيسي لها. ولا يمكن أن تتشعّب الآراء كثيراً ما دامت مُستنبطةً من مصدرٍ والدافع لها واحد، والأمير نفسه من أهل العلم وغالباً ما تتفق الآراء وتكون منسجمة.

ويقضي نظام الشورى على الانتخابات ومساوئها، من بذل الأموال وشراء الأصوات، والضغوط التي تُمارس، وإرباك الدولة، وإقامة حكومةٍ محايدةٍ تُشرف على الانتخابات كي لا تُوجّه، وتأخير بعض الموضوعات لانتظار نتائج الانتخابات، وتغيير السياسة فيما إذا نجحت فئة جديدة إضافةً إلى تغيير الموظفين تبعاً لأهواء المتسلّمين السلطة الجدد. وتأثُّر السوق التجارية بنجاح فئةٍ لها سياسة معينة، والصراعات داخل المجلس، وتحكّم الأهواء، واتخاذ وسائل غير شريفة في سبيل الكسب السياسي والوصول إلى السلطة وما إلى ذلك من الأمور السيئة التي تنتج عن الانتخابات، وقضية الأكثرية والأقلية، وما يُطلقون عليه «حكم الشعب».

[١٤] الحُكم

لكلّ أُمةٍ نظام تسير على هداه يُحدّد صلاحية المسؤول، ويُبيّن واجباته، ويُوضّح طريقة الإدارة، ويُعيّن أسلوب الحكم وقواعد السلطة. كما أنّ لكلّ أُمّةٍ منهجاً اجتماعياً يسود بين أفرادها، وغالباً ما ينبع من عقيدتها، كما لها منهاجاً اقتصادياً تختاره لنفسها سواء أكان من وضع أبنائها أم مستورداً من غيرها أم مجموعاً من هذا المنهج ومن ذاك فهو مزيج. وغالباً ما يختلف المنهج عن النظام وليس هناك من رابطٍ يجمع بينهما سواء أكان من حيث الأصل أم في طريقة الوضع، وغالباً أيضاً ما يكون كلاهما من وضع البشر لذا فالنظام والمنهج على حدٍّ سواء يتغيران باستمرار لأنهما وضعَا وفق مصالح المُشرّعين وحسب أهوائهم فإذا ما تغيّر المشرّعون أو تبدّل الموجّهون كان لزاماً تغيير القوانين والأنظمة والمناهج، ومن هنا فالقوانين الوضعية مُتبدّلة باستمرار.

ومن ناحيةٍ ثانيةٍ فإن قوانين الحكم الوضعية لا توجد فيها أيّة اتصالات بينها وبين عقيدة الشعب، فقد تُحرّم العقيدة الزنا لكن ليس هناك ما يمنع أصحاب السلطة من ممارسة ما حرّمته العقيدة من زنا أو كذب أو غشٍّ أو قتلٍ أو. . . . ويتّخذون الجملة الرائجة الباطلة قاعدةً لهم «دع ما لقيصر لقيصر وماالله لله» ويقصدون بقيصر الحياة الاجتماعية، ويقصدون بـ (الله) العبادة أو الكنيسة، ففي الكنيسة أو المعبد يتعبّد المرء ما يشاء، وخارج الكنيسة يفعل الإنسان ما يُريد. أو يقولون: الدِّين لله والوطن للجميع، وهي جملة باطلة ورائجة أيضاً، ويكاد يكون معناها معنى الجملة السابقة نفسه، تتعبّد الله كما تشاء، أما الوطن فلا علاقة له بعبادتك وتشترك ومن يعيش فيه لخدمته ـ على زعمهم ـ ويمكن للناس فيه أن يعبدوا صنماً أو عجلاً،

أو عبداً، أو يُفسدوا عقائد غيرهم بالإغراء، والمال والشهوة، أو يتكلموا بالكفر أو يكتبوا كفراً، ولا يمكنك أن تفعل شيئاً باسم الحرية، وباسم الدين لله والوطن للجميع.

أمّا الأُمّة المسلمة فتختلف عن غيرها من الأُمم في دستورها أو نظام حكمها ومنهجها الذي تسير عليه فهو أولاً مُنبثق من عقيدتها التي نظّمت حياة الفرد والجماعة تنظيماً دقيقاً، وبحثت كل نقطةٍ فيها منذ أن يُولد الفرد حتى ينتقل في الدنيا، ومن خلوته بنفسه أو مع أهله حتى أكثر القضايا تعقيداً من ا لحياة، ودرست أمور الجماعة من التقاء الفرد مع أخيه حتى أصعب جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية. وثانياً هو من عند الله، ومعنى ذلك هو:

١" ـ بعيد عن الأهواء والشهوات ومحاباة فردٍ، أو جماعةٍ، أو فئةٍ، أو تنظيمٍ، أو شعبٍ، أو لونٍ، أو عنصرٍ، أو أبناء قارة أو. . . .

٢" ـ ثابت لا يتغيّر بتبدّل الزمن أو البيئة.

٣" ـ واحد لا اختلاف ولا تناقض فيه.

٤" ـ صالح للبشر لأن الذي خلق الخلق وفطرهم بطبيعتهم التي هم عليها، هو الذي أنزل لهم ما يصلحُ لهم، فهو الخبير بشؤونهم، العليم بفطرتهم، الحكيم بطبعهم الرحيم بهم. بل لا يصلُح للبشر غير ما أنزل الله، لأنه يكون من وضع المخلوقين المختلفين بطباعهم، المتفاوتين بمصالحهم، المتباينين برغباتهم وشهواتهم، فينشأ كلّ نظام يختلف عن الآخر ويُناقضه، ويتفق مع الذي صاغه أو مع الذي وجّهه لصياًغته، فقط.

٥" ـ متكامل يُتمّم كلّ جانبٍ بقية الجوانب، ولو أعرضنا عن حانب لظهر شيء من الخلل كالبناء القائم على أركان فلو رفعنا ركناً لاختلّ البناء بل لو رفعنا لبنةً من جدار لظهر شيء من العور، وبالمقابل لو ظهر السفور في المجتمع المسلم لبدا الفساد وانعكس ذلك على المجتمع، ولأثّر على الاقتصاد، ومع الزمن يصل الأمر إلى العقيدة، وهو أساساً منها.

٦" ـ مترابط لا يمكن الفصل بين جانبٍ وآخر. إذ لا يمكن أن نقول: هذا للدين وهذا للدنيا، فالدنيا تُقابلها الآخرة لا يُقابلها الدين، إذ الدين للدنيا والآخرة. ولا نقول: هذا أمر تعبّدي وذاك أمر اجتماعي أو اقتصادي فكلّ خُطوةٍ يخطوها المؤمن نوع من العبادة إذ في الطعام عبادة ما دام المرء يقصد به التقوّي على طاعة الله ومرضاته، واللقمة يضعها في فم زوجه له فيها صدقة ما دام يقصد بها العفّة... وإحياء الأرض عبادة، والسعي على العيال عبادة، والجهاد في سبيل الله عبادة، وصلة الرحم عبادة وكل أمرٍ سواء أكان اجتماعياً أم اقصادياً أم إدارياً عبادة ما دام يقصد فيه الإخلاص والطاعة.

٧" ـ إيماني: ما دام المسلم مُؤمناً بالله، ويعتقد أن القرآن من عند الله وأن ما فيه من آياتٍ وأحكامٍ يجب تطبيقها فهي لم تنزل عبثاً ولا لهواً، ولا للتعبد في تلاوتها فقط، وإنّما للعمل بموجبها والتقيّد بأحكامها، كما يؤمن أن محمداً رسول الله، وأنّ ما يقوله وما يأمر به ليس من عنده ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥﴾[1]، فعمله وقوله وأمره واجب التطبيق والتنفيذ. هذا إيمان يقيني عند المسلم، ومن هذا الإيمان أن تركه أو الإعراض عنه كفر، وأن أخذ جزءٍ وترك جزءٍ كفر. وأن العبادة وإقامة الشعائر دون الأخذ بالمنهج كفر تُسأل عنه الجماعة، وعلى الفرد المطالبة بذلك والدعوة إلى ذلك، لأنه غير مسؤولٍ عن التنفيذ ما دام لا يملك سلطة، وصاحب السلطة هو المسؤول الأول، كما لا ينجو من السؤال من لم يعمل ويدعو.

ويُؤمن المسلم أنّ العبادة ركن أساسي من الإسلام، وليست وحدها هي الإسلام. وأن إقامة الحدود جزء من الحكم الإسلامي وليست وحدها هي الحكم الإسلامي. إن الحكم الإسلامي هو تطبيق منهج الإسلام في الاجتماع، والاقتصاد، والسياسة، والصلات مع المسلمين خارج ديارهم،

---

(١) سورة النجم: الآيات ٣ ـ ٥.

ومع الأعداء وما يترتب على ذلك من نظم ومواثيق ومعاهداتٍ وجهادٍ، وإقامة الحدود، وتنفيذ أسلوب الحكم. وإن إقامة أيّ جانبٍ مهما كان مُهمًّا لا يعني تطبيق الإسلام. وإنّ إهمال أيّ جانبٍ مهما كان صغيراً يعني الإخلال بالنظام والمسّ به وهذا يعني عدم تطبيق منهج الإسلام. فالتطبيق يجب أن يكون كاملاً.

[١٥] التشريع والاستنباط

إن للأُمّة المسلمة تشريع لا يصحّ اتخاذ غيره لأنه من عند الله، والله الذي فطر البشر هو أدرى بما يصلُح لهم، فأنزل لهم بما يُوافق حياتهم. وهذا التشريع أو النظام ثابت لا يتغيّر مع الزمن، ولا يتبدّل حسب المكان، حيث فيه من الاستنباط ما ينسجم مع كلّ عصرٍ، وفي كلّ بقعةٍ. ولما كان من عند الله فهو لم يوضع تبعاً لمصالح أو أهواء، ولم يُشرّع حسب أمزجة بني البشر وما يعتريها من نزوات، كما لم يختلف حسب البيئات والأماكن، وهذا الفرق الرئيسي بينه وبين القوانين الوضعية التي صاغتها البشرية على اختلاف عصورها ودولها، إذ كانت ترتبط برغبات واضعيها، وأغراضهم لذا لم يلبث أن يظهر فيها العور، ويبدو الفساد فيُسرع الآخرون بنقدها ويعملون على إلغائها، ووضع قوانين غيرها، ويدّعون أن فيها الصلاح، ولكن لم تلبث أن تتغيّر بزوالهم، لأنها كانت تتفق ومصالحهم فقط، فإذا ما انتهوا انتهت صلاحيتها معهم، وهكذا عبر الزمن.

إن كلّ تجاوزٍ للتشريع الإسلامي فيه خروج على الدين ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾[1]. وكل حُكم بغير ما أنزل الله كفر وبغي وفسق وظُلم ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ

---

(١) سورة الجاثية: الآية ١٨.

ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾[١].

لقد بعث الله لكل قوم رسولاً له وشرع له شرعة يحكم بها بين قومه، ثم أرسل محمد بن عبدً الله عليه أفضل الصلاة والسلام للناس كافةً، فكانت رسالته خاتمة الرسالات وشاملةً لها، وفي الوقت نفسه ناسخة لها. وكان رسول الله ﷺ، خاتم الأنبياء، ولما كانت خاتمة الرسالات فيجب أن تصلُح للبشر إلى نهايتهم وتُماشي نموّ حياتهم وتطوّرها وارتقاءها، وهذا ما هو كائن ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾[٢].

وكان قوم كل رسولٍ مُلزمون عقيدياً بما أنزل إليهم من شرعةٍ وكلّ تجاوزٍ يُعدّ كُفراً ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾[٣]. ولما كانت رسالة

---

(١) سورة المائدة: الآيات ٤٨ ـ ٥٠.

(٢) سورة الشورى: الآية ١٣.

(٣) سورة المائدة: الآيات ٤٤ ـ ٤٧.

الإسلام ناسخةً لما قبلها فقد انتهى الحكم بما قبلها، وإن كانت شاملةً له، ويُلزم الناس بالنظام الإسلامي والحكم بما أنزل الله في القرآن وما أوحى الله به إلى عبده ورسوله محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام.

ولما كانت رسالة الإسلام تُماشي نموّ الحياة وتطوّرها وارتقاءها فكان لا بدّ من أن يكون فيها من المرونة ما يُستنبط منها ما يُناسب كل ما يستجدّ في حياة البشر من اقتصادٍ واجتماعٍ وإدارةٍ، وهذا ما يستنبطه ويجتهد فيه أهل العلم، وهو أمر مع تطور الحَياة، إذ كثيراً ما تستجدّ أمور لم تكن موجودةً من قبل فمنِ الضرورة أن يُعطي أهل العلم رأيهم فيه، كالمصارف التي تعمل كشركاتٍ مضاربة، والتأمين على وسائل النقل، وطرق انتقال المسلمين من بلاد الكفر إلى بلاد المسلمين وقضية جوازات السفر و. . . ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾[1].

وما دام نظام الإسلام من عند الله فهو واحد لا اختلاف فيه ولا تناقض. إنه نظام متكامل لذا من الضروري تطبيقه كاملاً، ولكن لو أخذنا جزءًا وتركنا آخر لأصبح هناك اختلال، ولظهر فيه بعض العور ما دام يُكمل بعضه بعضاً ولظنّ بعض الجهلة أو الأعداء أن هناك اختلافاً فيه، أو لا يظلح في كل جوانبه ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾[2]. إذن لا بدّ من تطبيق المنهج الإسلامي كاملاً كي تسعد البشرية وتشعر بارتفاع قيمتها، أما الأخذ بجانب العبادة وترك أمور الحياة الاقتصادية والاجتماعية والإدارية أو الفصل فهو مخالف لأمر الله، وفيه كفر صريح. وهذا ما يظنّه كثير من الناس صحيحاً بل وحتى بعض المسؤولين يقولون: إننا نُؤدّي العبادة، ونُؤدّي الشعائر، وندعو لها، ونُقيم الحدود وبذا نطبق النظام الإسلامي. أعود لأقول إن النظام الإسلامي متكامل لا يمكن أخذ الجانب التعبدي وترك شؤون الحياة فالإسلام عبادة

---

(١) سورة النساء: الآية ٨٣.

(٢) سورة النساء: الآية ٨٢.

ونظام لا يمكن الفصل بينهما، كما لا يمكن إقامة الحدود فقط ـ مع أهميتها ـ والإدعاء بتطبيق الإسلام، لا بدّ من تطبيقه متكاملاً، كيف نُقيم حدّ الزنا والاختلاط موجود، والسفور والتبرج مُنتشر؟ كيف نُقيم حدّ السرقة والفقر والجوع يعمّ البلد؟ كيف نُقيم حدّ السرقة على الفقير لأخذه القليل والمتسلّط يرتع بأموال الناس؟ كيف نُقيم حدّ الخيانة والنظام مرتبط مع الشرق أو الغرب؟ وهذه أمثلة على جوانب اجتماعية واقتصادية وإدارية.

إذن في النظام الإسلامي شرع الله هو المهيمن، ويستنبط أهل العلم أحكام ما يجدّ في حياة البشر، وتتكوّن لجنة من أهل العلم تُتابع الاجتهاد ودراسة القضايا المستجدة.

[١٦] الترف

تبرز الأُمّة عندما تجعل لها هدفاً تنطلق نحوه وتسعى جادّةً لتصل إليه وتسير بعدئذٍ إلى غايتها لتُحقّقها، وقد تكون الأهداف ماديةً دون غايةٍ كالمغول الذين انطلقوا من فيافيهم يسلبون وينهبون، ويحصلون على المغانم الكثيرة، ويقتلون ليصلوا إلى المزيد ممّا يطلبون، يُبيدون الأخضر واليابس، ويُهلكون الزرع والضرع، ويدمّرون المدن، ويُزيلون المعالم كي يقطعوا على خصومهم كل وسيلةٍ للتموين أو المقاومة، وهذا ما يُجبر العدو على الفرار أو الاستسلام، وبرز المغول، وأنشؤوا دولةً غير أنهم لم يتمكّنوا من الاستمرار لتأخرهم الحضاري ووجودهم وسط أمّةٍ ذات حضارةٍ فاعتنقوا عقيدتها، وذابوا فيها، وأصبحوا جزءًا منها.

وقد تكون الأهداف قتاليةً سواء أكانت هجوميةً أم دفاعيةً أم استنقاذية أو ردود فعلٍ لما تتعرّض إليه كما هي الحال في دول أوربا التي كانت كل دولةٍ تُحاول أن تقف في وجه تعدّيات الثانية، وتُحاول الانتصار عليها كي تُذلّها أو تسيطر على أرضها، أو كما هي حال الدول الضعيفة التي تكون أرضها محتلةً من قبل غيرها وتُريد التخلّص من ربقة الاحتلال فتبذل ما في وسعها للحصول على الاستقلال.

أما الأمة المسلمة فقد برزت بعقيدتها، وانطلقت تدعو إلى الله، وتنشر الإسلام، وتفتح البلدان للقضاء على الظلم وإخراج الناس من الظلمات إلى النور، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، وكانت لها غاية، ولم تقتصر على أهدافٍ ماديةٍ تتوقّف عند تحقيقها.

وتُوفّر الأُمّة عند انطلاقها نحو أهدافها وغايتها كل شيءٍ لتُحقّق ما تُريد وتُقدّم كل شيءٍ لتحصل على ما تبغي، وإذا ضحّت بإخلاصٍ، وتقدّمت بصدقٍ بدأت تُحرز النصر، وتحصل على الفوز. وتكون في مرحلة نموٍ واتساعٍ، وبناء وتشييدٍ، وتستمر في ذلك ما دامت تسير على طريقتها الأولى عندَ انطلاقها، فإذا شعرت أنها قد انتهت من مُهمّتها، ووصلت إلى غايتها، ركنت إلى الأرض، وخلدت إلى الراحة، وبدأت تنسى ما قدّمت، وتغفل عمّا ضحّت، أو يكون الجيل الذي بنى وتعب، وشاد وبذل قد انتهى، ولم يشعر الجيل الذي جاء بما فعل السلف إذ عاش في الهناء والرخاء، ووجد نفسه في الخير يقطف ثمار ما زرعه السابقون. وغاية الأمة المسلمة لا تنتهي إلا بتطبيق منهج الله في الأرض كلها، واقتلاع الظلم وجذوره من الأرض كلها، لذا فعملها دائم مستمر ويجب ألا تعرف إلاّ الجدّ ، ولا تفكر بالترف.

يبدأ الجيل الجديد عهداً جديداً، فسادته حكام، والغنائم تأتيه من كل صوبٍ، والشعوب التي تخضع له في خدمته، والأموال التي تأتيه يستغلّها في جلب الناس لأمور دنياه من زراعةٍ، وصناعةٍ، وتعليم، وبناءٍ، بل وللخدمة في بيته والتصرّف بها كيف يشاء، وتكون الأمة قد وصلت إلى مرحلة الترف، وهي بداية الانهيار، والانتهاء من مرحلة البناء، وقد بدأت حياتها بالتراجع والتقهقر الذي يُؤذن بالضعف ثم الرحيل، وتغلّب الأعداء عليها. إذ لم يعد أبناؤها قادرين على مقاومة غيرهم إذ اعتادوا على حياة الترف، واسترخت نفوسهم لاعتمادهم على الخدم وعدم قيامهم بأيّ عمل، ولم يعد بإمكانهم الرجوع إلى حياتهم الأولى والتي كان يحياها آباؤهم. ومن هذا المنطلق يُحارب الإسلام الترف، ويُطالب العادة على حياة الخشونة، وإمكانية العيش في كل الظروف، وبمختلف الأسباب.

لقد ورد الترف في ثمانية مواضع في كتاب الله وكلها في موضع الذمّ، وهذه هي آيات الله:

١" ـ قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ

عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾[1].

٢" ـ قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾[2].

٣" ـ قال تعالى: ﴿لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾﴾[3].

٤" ـ قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾﴾[4].

٥" ـ قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾﴾[5].

٦" ـ قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾[6].

٧" ـ قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾[7].

٨" ـ قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾﴾[8].

والمُترفون عادةً أكثر الناس استغراقاً في المتاع، وأقربهم إلى الانحراف بل في طليعة المنحرفين، وعدم التفكير في المصير، لأن كثرة

---

(١) سورة هود: الآية ١١٦.
(٢) سورة الإسراء: الآية ١٦.
(٣) سورة الأنبياء: الآية ١٣.
(٤) سورة المؤمنون: الآية ٣٣.
(٥) سورة المؤمنون: الآية ٦٤.
(٦) سورة سبأ: الآية ٣٤.
(٧) سورة الزخرف: الآية ٢٣.
(٨) سورة الواقعة: الآية ٤٥.

المال تدعو إلى السيادة، والخلود إلى المتعة والراحة، وتُيسّر عمل الفسق، فترتع فيه النفس وتستهتر بالقيم فلا تبالي فيها، وتتعاظم بمالها، كما تستهتر بأعراض الآخرين، وتُحاول أن تُعوض لهم عنها بالمال، إذ يصبح المال كل شيءٍ في مفهوم المُترفين. وبذا تفسد الفطرة، وتستجيب النفس لكل مفسدةٍ.

قد يكون الإنسان بالأصل طيباً صاحب خلقٍ ودينٍ إلاّ أن كثرة المال تُعميه عن الكثير مما حوله فلا يرى إلاّ ما يُفكّر فيه إذ يُريد في البداية أن يُقلّد المُترفين من أصحاب النفوذ، من المُجرمين الذين يحصلون على المال عن طريق الربا، والاحتكار، والزعامة، وعن طريق القمار، والزنا، والمُحرّمات كلها و. . . يريد أن يُقلّدهم بما يملك مُباهاةً وتفاخراً فيأتي بالخدم ويملأ بيته بهم نساءً ورجالاً، ويُعميه المال، وتُعميه المباهاة فلا يعرف ماذا يتمّ بين هؤلاء الخدم! ولا يعلم ماذا يتمّ بين شبابهم ونسائه! ولا بين نسائهم وشبابه! فهذه غرائز أودعها الله في النفس البشرية. ومن ثَمّ يُصيب البيت العفن ولا يدري، وينخر فيه السوس ولا يدري، ويسبح فيه الدود ولا يدري، ويصبح بُؤرةً للفساد وهو يظنّ أنه يُحسن صُنعاً، يُقدّم لأهله الراحة ويخدمهم. وإذا أراد أن يترك ما هو فيه ويرجع إلى ما كان عليه عجز لأن أجسام أهله قد ترهّلت فلم تعد تقوى على العمل، ونفوس أبنائه لم تقبل العمل لأنها لم تتعوّد عليه و. . . وتكون الطامّة، فمن أين نأتي بالمجاهدين والعاملين الذين يقومون ببناء الأُمّة وتقدّمها وتطوّرها؟ وقد فقدناهم بما أترفناهم فيه.

يُحارب الإسلام الترف ويُقيم نظامه على أساسٍ لا يسمح للمترفين بالوجود في الجماعة المسلمة. لقد كان الخدم مُتوفّراً في المرحلة التي فيها الإسلام، ويُشكّل الرقيق جزءًا كبيراً، وتُعد الحروب أكبر مصدرٍ للرقيق. غير أن الإسلام قد عمل على الحدّ من استعمال الخدم، وفي الوقت نفسه عمل على إلغاء الرقيق فجعل عتق الرقاب تكفيراً للذنوب، وتقرّباً إلى الله و. . غير أن القتال كان يمدّ المجتمع بأعدادٍ كبيرةٍ منه، ومع العتق الدائم

الكثير إلا أن أعداداً منه تبقى في المجتمع. ولكن الإسلام فرض على أتباعه العمل، والإحسان للخدم، وجعل الإيمان ضابطاً للتصرف.

قال عليّ بن أبي طالب، رضي الله عنه،: إن رسول الله ﷺ، لما زوّجه فاطمة بعث معها بخملةٍ، ووسادة أدمٍ حشوها ليف، ورحائين، وسقاءٍ، وجرّتين. فقال عليّ لفاطمة ذات يومٍ: والله لقد سنوت[1] حتى اشتكيت صدري، وقد جاء الله أباك بسبيٍ فاذهبي فاستخدميه[2]. فقالت: وأنا والله قد طحنت حتى مجلت[3] يداي. فأتت النبي ﷺ، فقال: ما جاء بك يا بُنية؟ فقالت: جئت لأسلم عليك. واستحيت أن تسأله ورجعت، فقال عليّ: ما فعلت؟ قالت: استحييت أن أسأله. فأتياه جميعاً فقال عليّ: والله يا رسول الله لقد سنوت حتى اشتكيت صدري، وقالت فاطمة: قد طحنت حتى مجلت يداي، وقد أتى الله بسبيٍ وسعةٍ فأخدمنا. قال رسول الله ﷺ: والله لا أُعطيكما وأدع أهل الصُّفّة تطوى بطونهم لا أجد ما أُنفق عليهم، ولكني أبيعهم، وأُنفق عليهم أثمانهم. فرجعا، فأتاهم النبيّ ﷺ، وقد دخلا في قطيفتهما إذا غطّيا رؤوسهما تكشّفت أقدامهما وإذا غطّيا أقدامهما تكشّفت رؤوسهما فثارا، فقال: مكانكما، ألا أُخبركما بخيرٍ مما سألتماني؟ فقالا: بلى. فقال: كلمات علّمنيهنّ جبريل، تُسبّحان في دبر كل صلاةٍ عشراً، وتحمدان عشراً، وتُكبّران عشراً، وإذا أويتما إلى فراشكما فسبّحا ثلاثاً وثلاثين، واحمدا ثلاثاً وثلاثين، وكبّرا أربعاً وثلاثين. قال: فوالله ما تركتهنّ منذ علّمنيهنّ رسول الله. فقال له ابن الكوّاء: ولا ليلة صفّين؟ فقال: قاتلكم الله يا أهل العراق، ولا ليلة صفّين[4]. فسيّد البشر لا يرضى أن يُعطي أحبّ الناس إليه، ابنته فاطمة، رضي الله عنها، وهي سيدة هذه الأمة خادماً.

---

(١) سنوت: استقيت.

(٢) استخدميه: اطلبي منه خادماً.

(٣) مجلت: تقطعت.

(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد، الجزء الثامن. فاطمة.

يُطالب الإسلام الفرد المسلم أن يعمل بنفسه، ويُشجّعه على ذلك، فعن المقدام، رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، قال: «ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبيّ الله داود، عليه السلام، كان لا يأكل إلا من عمل يده»(١). وعن عروة بن الزبير قال: «قالت عائشة، رضي الله عنها،: كان أصحاب رسول الله ﷺ، عمّال أنفسهم، وكان لهم أرواح فقيل لهم: لو اغتسلتم»(٢). وإن كان لا بدّ من الخدم لسببٍ من الأسباب فقد طالب الإسلام بمساعدتهم، وعدم تكليفهم ما لا يطيقون وليطعموا مما يأكل السيد، وليلبسوا مما يلبس، عن المعرور، رضي الله عنه، قال: «لقيت أبا ذر بالربذة وعليه حُلَّة وعلى غلامه حُلّة فسألته عن ذلك، فقال: إني سابت رجلاً فعيّرته بأُمّه، فقال ليَ النبي ﷺ: يا أبا ذرٍ أعيرته بأُمّه إنّك امرؤ فيك جاهلية، إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليُطعمه مما يأكل وليُلبسه مما يلبس، ولا تُكلّفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم»(٣).

وقد جعل الإسلام الإيمان قيّماً على هذا وشاهداً فأصحاب الثراء من المسلمين يُنفقون أموالهم في سبيل الله، فلا تتكدّس عندهم الثروات، ولا يُخامر الفساد نفوسهم، فقد كان عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، رضي الله عنهما، من كبار الصحابة، ومن الأثرياء ولكنهما كانا دائمي الإنفاق، ويتصدّقون، وكذلك أبو بكر، رضي الله عنه، وكل أصحاب المال من صحابة رسول الله ﷺ، ومن المؤمنين على مدار التاريخ.

كان أبو بكر، رضي الله عنه، معروفاً بالتجارة، وبُعث النبيّ ﷺ، وعنده أربعون ألف درهم فكان يُعتق منها، ويُقوّي المسلمين حتى قدم المدينة بخمسة آلاف درهمٍ، ثم كان يفعل فيها ما كان يفعل بمكة(٤). وكان

---

(١) أخرجه البخاري في باب البيوع، والأنبياء.
(٢) أخرجه البخاري في باب البيوع.
(٣) متفق عليه واللفظ للبخاري.
(٤) طبقات ابن سعد.

يشتري الإبل والخيل والسلاح فيحمل في سبيل الله، واشترى عاماً قطائف أتى بها من البادية ففرّقها في أرامل أهل المدينة في الشتاء[١].

قال عبد الرحمن بن خباب، رضي الله عنه، : «شهدت رسول الله ﷺ، وهو يحثّ على تجهيز جيش العُسرة، فقام عثمان بن عفّان فقال: يا رسول الله، عليّ مائة بعيرٍ بأحلاسها[٢] وأقتابها في سبيل الله، ثم حضّ على الجيش، فقام عثمان، فقال: يا رسول الله، عليّ مائتا بعيرٍ بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله، ثُمّ حضّ على الجيش، فقام عثمان بن عفان، فقال: عليّ ثلاثمائة بعيرٍ بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله، فأنا رأيت رسول الله ﷺ، ينزل عن المنبر، وهو يقول: ما على عثمان ما فعل بعد هذه، ما على عثمان ما عمل بعد هذه»[٣]. وروى الأحنف بن قيس قال: «خرجنا حُجّاجاً، فقدمنا المدينة ونحن نريد الحج، فبينا نحن في منازلنا نضع رحالنا إذ أتانا آتٍ، فقال: إنّ الناس قد اجتمعوا في المسجد وفزعوا، فانطلقنا، فإذا الناس مجتمعون على بئرٍ في المسجد، فإذا عليّ، والزبير، وطلحة، وسعد بن أبي وقّاص؛ فإنّا لكذلك إذ جاء عثمان وعليه مُلاءة صفراء، قد قنّع بها رأسه، فقال: أهاهنا عليّ؟ أهاهنا طلحة؟ أهاهنا الزبير؟ أهاهنا سعد؟ قالوا: نعم، قال: فإني أُنشدكم بالله الذي لا إله إلاّ هو، أتعلمون أنّ رسول الله ﷺ، قال: من يبتاع مربد بني فلان غفر الله له؟ فابتعته بعشرين ألفاً - أو بخمسة وعشرين ألفاً - فأتيت النبيّ ﷺ، فأخبرته، فقال: اجعله في مسجدنا وأجره لك؟ قالوا: اللهم نعم، قال: أُنشدكم بالله الذي لا إله إلاّ هو، أتعلمون أنّ رسول الله ﷺ، قال: من يبتاع بئر أرومة غفر الله له؟ فابتعتها بكذا وكذا، فأتيت رسول الله ﷺ، فقلت: قد ابتعتها بكذا وكذا، قال: اجعلها سقايةً للمسلمين وأجرها لك؟ قالوا: اللهم نعم، قال: أُنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو، أتعلمون أنّ رسول الله ﷺ، نظر في

(١) المصدر نفسه.

(٢) الأحلاس: الأكسية التي تكون على ظهور الإبل تحت الرجال والأقتاب.

(٣) أخرجه الترمذي في باب مناقب عثمان بن عفان، رضي الله عنه.

وجوه القوم، فقال: من يُجهّز هؤلاء غفر الله له؟ يعني جيش العُسرة - فجهّزتهم، حتى لم يفقدوا عقالاً، ولا خِطاماً؟ قالوا: اللهم نعم، قال: اللهم اشهد، اللهم اشهد، اللهم اشهد»[1].

وعن الزهري قال: «تصدّق ابن عوف على عهد رسول الله ﷺ، بشطر ماله أربعة آلاف، ثم تصدّق بأربعين ألف دينارٍ، وحمل على خمسمائة فرسٍ في سبيل الله، ثم حمل على خمسمائة راحلةٍ في سبيل الله، وكان عامة ماله من التجارة»[2]. وعن الزهري أيضاً: «أن عبد الرحمن بن عوف باع أرضاً له من عثمان بأربعين ألف دينار، فقسّمه في فقراء بني زهرة، وفي المهاجرين، وأُمّهات المؤمنين و. . .»[3].

واستمر هذا السخاء يقوم به المؤمنون الصادقون لأنهم يخشون الترف ويعرفون مغبة ذلك، وسواء أوجد رجال بعد ذلك أم لا فإن أُسوتنا في صحابة رسول الله ﷺ، فهم الذين فهموا الإسلام وطبّقوه عملاً وسلوكاً.

تدفّقت الأموال على الدولة الإسلامية أيام الفتوحات الأُولى في عهد عمر وعثمان، رضي الله عنهما، وكان الإيمان قوياً في النفوس، فلم تؤثّر كثرة الأموال في نفوس المسلمين، فبُذلت في طرق الخير، وصُرفت في الوجوه المشروعة، وتوقّفت الفتوحات في أواخر عهد عثمان، رضي الله عنه، وتوقّف معها تدفّق الأموال، ولم يتغيّر شيء في طبيعة المسلمين. وعادت الفتوحات في عهد الوليد بن عبد الملك بعد أن استقرّت الأوضاع الداخلية، وعاد معها تدفّق الأموال والسبايا، وبشكلٍ أوسع من المرحلة الأُولى، وأثّرت هذه الأموال تأثيراً طفيفاً يتناسب مع التساهل الخفيف الذي حدث في هذه المرحلة بالنسبة إلى العقيدة، ومع ذلك فلم يبدو هذا الأثر على الحياة العامة.

---

(١) أخرجه النسائي في باب الجهاد.

(٢) أخرجه الطبراني في الزهد، وأبو نعيم في الحلية، وهو في الإصابة.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده.

وجاءت الدولة العباسية، لم يظهر أثر الترف في أول عهد الدولة بسبب الجهد الذي بذله أوائل الخلفاء لاستلام السلطة، وبعدئذٍ توقّفت الفتوحات نهائياً، وانصرف الناس إلى حياتهم الخاصة، وظهرت الدويلات نتيجة تجزؤ الخلافة، وركن السكان إلى الأرض، وأخلدوا إلى الراحة، وبدأت تظهر بوادر الترف، فانتشرت الموسيقى، وكثر الغناء، وغدت الجواري في القصور، وشيدت الأبنية الفخمة، وأُطلق على هذا اسم الحضارة، وأخذت الأُمّة تُؤذِن بالأفول.

وجُلب الزنج من الصومال إلى جنوبي العراق للعمل في المزارع والبساتين، وكثرت أعداد الذين جُلبوا، فكانوا يعيشون حياةً ملئها التعب والشقاء، وسادتهم على الأرائك مع نسائهم والجواري، يكدّ العامل في لظى الشمس المُحرقة، وسيده في الظلال الوارفة، فنشأ نوع من الحقد، العامل يستثمر ولا يأخذ، ويشقى لغيره فيثور في نفسه الحسد، وتثور كذلك الغريزة لما يرى، ولا يملك من الأمر شيئاً فلا أهل له، وهو في فورة الشباب، وثورة الطيش، وطفرة الجنس، واستغلّ هذا الشياطين من أصحاب الأغراض والذين يعملون في الخفاء، فحدثت ثورة الزنج، وفعلت ما فعلت بالمنطقة، وأعقبتها حركة القرامطة، ولا تختلف عنها في استغلالها للجنس والمال، فدعت إلى الشيوعية فيهما فأقبل نحوها الجهلة المحرومون الذين داسوا القيم بسبب ما يُعانون، فالضغط لا يُولّد إلاّ الانفجار و. . . .

وداعب النوم عيون الأمة فتهدّلت أجفانها وكادت تستسلم للنوم فما أيقظها إلا جنود الصليبيين يترنّمون بانتصاراتهم فتحرّكت حركةً خفيفةً تمكّنت من طردهم، وما كادت تعود إلى سُباتها حتى حرّكتها جحافل المغول تجوس ديارها فاهتزّت قليلاً، وذابوا فيها، ثم عادت تغطّ في نومها حتى سيطر عليها الصليبيون تارةً أخرى باسم الاستعمار فاحتلّوا الأرض، وبسطوا نفوذهم على السكان، وبدؤوا يُخطّطون لإزالة ما بقي في الأُمّة من عقيدةٍ خوفاً من أن تُحرّكها فتنتفض.

وضع الصليبيون المستعمرون المخططات، ومنها ما نحن في صدده

الترف، إذ أغرقوا من اصطفوا بالترف بعد أن سلّموهم المقاليد. ووضعوا نصب أعينهم أن يفيدوا مما يأتي:

١" ـ إغراق هؤلاء بالمفاسد كي تعمى أبصارهم عن كل شيء. ولو نظرنا إلى الترف الموجود عندنا لما وجدنا له في العالم مثيلاً، فلا يُوجد في أكثر بلاد الدنيا غنىً وفساداً ما يوجد ما يعمر بيوتنا وقصورنا من جموع الخدم، والعمال، والأتباع، وما يُنفق فيها من الأطعمة، ويُبذل من العطايا والهباب.

٢" ـ إغراق أكبر عددٍ من الشعب بهذه المفاسد عن طريق التقليد إذ يعمل الناس على تقليد كبرائهم وأصحاب النفوذ فيهم.

٣" ـ نعت ذلك كله بالإسلام إذ أن هذه العناصر تنتمي إلى الإسلام، إن لم تُصرّح بالعمل له، والواقع أن هناك براءة من كل طرفٍ للآخر.

٤" ـ ويجب ألا ننسى المظالم التي تُرتكب خلف هذا كله، ووصم الإسلام بذلك أيضاً، ونشر الدعايات في بلاد الأعداء.

٥" ـ تحقيق أهداف الأعداء من يهودٍ وصليبيين من السيطرة، والدعاية ضد الإسلام، وإيجاد الأتباع، وأخذ الخيرات، وإبقاء أصحاب النفوذ في غفلةٍ يعمهون، واستمرار هذا الوضع.

ولما كان المترفون قد استمتعوا بالدنيا غير حاسبين فيها للآخرة حساباً، ولا شاكرين لله نعمته، وغير وجلين من جزاء، ولا مُتورّعين عن ظُلم أو فُحشٍ أو حرام، واشتروا شهوات الدنيا بما أعدّ الله للمُتّقين، فقالَ الله في أمثال هؤلاء المترفين: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾[1].

---

(١) سورة الأحقاف: الآية ٣٠.

[١٧] الحضارة

الحضارة هي تطوّر الوسائل المختلفة التي تُحقّق خدمة الإنسان ورفاهيته، وتختلف الحضارة باختلاف تطوّر هذه الوسائل وباختلاف مفهوم خدمة الإنسان. فالماديون يحسبون الآلات هي وسيلة التطوّر وحدها، ويعدّون طلب الملذات، والحصول على الشهوات، وتأمين المصالح الخاصة، وبناء الجاه وحب الشهرة تقع كلها ضمن خدمة البشر بغضّ النظر عن الطرق التي يحصلون بها عليها، وما ينتج عنها من نتائج اجتماعية، أيّ ولو أدّى ذلك إلى تدمير مجتمعٍ كاملٍ أو قتل أفراد أُمةٍ جميعاً. أما المسلمون فيعدّون الوسائل التربويةَ والمادية هي المجال للتطور ولا تفيد الثانية دون الأولى، ويحسبون الوسيلة الشريفة للحصول على الرغبات هي وحدها التي تقع ضمن خدمة الإنسان مع النظر إلى سلامة المجتمع والنتائج الإيجابية الصحيحة، أمّا الوسائل غير الشريفة فهي من الأمور السلبية التي تضرّ بالمجتمع، وتفتك به، وتقضي على ما أقام من تقدّمٍ وتطوّرٍ للوسائل، وتهدم بالتالي ما بُني من حضارة.

إنّ تطوّر الوسائل لهو من نتائج تصوّر الناس للحياة وبيان مُهمّتهم فيها. وهذا ما تقدّمه العقيدة. فالعقائد المادية تُبيح للفرد أن يتصرّف بما يملك من وسائل لتأمين رغبات غرائزه دون النظر إلى النتائج، أو تسمح للجماعة أن تعصر الفرد عصراً تُذيب معه كامل شخصيته، وإن كان له الحقّ أن يُطلق العنان لغرائزه البهيمية دون رادعٍ، وكل يُسمّي ما يعتقده حضارة، أما الإسلام فقد وضع لكلٍ حَدًّا يقف عنده، وبحث في النتائج الاجتماعية ليبقى المجتمع صحيحاً، ويؤدّي دوره في الحياة كاملاً، فالحضارة إذن من نتاج العقيدة التي ترسمها لأتباعها تصوّراً خاصاً عن الحياة، وتبياناً لمهمتهم

فيها، ومن هذه المهمة يندفع المرء إلى العمل والنشاط فينشأ التطوّر، ويحدث التقدّم، وتكون الحضارة.

ولما كانت هناك عقائد مختلفة تتباين في نظرتها إلى الحياة، وإلى مُهمّة البشر في الدنيا، وإلى سعادة الناس الحقّة كانت هناك حضارات مختلفة.

ولما كان الإسلام يعدّ الإنسان مُستخلفاً في الأرض كان عليه أن يقوم بإعمارها حقّ القيام، ويُؤدّي مُهمّته التي أُنيطت به حقّ الأداء. ويعدّ الإسلام الإنسان مسؤولاً عن ذلك في الدنيا أمام النظام، وفي الآخرة أمام الله الذي استخلفه في الأرض، وأوكل إليه القيام بهذه المهمة، وسخّر له ما في السموات وما في الأرض، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، لذا فقد كان على الإنسان القيام بالعمل في الأرض، وإحياء الموات منها، واستغلال ما في الأرض أحسن استغلال، ومن هنا كانت الحضارة الزراعية وما يتبعها في كلّ ما يتعلّق بالأرض، وكلّ ما يرتبط بها من وسائل الاقتصاد من صناعةٍ، وتجارةٍ، ومن مواصلاتٍ، وكانت الدولة هي المسؤولة عن تنقّل الناس، وتأمين مصالحهم وحماية سيرهم وقوافلهم، ولعلّ هذا آخر ما بقي من آثار الحضارة الإسلامية، وإذ كانت الدولة تبني مسافة كلّ ٤٠ كيلومتراً تقريباً بناءً يأوي إليه المسافر، ويحصل فيه على الطعام، والشراب، والنوم، وكلّ وسائل الراحة بلا مُقابل، بل ويُقدّم لراحلته العلف في بناءٍ مجاورٍ للبناء الأول، ويخصّص للرواحل. . . وكانت المسافة هذه تسمى بالمرحلة أي مسافة ما يقطعه المسافر برحلته يوماً واحداً، وعرفت هذه الأبنية فيما بعد باسم «الخانات» نسبة إلى الأمير. . الذي يُطلق عليه اسم (الخان) وذلك في عهد التتار والأتراك. . . ولا يزال الكثير منها حتى هذا اليوم مثل «خان يونس» و«خان أرنبة» و«خان الشيح» و«خان ذا النون» و«خان ميسلون» و«خان شيخون» و«خان البطيخ» وغيرها كثير. . . هذا على الطرق الرئيسية التي تصل بين المدن، أمّا في داخل المدن فتوجد مثلها تُؤمّن الراحة للمسافرين والغرباء، وتُبنى من طابقين الأعلى منها للمسافرين، والأسفل

للرواحل، ولكن لا يحقّ أن يبقى المسافر في هذه أو تلك أكثر من ثلاثة أيام... وآثار ما كان منها في المدن لا يزال أيضاً، ويعرف بالاسم الأول نفسه «الخانات» وما من مدينة إلا وفيها عدد منها... مثل «خان الخليلي» في القاهرة، و«خان الباشا» في دمشق وغيرها... بل وصلت العناية بالمسافرين والتُّجار إلى أكثر من ذلك إذ كان في بعض المدن «دور للثياب» تُؤمّن لهؤلاء ثياباً بدل ثيابهم فيما إذا مزّقت أو أصابها أذى، ولا يُقابل ذلك سوى الثياب القديمة...

ولمّا كان الإسلام يهتمّ بالإنسان بالدرجة الأولى ويُكرّمه ويهتمّ بصحته، وحريته، وعقله، وتفكيره، لذا فقد اهتمّ بعقيدة المرء، ونزع ما في نفسه من أساطير وأوهام، وما يتعلق فيها من شوائب وخرافات، وحرّر عقله مما يسيطر على عقول الجاهليين من تنجيم، وطيرة، وهامة، ومنع كل ما يحول دون انطلاق فكر المسلم وتحرّره من كل قيد يُمكن أن يُفرض عليه، وبذا أخرجه من الظلمات والظلم والاستبداد. فالإسلام حرب على الظلم أينما وُجد، وحرب على الظلمات من أيّ مصدرٍ جاءت.

أما من الناحية الصحية فقد حرّم الإسلام كلّ ما يُؤذي جسم الإنسان أو نفسه من سمومٍ ومُسكراتٍ ومُخدراتٍ، ومنع الإنسان أن يقتل نفسه أو غيره، وهدّد الفاعل بأقسى العقوبات وهي نار جهنم. واعتنى بصحة الأفراد، وقد أُقيمت في الدولة الإسلامية المشافي التي تقبل كلّ مريضٍ، وتُقدّم له العلاج اللازم والدواء والعناية به حتى إذا عوفي كانت مسؤولةً عن وصوله إلى سكنه.

ومع صحة الإنسان فقد اهتمّ الإسلام بالحيوان، ورفق به رحمةً به وحرصاً عليه وعلى صحة البشر الذين قد يتضرّرون، ويُؤذون من جراء ذلك، ولقد وجدت أماكن رعويةٍ للحيوانات التي يُصيبها العجز فيضطر أصحابها إلى تركها، فخوفاً على الناس من أن تموت تلك الحيوانات ويتضرّرون من روائح الجيف وما يكون من تفسّخها من أمراضٍ وأذى، لذا فقد أنشأوا لها تلك الأماكن التي فيها أعشاب للحيوانات والتي يمكن أن

ترعى فيها سائمةً، وحظائر لتلك التي تعجز عن الحركة فإذا بلغت دابة أحد الناس تلك المرحلة من العجز أخبر أولئك المُشرفين على ذلك المكان فجاءوا إليه، ونقلوا دابته، فإذا ما ماتت نُقِلت إلى مكانٍ بعيدٍ في البادية لتأكلها وحوش الفلاة وطيور البر، أو وُريت بالتراب... وهذا كله رحمة بالحيوان وحرصاً على صحة الإنسان، ولعلّ آخر ما بقي من تلك الأماكن «مرجة الحشيش» المعروفة بدمشق، والتي أُقيم مكانها معرض دمشق الدولي.

ولقد اهتمّ الإسلام بمساواة الأفراد بعضهم مع بعض، وحرص على عدم التمييز بين عناصر المجتمع على أساس الغنى والفقر أو الأصول والبيئات أو المسكن والمكان أو المهنة والعمل حتى لا تنشأ الطبقات، وحتى لا يكون انفصام بين أبناء المجتمع الواحد، وحتى لا تكون الضغائن والأحقاد، وحتى لا يحدث الصراع الذي يقوم بين الطبقات في المجتمعات الحالية، وإنما ينظر الإسلام إلى الجميع النظرة الإنسانية، نظرة المساواة بصفتهم أنهم جميعاً يعودون إلى أصلٍ واحدٍ: «يا أيها الناس كلكم لآدم، وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم»[1].

واهتمّ الإسلام بنشر العدالة بين الرعية ففرض تأدية الزكاة للدولة، والدولة بدورها تُؤدّي المال للفقراء حتى لا تكون مِنّة من غني على فقير، كما أمر بالصدقة والتعاطف والتراحم بين الجوار والأرحام ثم بين المسلمين جميعاً، فقال ﷺ: «مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى».

والدولة الإسلامية مسؤولة عن تأمين العمل لأفرادها، ورعاية حالات العجز والشيخوخة بغض النظر عن عقيدة الأفراد الذين تُصيبهم هذه الحالات.

---

(١) من خطبة رسول الله ﷺ في حجة الوداع.

واهتمّ الإسلام بالعدل وعدم النظر إلى منصب الأفراد، فالخليفة فرد من المجتمع يقف أمام القاضي، فيُقضى له أو يُقضى عليه، وما هو بأفضل فردٍ في المجتمع، فيقول أبو بكر رضي الله عنه عندما وُلي الخلافة: «إني قد وُلّيت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوِّموني...».

ولم يكلّف الإسلام المرء فوق طاقته، ولم يحمّله ما لا يستطيع، ولم يأمره بالسخرة في الأعمال للسادة والأشراف كما يحدث عند بقية الأمم، ولا في مشروعاتٍ للدولة إلا إذا كانت خدمةً عامةً ينال منها الفرد المكلّف، أو فيها مصلحة للمسلمين جميعاً، لذا لم يهتمّ المسلمون ببناء القصور المنيفة، والبيوتات الشامخة، ولا المساجد الفخمة حتى لا يحدث الحقد، وينظر الفرد إلى المسؤول عنه نظرة الكراهية، أو إلى الغنيّ نظرة الحقد، وما حدث في تاريخ المسلمين من هذا لم يكن إلاّ في الأيّام المُتأخّرة يوم بدأ الإسلام ينحسر من نفوس أبنائه...

وطالب الإسلام أُولي الأمر بالتواضع وعدم الترفّع عن الرعايا وإن كان هذا للمسلمين جميعاً إلا أنه خصّ أُولي الأمر منهم فهم أحقّ بغيرهم في هذا، وأكثر مسؤوليةً في ذلك.

ولو أردنا أن نتحدّث في كل الجوانب التي اهتمّ فيها الإسلام بالإنسان لطال الموضوع ولاحتاج الأمر إلى مجلدات، وليس هذا بحثنا الآن، وإنّما لإعطاء فكرةٍ عامةٍ، وهي تقودنا إلى:

١" ـ أن الحضارة الإسلامية حضارة إنسانية، وهي تختلف عن غيرها من الحضارات المادية اختلافاً بيّناً، ولا تعدّها حضاراتٍ وإنما علوم وفنون.

٢" ـ أن الحضارة الإسلامية حضارة قائمة بذاتها نبعت من العقيدة الإسلامية لذا فهي تختلف تمام الاختلاف عمّا سبقها من بناءٍ وعلومٍ وفنونٍ، ولم تستفد مما حدث قبلها إلا بأمورٍ جزئيةٍ لا وزن لها، على عكس ما يُردّده الأوربيون وتلامذتهم من المستغربين والمستشرقين من أن الحضارة

الإسلامية قد أخذت ممّا كان عند الإغريق والرومان وسكان الشرق الأقدمين من علومٍ، وترجمت كتاباتهم، وأضافت إليها بعض البحوث، ثم أوصلت ذلك إلى الأوربيين الذين قد أخذوا تلك الحضارة عن المسلمين، فهم قد ساروا على نهج أسلافهم القدامى، ولم يكن للمسلمين من فضلٍ سوى أنّهم قد أوصلوا للأوربيين حضارة أسلافهم ونقلوها إليهم، وحتى أصبح يرى بعض الأوربيين أنه من الأفضل العودة إلى حضارات الإغريق والرومان القديمة دون النظر إلى ما قدّمة المسلمون وذلك في سبيل دعم رأيه، والبرهان على صحة قوله.

إن الحضارة الإسلامية تنبع من نظرة الإنسان للحياة، ومُهمّته فيها، وما يُحقّق للنفس من سموٍّ، وما يُؤمّن للمجتمع من سعادةٍ ورفاه على حين أن بقية الحضارات مادية بعامة تأتي من نظرة الإنسان المادية، وما يُحقّق فيها لنفسه من ترفٍ وما يتمتّع فيها من ملذاتٍ وما يُحقّق من شهواتٍ وشهوةٍ وبناء عزٍ.

٣" ـ أن الحضارة الإسلامية قد بلغت أوجها أيّام رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين، رضي الله عنهم، أي من عام ١ ـ ٤١هـ حيث عاش الناس في هذه الأيّام في سعادةٍ تامّةٍ ورخاء، وكانوا كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر البدن بالسهر والحمى، على الرغم من عدم وجود الآثار عن تلك المدة، وعدم وجود التآليف والدراسات والبحوث والترجمة التي يُوليها الماديون المكانة الأولى، لأن المسلمين الذين عاشوا في تلك المدة كانوا يهتمّون في جوانب أسمى وأعلى بكثير من هذا كلّه حيث كانوا يُولون التربية كل اهتمامهم إذ هي البناء الأول الذي تقوم عليه الحضارة وأنه لا سعادة للمرء إن لم تكن له حرية، ولم يشعر بالرخاء إن لم يكن على صلةٍ حسنةٍ بأفراد مجتمعه الذين يعيشون معه، وإن الدراسات والبحوث إنما هي ثمرة ذلك الصرح المجيد الذي شاده المسلمون الأوائل، ولو لم يبنوا صرحه من قبل لما حدث ذلك العلم والتطوّر فيما بعد، فالعلوم والفنون إنما هي ثمرة الحضارة وليست هي

الحضارة بالذات، فالبناء له غاية يجب أن يُؤدّيها سواء أكان خيمةً في بادية أم بيتاً في قريةٍ أم قصراً مُنيفاً في مدينةٍ، أما ما يُفرش فيه من أثاثٍ وما يُعرض فيه من زينةٍ فهذا أمر آخر وليس الأثاث والزينة هما البناء أو يُؤدّيان مُهمّته، وكذا العلم والفن وغيره. . .، ولذا الحضارة لها غاية إنسانية ترتبط بسعادة الإنسان، أما الجوانب الفنية فأمور أخرى، فالقنبلة الذرية كانت نتيجة علم عظيم، ولكن لا تدلّ على حضارة إلاّ إذا استُخدمت لخدمة البشر، أمّا إذا استخدمت لهلاك الإنسانية فهي عنصر هدّام. . . ولو قلنا لسكان مدينة (هيروشيما) في اليابان ـ وهي المدينة التي أُلقيت عليها القنبلة الذرية في الحرب العالمية الثانية. . . لو قلنا لهم: إن القنبلة الذرية كانت نتيجة الحضارة لأنكروا ذلك علينا لأنهم ذاقوا منها الويلات.

ويحرص الغربيون والماديون عامّةً أن يقولوا: إن الحضارة الإسلامية كانت في أوجها في القرن الرابع الهجري في العصر العباسي للتأكيد على الجانب المادي والفني إذ وُجد الغناء والموسيقى، والغزل بالمؤنث والمذكر على حدٍ سواء، وتسلّط الجند على الشعب، وعادت العصبية تذر قرنها من جديدٍ، وفي الوقت نفسه قامت الأبنية، وشيدت القصور، وظهرت الدراسات، وعلوم الحديث والفقه، والتاريخ والجغرافيا، وحدثت الترجمات. . . وكلّ هذا التأكيد على هذه المدة إنما هو في سبيل إعطاء الحضارة الإسلامية الصفة المادية وترك الجانب الروحي الذي حرص عليه الإسلام وعدم الاهتمام بالنفس البشرية التي أولاها الإسلام الجانب الأول، ومن ناحية أخرى إنما هو إعطاء الحضارة الإسلامية الجوانب التي لا يقرّها الإسلام من غزلٍ وموسيقى وغناءٍ وجورٍ واستبدادٍ، ومحاولة إلصاق هذه الأمور بالإسلام عن مكرٍ وتخطيط.

٤" ـ أن الصروح التي شادها القدماء أو المتأخرون من أبنيةٍ وقصورٍ، وهياكل وأهراماتٍ، ومعابد ومسارح، وبقيت شامخةً على مدى قرونٍ طويلةً لا ينظر إليها المسلمون على أنها حضارات لأنها لم تُشد لخدمةِ البشر وسعادتهم، وإنما قامت على أعمال السخرة، وإرهاق الناس، وتكليفهم ما

لا يطيقون، فكم من فردٍ لقي مصرعه من أجل بناءٍ لسيّدٍ، أو أصابته ضربة وقت عمله وهيكلاً أو تمثالاً فبقي مرمياً في كوخه حتى جاءته المنية دون أن يلتفت إليه أحد، وإنما يعدّون هذا فنًا من الفنون القائمة، فالحضارة مهما كانت ثمارها لا تُعدّ حضارةً إلا إذا كانت تكرّم الإنسان، وتُنزله المنزلة اللائقة به والتي أرادها الله له، وكانت تخدم الإنسانية، أما إذا استبدّت بالإنسان، واستعبدته وأذلّته فهي من آثار الظلم والطغيان، وإنّ الظلم لهو الكفر، والثمار إن لم تكن لذيذةً لا يأكلها الإنسان مهما حلا شكلها، وكبر حجمها، وبدا جمالها، ولا تعدّ حينئذاك بين الفواكه، ولا تخدم الإنسان.

[١٨] الجهاد

الجهاد فريضة من فرائض الإسلام، قائمة إلى يوم الدين، وعلى المسلمين أن يقوموا بها كي يُؤدّوا دورهم الذي أنيط بهم منذ أن استخلف الله الإنسان في الأرض، ولا يتوقّف الجهاد إلا أن يعمّ الإسلام الأرض، ويسود السلام والأمن والطمأنينة، أو تنتهي الحياة، وهو أعلى مراتب الأعمال حيث يقول ﷺ: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد». ويقول: «من اغبرّت قدماه في سبيل الله حرّمه الله على النار»، ويقول: «عينان لا تمسّهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله»، ويقول: «حرس ليلةٍ في سبيل الله أفضل من ألف ليلةٍ يُقام ليلها ويُصام نهارها». وأحاديث أخرى كثيرة تدلّ على مرتبة الجهاد، وغاية الجهاد:

١ ـ أن يُعبد الله في الأرض، ولا يُشرك به شيئاً، ومن هنا كان قتال الكافرين أمراً واجباً ما داموا لم يعبدوا الله وحده، يقول تعالى: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾[١] وبهذا فالجهاد قائم حتى يزول الشرك من على وجه الأرض. أمّا أهل الكتاب إذا كانوا على عقيدة كتابهم قبل أن يحرّفوها، والمجوس يعبدون الله ولا يشركون به فإنه يمنع قتالهم على شرط أن يدفعوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون، وأن يقوموا بالشروط التي يطلبها منهم المسلمون، منها ألاّ يدلّوا على عورات المسلمين، وألاّ يُساعدوا الأعداء،

---

(١) سورة التوبة: الآية ٥.

وألاّ يدخل أحد من خصوم المسلمين إلى بيوتهم إلا بعلم المسلمين، وألاّ يُجاهروا بتعاطي ما هو محرّم على المسلمين كالخمر وغيرها وشروط حدّدها الفقهاء، فهؤلاء لا يُكرهوا على ترك دينهم، وهم في ذمّة المسلمين وحمايتهم يقول تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾[1]، وهنا يكون عدم الإكراه في الدين ما دام الذين يعيشون في المجتمع الإسلامي يُؤمنون بالله، ولا يُشركون به، أمّا إن وجد مشركون فيكرهوا حتى يختاروا الإسلام أو ديانة أهل الكتاب أو الجلاء.

٢ ـ أن يُمنع الظلم من الأرض بكل صوره وأشكاله، وعلى المسلمين أن يُقاتلوا الظالمين ويُجاهدوهم أينما كانوا يقول الله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾[2].

٣ ـ أن يُمنع الوقوف في وجه الدعوة فالذين يحرصون على عدم انتشار الإسلام، ويحولون بينه وبين وصوله إلى رعاياهم يُقاتلون ويُجاهَدون.. فإذا سمح لها، وعرفها الناس، وقارنوا بينها وبين ما هم عليه، يسمح لهم عندها باختيار العقيدة التي يُريدون ولا إكراه في الدين بشرط أن يكونوا من أهل الكِتاب ومن يلحق بهم كالمجوس ـ كما ذكرنا ـ أو يُسلموا.

٤ ـ أن يُحافظ على المسلمين من أن يعبث بعضهم بالدين فيمتنعون عن تأدية الزكاة مثلاً أو بعض شرائعه، وقد قاتل أبو بكر الصدّيق، رضي الله عنه، الذين امتنعوا عن دفع الزكاة، فعندما قيل له: كيف نُقاتل

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥٦.

(٢) سورة النساء: الآيتان ٧٥، ٧٦.

الناس. . . .؟ وقد قال رسول الله ﷺ: «أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإن قالوها عصموا مني، دماءهم وأموالهم إلا بحقّها وحسابهم على الله»، فقال أبو بكرٍ، رضي الله عنه: «إن الزكاة من حقها، والله لو منعوني عناقاً[1] كانوا يُؤدّونها لرسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها».

٥ ـ أن يُحافظ على المسلمين بمجاهدة أهل الكتاب والمجوس حتى يُسلموا أو يدفعوا الجزية، وعندها لا يمكنهم مساعدة المشركين والإرشاد إلى عورات المسلمين.

وفي كل هذه الحالات يكون الجهاد فرض كفاية، إذا قام به بعضهم واستطاعوا تحقيق النصر والظهور على الأعداء، فقد أدّوا المُهمّة، وقاموا بالمسؤولية، وفي ذلك كفاية، أمّا إذا لم يستطع الانتصار من نفر للجهاد، أو تغلّب الأعداء عليهم، أو اعتُدي على ديار المسلمين أصبح الجهاد عندها فرض عينٍ وعلى كلّ مُستطيع أن ينفر في سبيل الله حتى يتحقّق للمسلمين النصر.

هذه غاية الجهاد التي يجب على المسلمين أن يعملوا لها في كلّ وقتٍ أينما وجدوا، ولن يتوقّف الجهاد أبداً ما دام أحد هذه الجوانب التي ذكرناها قائماً، وحتى يكون في سبيل الله يجب ألا تكون هناك غاية أخرى فإن الله سبحانه وتعالى لا يقبل من الأعمال إلاّ ما كان خالصاً له، فليس هناك من جهادٍ من أجل ترابٍ أو عصبية أو مُباهاة، وعندما سئل رسول الله ﷺ أيهم في سبيل الله، الرجل يُقاتل شجاعةً أم يقاتل حميةً أم يقاتل رياءً قال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله».

وإلى جانب شرط العمل لإعلاء كلمة الله فهناك شرط آخر، وهو أن الجهاد لا يكون إلاّ من المسلمين المؤمنين يقول سبحانه وتعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي

---

(١) العناق: الأنثى من ولد الماعز ما لم يتمّ له سنة.

سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾[1]. ويقول سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾[2]. فالخطاب للمؤمنين، الذين يُؤمنون بهذا القرآن، ويُؤمنون بالله وحده ولا يُشركون به.

وبهذا فلا يُقبل الجهاد إلاّ من مسلم، فإذا اضطر المسلمون للاستعانة بغيرهم لظرفٍ من الظروف أو سببٍ من الأسباب، فإن قتالهم لا يُعدّ جهاداً ما داموا لا يُؤمنون بذلك، وما قاتلوا في سبيل الله، وإنما كان قتالهم لما بينهم وبين المسلمين من مصالح، كما أن قتلاهم لا نقول عنهم أنهم شهداء، إذ أنّ الشهادة خاصة بالمسلمين المؤمنين، وما داموا بالأصل لا يُؤمنون، ولا يعتقدون بهذا، فهم ليسوا شهداء. وأما ما ورد من أحاديث في هذا الشأن «من مات دون عرضه فهو شيهد» و«من مات دون ماله فهو شهيد» و«من مات دون أرضه فهو شهيد» فالشرط أن يكون مُؤمناً صادقاً، وليس أيّ إنسانٍ قاتل، ومات عُدّ شهيداً، فلو أن وثنياً قاتل معتدين فهل نستطيع أن نعدّه شهيداً وهو لا يؤمن بالله ولا يعتقد بالشهادة ولا بما يمتّ إليها من صلة؟

هذا هو الجهاد في الإسلام: غاياته، وشروطه، ونتائجه ولقد قام المسلمون بالجهاد ففُتحت أمامهم الدنيا، وتذوقت الشعوب طعم الحياة، وتفيأت في ظلال السلام، وعرفت الرخاء والطمأنينة. ثم أهمل المسلمون الجهاد، وتقاعسوا، فغزتهم الأمم، واحتلّت ديارهم، وأذلّتهم، ونشأت عندهم الروح الانهزامية.

---

(١) سورة التوبة: الآية ١١١.

(٢) سورة الصف: الآيات ١٠ ـ ١٣.

لقد هُزم المسلمون في بداية الأمر، واحتلت أراضيهم، ولكن استمروا يشعرون بالاستعلاء على عدوّهم، وأنّهم هم الأعلون ما داموا مسلمين، وتوثّبت هذه الروح وظهرت المقاومة، وارتفعت راية الجهاد، فكُتب لهم النصر بإذن الله، وطردوا الصليبيين من ديارهم، واستعادوا قُدسهم وديارهم.

وهُزم المسلمون ثانيةً أمام المغول إلا أنّ شعورهم ما زال أنهم هم الأعلون ولا بُدّ أنهم منتصرون، فكانت النتيجة أن أسلم المغول، وأصبحوا دعاةً للإسلام، وذابوا في المجتمع الذي يعيشون فيه، ولكنهم في المكان الذي كانوا فيه أكثريةً ملؤوا الأرض التي كانت قليلة السكان، فقد عاشوا هم الدعاة حتى في هذا اليوم الذي سيطرت فيه الشيوعية على أراضيهم، ومن قبلها القيصرية.

أما الهزيمة الثالثة فقد كانت غير ما سبقها، لقد شعر المسلمون بالضعف أمام أعدائهم وأحسّوا أنهم دونهم، وهذه هي الهزيمة. قد يُهزم الجيش في معركةٍ ولكن تبقى عنده إمكانية القِتال، ويخسر في جولة ولكن عنده الإمكانية للاستعداد والدخول في جولةٍ ثانيةٍ، أما إذا انهارت معنوياته، وشعر بالضعف والذلّ فقد حكم على نفسه بالسقوط، وحكم على أمته بالرزوح تحت نير الخصم، هذا ما حدث بالنسبة إلى أمتنا في هذه المعركة الأخيرة، ومن أول الخسران إضاعة الجهاد، ثم قبول النصارى واليهود والمرتدين في عداد قواتهم، ثم ظهور آراءٍ انهزاميةٍ في هذه الموضوعات طبعت المعركة بطابعها، وصبغت النفوس بصبغتها، وتكفي كلمة انهزامية لتعطي صورة واقعنا.

لقد شعر المسلمون في الآونة الأخيرة بالضعف أمام الأجانب، وأنهم دونهم بالقوة، ودونهم في العلم، ودونهم في الحضارة، وأنّهم بحاجةٍ إلى السير على خُطاهم ليلحقوا بهم، وليتقدّموا في مضمار العلم، وليطوّروا بلادهم - حسب زعمهم - هذه الانهزامية هي التي جرّت علينا الويل والنكبات، نعم قد نكون في العلم دونهم ولكن ليست هذه السبيل للتطوّر، وإنّما الأخذ من مناهل العلم دون أن نقلّدهم في حياتهم الاجتماعية التي

تختلف تمام الاختلاف عن حياتنا الاجتماعية المنبثقة من عقيدتنا، ودون شعورنا بالنقص أمامهم.

لقد بدأت حياتنا بتقليد أعدائنا في الزيّ واللباس، والسير على طريقتهم في السهرات والاختلاط والحفلات، مع تبريرنا بأن هذه من الجزئيات لا تتعارض مع الإسلام، ومع الأسف أن هذه الأحكام تصدر دائماً عن الجهلة وأصحاب المصالح من أهل السوء وأحياناً من جماعات يقولون باسم السياسة أو التقية، المهم إظهاراً للضعف واعترافاً به، والمشكلة أنه أحياناً يكون هذا من خلف أجهزة الإعلام التي لا يطالها غيرهم.

وأشاع الأعداء أن الإسلام قد انتشر بالسيف، وأنّه لولا القوة والإكراه لما انتشر الإسلام بهذه الصورة الواسعة. وحاول الانهزاميون الردّ بأن الإسلام لم ينتشر بالسيف، وأنه لا إكراه في الدين، وما استعملت القوة إلاّ كردّ فعلٍ، وللمحافظة على الاستقلال، والهجوم على أنّه أحسن وسائل الدفاع للبقاء على الهيبة.

ونقول: إن الدعوة الإسلامية لا بدّ لها من قوةٍ تحميها، وتحول دون منع انتشارها وتعرّف الناس عليها، وهذه القوة هي الجهاد في سبيل الله، وإن كلّ حقٍّ لا بدّ له من قوةٍ تحميه وإلا طغى الباطل واستشرى.

وحاول الانهزاميون إرضاء ساداتهم بقبول أبناء عقيدة السادة من النصارى بالجيش والقوات المسلحة، ولم يكن يُقبل منهم الانخراط في صفوف الجيش على أنه يحمل لواء الجهاد، وحاول الانهزاميون تبرير مواقفهم بأن الجزية كانت تُؤخذ من أهل الذمّة لقاء الدفاع عنهم، فإذا وافقوا على الدفاع عن أنفسهم ومساعدتنا في الدفاع عن الأرض، فإن هذا مقبول منهم، وليس عليهم من جزية.

ونقول: إن هذا الأمر غير صحيح، وإن الجزية شيء والبدل العسكري شيء آخر، ولا يصحّ قبول اليهود والنصارى والمرتدّين في

القوات المسلحة للبلدان الإسلامية ونحن نُواجه أبناء عقيدتهم ونُجاهدهم ويُقاتلوننا بكلّ الأساليب.

ونختم القول أو نلخصه بما يلي:

١" ـ إن الجهاد في سبيل الله قائم إلى يوم الدين، وعندما يستعيد المسلمون مركزهم ـ إن شاء الله ـ لا بُدّ لهم من رفع لواء الجهاد للمحافظة على الدعوة، وانتشارها في الخارج، وحمايتها في الداخل أيضاً من المُنحرفين.

٢" ـ إنّ الجهاد في سبيل الله خاص بالمؤمنين. ولا يُستعان بالكفّار ضدّ الكفّار إلاّ بشرطٍ، ومن هنا لا يقبل المسلمون قتال أهل الكتاب والمرتدّين والمنحرفين من المسلمين معهم، ولا بدّ من تطبيق الأحكام عليهم.

٣" ـ إنّ الذين يُقتلون في الحروب الدائرة اليوم لا يُعدّ منهم شهيداً إلا من كان مُؤمناً، وكانت غايته إعلاء كلمة الله ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾[1].

(١) سورة الحج: الآيتان ٤٠، ٤١.

[١٩] النصر

لا بُدّ للحق من قوةٍ تدعمه كي ينطلق وإلاّ حاول أهل الباطل كبته حتّى لا يظهر، ولا بُدّ للدعوة من قوةٍ تحميها وتأخذ طريقها إلى الناس، والصراع بين الحقّ والباطل قديم، ويجتمع أهل الباطل ويتعاونون ضدّ الحقّ وأهله، ويبدو الحق بمقدار ما لحامله من قوةٍ، والخلاف بين الدعاة إلى الله وخصومهم قديم أيضاً، ويلتقي أصحاب المصالح، والأهواء، والشهوات، والنفوذ في وجه الدعوة، لأنّ في نجاحها ضياعاً لمصالحهم ولما يسعى وراءه كلّ أهل الفساد.

بُعث رسول الله ﷺ، فدعا قومه، فآمن من لم تكن له مصالح ومطامع، ومن لم تكن له شهوات ورغبات جامحة، ووقفت في وجهه أكثرية قريشٍ من أصحاب النفوذ الذين يملكون الإماء والعبيد، ويخشون على سلطانهم من الزوال، لأنّ الإسلام يحول دون تسلّط العباد على العباد، ووقف في وجه الدعوة أصحاب الثراء الذين يظلمون الناس لأنّ الدعوة إلى الله تحول دون الظلم، وتمنع استغلال بعضهم لبعض، ووقف في وجه الإسلام أصحاب الشهوات الذين يهتكون أعراض الناس بما يملكون من جاهٍ أو ثراء أو قوة، وقد فهموا منذ أن وصلت إليهم دعوة الإسلام أنها لا تسمح أن يتمرّغ الناس في أعراض بعضهم بعضاً. ولم تكتف أكثرية قريشٍ وقادتها بأن وقفت ضدّ الدعوة وإنما عدت على رجالها تُعذّب من استطاعت، وتسخر وتستهزئ، وتُقاطِع، لتفتن المؤمنين عن دينهم، ولم يكن للمسلمين إلاّ التذرّع بالصبر على الأذى الجسمي، والحرب الاقتصادية، والنفسية، والمعنوية، حتى يتكامل الاستعداد الإسلامي ويأتي أمر الله.

لم يكن باستطاعة الدعوة في مكّة القتال أو المقاومة لأنها لو فعلت ذلك لخسرت المعركة إذ لم يكن أبناؤها بعد قد تربوا التربية الكاملة، فكيف يخوضون معركةً ولم يُهيئوا نفسياً ومعنوياً تهيئةً تامّةً تمكّنهم من النصر!

وربما أدّت المقاومة إلى القضاء على الدعوة نهائياً، وعمل رسول الله ﷺ، ليجد مكاناً أميناً للدعوة يحمي رجالها من أذى قريش، ويُقيم منهج الله في الأرض، ويستعدّ لنشر الدعوة بحيث يكون ذلك المكان مركز الإشعاع أو نقطة الانطلاق، ويمكن وقتئذ الاستعداد لمقاومة كُلّ من يقف في طريق الإسلام. انتقل إلى الطائف فرُدّ، وعرض نفسه على القبائل فَصُدّ تحت تأثير قريشٍ. وأخيراً هيّأ الله له المدينة فوجّه أصحابه نحوها ثم اتجّه إليها مُهاجراً، وهناك أسس الدولة الإسلامية الأولى، وبدأ يُثبّت دعائمها، ويُقيم أركانها، ولابُدّ من أن تصطدم مع قريشٍ عندما تُريد أن تنطلق، لذا يجب الاستعداد لتأمين النصر عند اللقاء بين مكّة والمدينة وهو لا بدّ واقع، ثم عند اللقاء بين المسلمين وقواعد الشرك والظلم القائمة في كلّ مكانٍ على وجه الأرض والتي ستقف أيضاً أمام انطلاق الإسلام وانتشاره للحدّ من توسعه، ومحاولة كبته في مهده، وهو لا بدّ واقع أيضاً.

إن النصر يتوقّف على نقاطٍ رئيسيَّةٍ أربع: الاستعداد، والإخلاص، العمل والتقوى، وطلب النصر من الله، وإغفال جانب من هذه الجوانب قد يُفقد النصر، ويذهب بالأجر. وأُولى هذه النقاط الاستعداد التام مادياً، ومعنوياً، مادياً بكل السلاح المعروف بيد البشر يوم المعركة، وبكل أنواع الأساليب المبتكرة يوم المعركة وبكل الإمكانات والطاقات المتوفرة بشرياً من حيث أعداد الجند، وتموينياً من حيث الغذاء، ومعنوياً من حيث معرفة الهدف من القتال ونتائجه وإلقاء الحماسة في نفوس المقاتلين وليس هناك من جندٍ على وجه الأرض أكثر معنويةً من المسلمين الذين يعتقدون أن القتل شهادة في سبيل الله جزاؤها جنّة عرضها السماوات والأرض خالدين فيها، وأن البقاء نصر على الأعداء وتحقيق لمنهج الله في الأرض، وهذه

المعنوية المرتفعة لدى المسلمين يُقابلها ضعف في معنوية الأَعداء، ورهبة في نفوسهم مما يُؤدّي إلى هزيمتهم. قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾[١].

إنّ النصر للمسلمين لا يتمّ لأنهم مسلمون، فالإسلام دين لا ينتصر بالمعجزات، وإن وقعت، ولا بالتأييد فقط، وإن كان يحدث، وإنما على أيدي البشر وبالاستعداد كما يستعدّ كلّ بني البشر. يقول تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾[٢]، فنصر الله قد تمّ بعد الاستعداد الكامل، وبعد التهيئة التامة، وبعد الاتكال على الله. لقد قاتلت الملائكة يوم بدر مع المسلمين، وأعطتهم المعنويات الكاملة للمعارك القادمة، وقيل: إنها قاتلت في حُنين، وأُحد أيضاً، ولكنها لم تُقاتل بعد ذلك، ومع ذلك فقد انتصر المسلمون في أكثر معاركهم الأولى لأنهم استعدوا بما أُمروا به، وقاتلوا حسبما أُمروا، وتوكّلوا على الله فجاءهم نصر الله. إن الله قادر على أن يُرسل ملكاً واحداً يُزلزل الأرض تحت أقدام أعداء الإسلام، ويخسفها بهم إن أُمر، أو يُطبقها عليهم إن طُلب منه، ومع هذا فقد أنزل آلاف الملائكة تُقاتل مع المسلمين. يقول تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾[٣]. وزيادة عدد الملائكة للبشرى لا لزيادة القوة فإن القوة حاصلة من ملكٍ واحدٍ بل من أمرٍ من الله أو إشارةٍ. وليعلم المؤمنون أن النصر لم يتمّ بالمعجزة، لأنّه لو

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٦٠.

(٢) سورة الأنفال: الآية ٦٢.

(٣) سورة آل عمران: الآيات ١٢٤ ـ ١٢٦.

كان ملك واحد لظهرت المعجزة، وقد باشر الملائكة القتال بالفعل. ومع وجود الملائكة فإن النصر لا يكون إلاّ من الله ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝﴾[1]. فالنصر من عند الله وما الاستعداد إلاّ من باب اتخاذ الأسباب، وتقديم المسلمين كافة إمكاناتهم وطاقاتهم، وأنّ تأييد الله يكون بعد استعداد المسلمين واتِّخاذ الأسباب لا مباشرةً وتأييد الله هو النصر. والتأييد للمؤمنين. يقول تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ۝﴾[2]. ونستطيع أن نقول: إنّ نصر المسلمين لم يكن في يوم من الأيام بالعدد وكثرة الرجال، ولا بالعتاد ونوع السلاح، وإنما بالإيمان والإخلاص وتأييد الله، وهذا ما كان يقوله صحابة رسول الله ﷺ، في كثيرٍ من المناسبات، ولنستمع إلى عبد الله بن رواحة، رضي الله عنه، يُشجّع المسلمين قبل غزوة مؤتة بعد أن بلغهم أنّ الروم قد نزلوا بقيادة هرقل منطقة مؤاب، من أرض البلقاء، في مائة ألفٍ من الروم، وانضمّ إليهم من العرب المتنصرة من لخم، وجذام، وبهراء، وبليّ، والقين مائة ألفٍ، فأصبح عدد الأعداء مائتي ألف على حين أن المسلمين لم يزد عددهم على ثلاثة آلاف، وقف عبد الله بن رواحة يُخاطب المسلمين قائلاً: «يا قوم، والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون: الشهادة، ولا نُقاتل الناس بعددٍ ولا قوةٍ ولا كثرةٍ، ما نقابلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين: إمّا ظهور وإما شهادة». فقال الناس: قد والله صدق ابن رواحة. فمضى الناس.

---

(١) سورة الأنفال: الآيتان ٩، ١٠.

(٢) سورة الأنفال: الآيات ١٢ ـ ١٤.

والنصر من عند الله، وهذه حقيقة اعتقادية، حتّى لا يتعلق قلب المسلم بأيّ سبب من الأسباب، عليه أن يستعدّ، وعليه أن يعمل ولكن لا يمكنه تحقيق النصر لأنه هو أصلاً من عند الله، لا بيد البشر الذين ليس عليهم إلاّ اتخاذ الأسباب.

أما النقطة الثانية فهي الإخلاص لله سبحانه وتعالى: فالقتال يجب أن يكون لجعل كلمة الله هي العليا. لا لسبب آخر من أسباب الدنيا، وذلك كي يحصل على النصر أو يكون له أجر الشهادة، فقد روى أبو موسى، رضي الله عنه، قال: جاء رجل إلى النبيّ ﷺ، فقال: الرجل يُقاتل للمغنم، والرجل يُقاتل للذكر، والرجل يقاتل ليُرى مكانه، فمن في سبيل الله؟ قال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»[1]. فلا يُقاتل المسلم لتثبيت أركان حكم زعيم، أو سلطان، أو حزبٍ، أو طبقة، أو جنسٍ، أو دولةٍ، أو إحلال فردٍ مكان فردٍ، أو زعيم بدل زعيم، أو لسيطرة حزبٍ دون آخر. أو إزالة نظامٍ جاهلي واستبداله بنظام جاهلي آخر، ولكنه يُقاتل لإزالة الظلم من كلّ مكانٍ من سطح الأرض، وتقويض حكم الطواغيت من كل مكانٍ، وإنهاء كل نظامٍ جاهليٍ أينما وجد، والأرض كلها ميدان عمل المسلم.

لا يُقاتل المسلم ليُسيطر على أرض فيستغلّ أرضها، ويستخرج ثرواتها، وينهب خيراتها، ويُسخّر أبناءها لخدمته، ويجعلها سوقاً لبضائعه ومكاناً لبيع صناعاته، وإنهما يُقاتل ليُحرّر الإنسان من عبودية العبيد، وعبودية المال، وعبودية الشهوة، وعبودية حب الاستغلال.

لا يُقاتل المسلم لفرض مذهبٍ من المذاهب البشرية الوضعية سواء أكان رأسمالياً أم شيوعياً، اقتصادياً، واجتماعياً، ولكن يُقاتل لتطبيق منهج الله في الأرض ولتقرير ألوهية الله وحده، وإن المسلم الذي تكون هذه نيته، وتكون هذه

---

(١) أخرجه البخاري في باب الجهاد، ومسلم في الإمارة، والترمذي في فضائل الجهاد، وابن ماجه في الجهاد، وأحمد.

فكرته يستحقّ الحصول على النصر من الله والتأييد، وإذا قُتل نال أجر الشهيد.

أما النقطة الثالثة فهي العمل والتقوى حيث لا يكفي المسلم الاستعداد، لأنّ هذا يفعله المؤمن والكافر، وكلّ مقاتل، كما لا تكفي النيّة والفكر لكن لا بدّ من العمل فالإيمان مجرد من العمل لا فائدة فيه، وإن كان يختلف عن الكفر، ولكنّه لا يُعدّ إيماناً راسخاً، فلو كان سليماً لآمنت الجوارح، وصدّق العمل ما آمن به القلب، فأدّى كلّ ما أمر الله به، وهجر كل ما نهى عنه، وخشي الله في السرّ والعلن. عند هذا يكون المسلم مُؤمناً حقّاً، وإذا كان المسلمون كذلك استحقّوا نصر الله، لأنهم نصروا الله بأدائهم ما عليهم من واجبات تجاه خالقهم. يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ٧﴾[1]، فإن نصر الله مشروط بنصر المؤمنين الله في نفوسهم، وإذا جاء النصر، واستمر أهله على إيمانهم بعد تحقيق النصر يحميهم الله أيضاً من الزيغ والانحراف والترف، ويُمكّن لهم في الأرض.

إذا استعدّ المسلمون، وأخلصلوا النيّة والعمل لله، وأدّوا ما عليهم يُمكنهم بعدها طلب النصر من الله، ومن سنة الله التي لا تتبدّل ولا تتحوّل أن يأتيهم النصر، ورسول الله ﷺ، عندما خرج إلى بدر، وبعد أن سوّى الصفوف رجع إلى العريش فدخله، ومعه فيه أبو بكر الصدّيق، ليس معه فيه غيره، ورسول الله ﷺ يُناشد ربّه ما وعده من النصر، ويقول فيما يقول: «اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تُعبد»، وأبو بكر يقول: يا نبيّ الله: بعض مُناشدتك ربّك، فإنّ الله منجز لك ما وعدك[2]. وجاء نصر الله، وكان يوماً فاصلاً بين الحقّ والباطل. وبهذا انتصر المسلمون في كلّ معاركهم التي خاضوها في أيامهم الأولى. فلمّا توانوا عما أُمروا به انقلبت الموازين، وأصبحت الهزائم سمةً ملاصقة لهم، حتى كاد العامة يفقدون ثقتهم بدينهم، والعياذ بالله...

---

(١) سورة محمد: الآية ٧.

(٢) سيرة ابن هشام.

[٢٠] مهمّة المُسلِم

بيّن الإسلام لأبنائه مُهمّتهم في الحياة، فقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾[١]. ولا يفهم من العبادة إقامة الشعائر فقط، فليست مُهمّة المُسلم قضاء أيامه كلّها في أداء الشعائر، وإنما تعني العبادة معنًى أوسع من هذا ويمكن أن نحصره في خمسة جوانب:

١ ـ إقامة الشعائر: عن ابن عمر، رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان»[٢]. بشرط صدق النية والإخلاص لله تعالى، لا لدنيا، ولا لخوفٍ، ولا لأيّ سببٍ من الأسباب، عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما الأعمال بالنيّات وإنما لكل امرئٍ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يُصيبها أو امرأةٍ ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»[٣]. وبشرط عدم ارتكاب الكبائر كقطع الرحم، وعقوق الوالدين، والزنا، والشرك، وشهادة الزور، والقتل بغير حقّ، والسحر، وأكل الربا، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات، وأكل مال اليتيم، والتوليّ يوم الزحف و. . . مما تحدّث عنه رسول الله ﷺ.

---

(١) سورة الذاريات: الآيات ٥٦ ـ ٥٨.

(٢) متفق عليه.

(٣) أخرجه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وأحمد.

٢" ـ الإيمان الكامل بما أنزل الله وبما صحّ عن رسول الله ﷺ، إذ لا يُقبل قول ولا عمل من غير إيمان. والتسليم التّام بما جاء من دون تأويلٍ بغير ضرورةٍ، والاعتقاد بما جاء تماماً فليس هناك شيء مخفي، وليس من ظاهر وباطن فكل أمرٍ على حقيقته، وكل آيةٍ كما نزلت، وكل حديثٍ كما تكلّم به رسول الله ﷺ، وقد استغلّ أعداء الإسلام مثل هذا الكلام فادّعوا التأويل، وأن هناك ظاهر وباطن، وحقيقة وشريعة وهذا كلّه كفر صريح، وقد قامت الفرق الباطنية على هذا تحت تأثير أعداء الإسلام وما بثّوه بين المسلمين من هذا الكلام، كما استغلّ ذلك الدجّالون والمشعوذون لتحقيق أغراضهم، وكان لهذا خطره على الإسلام سواء أكان على عقيدة أبنائه المغفّلين أم في الهجوم على الدين نفسه.

٣" ـ إعمار الأرض لتحقيق الخلافة فيها، ويقضي ذلك القيام بنشاطٍ واسع لاستثمار الخيرات، واستخراج ما تحويه الأرض، والارتقاء بالحياة علماً، ونشاطاً، وابتكاراً، والسعي لتحصيل ذلك، وعندما يتمّ علم، أو يحدث ابتكار خارج حدود ديار الإسلام فمن واجب المسلمين العمل على تحصيله بالقدر الذي يكفيهم، ويسدّ حاجاتهم لنشره، وتحقيقه بينهم، ويُعدّ ذلك فرض عين عليهم، وإن لم يفعلوا يقع الإثم على جميع من يقدر على ذلك أو من بيده الأمر.

وإن التكاسل في الإعمار والسعي لذلك، والزهد فيه أمر خطير لأنه مخالف لأمر الله في إعمار الأرض، واستخلاف البشر له، كما فيه إضعاف لقوة المسلمين وإنتاجهم، وقد شجّع أعداء الإسلام الزهد، وأشاعوا صحة ذلك أسوة بأولئك الذين اعتزلوا الفتن أيّام وقوعها، ومن وراء الزهد انتشرت الصوفية التي اختلط بعضها بأفكار الباطنية فتلاحمت معها، وكانت بين زاهدٍ متكاسلٍ، وجاهلٍ متقاعس لا يدري أحدهما أين يسير؟ ولا يعلم كيف يُوجّه؟ وبين عدو ماكر يخطّط لهدم الإسلام وبين عبدٍ للشهوة يصرعه الجنس فيجري وراءه، أو عبدٍ للمادة يستعبده المال فيسير خلفه، ومن هنا دخلت الإباحية إلى بعض الصوفية، وجمّلت فكرة الخدمة باسم التعاون، ومن هذا انطلقت الصوفية.

وإن أعداء الإسلام قد خطّطوا لتفجير الإسلام من الداخل بالفرق الباطنية، والتي فرزت الصوفية بطريقة من الطرق، أو دخلت فيها ووجهّت إليها، وإن ما في أقوال بعض زعماء الصوفيين ما يُشير إلى الأصل، وفي بعض تصرفاتهم ما يدلّ على الربط بين الفئتين.

٤" ـ تطبيق منهج الله في الأرض بإقامة الحكم على أسسٍ إسلامية، وإقامة الحدود، واستنباط السبل الاقتصادية، والاجتماعية، والإدارية من المنهج الإسلامي والقواعد الأساسية له.

٥" ـ الجهاد في سبيل الله لمنع الظلم واستعباد الناس، والانغماس في المفاسد والشهوات، ولتطبيق منهج الله.

فمن قام بهذه المُهمّة وأدّاها فقد حقّق غاية وجوده، ومن قصّر بها أو نكل عنها فقد أبطل غاية وجوده، وغدت حياته فارغةً من القصد، وخالية من المعنى الذي تستمدّ منه قيمتها الأولى وبالتالي فقدت القيمة، وأصبحت أقرب إلى الحياة البهيمية، غايتها الطعام، والشراب، والتناسل، وتحقيق الرغبات ولو كان فيها الفساد في الأرض.

ومن واجب المسلم إبداء الرأي، والنصيحة، والسمع والطاعة، عن تميم الداري قال: قال رسول الله ﷺ: «الدين النصيحة، الدين النصيحة، الدين النصيحة: لله، ولكتابه، ولنبيّه، ولأئمة المسلمين وعامتهم»[١]. وعن جنادة بن أبي أمية قال: دخلنا على عبادة بن الصامت، وهو مريض قال: دعانا النبيّ ﷺ، فبايعنا، فقال ـ فيما أخذ علينا ـ أن بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا، وكرهنا، وعُسرنا، ويُسرنا، وأثرةٍ علينا، وأن لا نُنازع الأمر أهله إلاّ أن تروا كُفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان»[٢]

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان.

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري في الفتن، ومسلم في الإمارة.

[٢١] القيادة

القيادة مركز التوجيه، وموضع التنظيم، وأساس ترتيب الأُمور بعضها إلى بعض، ومحطّ العدل بين الجميع بحيث لا تطغى جماعة على أُخرى، ولا يتسلّط فرد على جماعة، ولا تصهر الجماعة الفرد في بوتقتها فتُذيب شخصيته، وتسحقه بين مسنناتها فتضيع معالمه وآثاره بين أجزائها. والقيادة هي المنظّم الدقيق الذي لا يفسح المجال لأمرٍ أن يزيد على حدّه في وقته المحدّد له فيضيع العاملون في رحابة المكان، ولا تسمح له أن ينكمش عن حجمه الذي خُطّط له فتفشل الخطّة في تحقيق هدفها المرسومة له.

لما كان للجسم البشري الواحد مركز قيادةٍ واحد هو الدماغ الذي يُصدر الأوامر والتعليمات إلى أجزاء الجسم كافةً بإشاراتٍ عن طريق الأعصاب، أو القلب الذي يُوزّع الدم النقيّ إلى أنحاء الجسد كلّها، ويتلقّى ما فسد منه ليُصفّيه، فإن الجماعة البشرية وهي كالكائن الحي لا بُدّ لها من قائدٍ واحدٍ يضبط مسيرتها، ويُوجّه حركتها، ولو تعدّدت القادة لاختل التوازن، وفسد الأمر حتى يُسيطر أحدهما على الآخر أو يطغى، ولما كانت السيطرة غير مقبولةٍ، والطغيان مرفوض فلا بُدّ من اختيار قائدٍ واحدٍ من البداية كي لا يهتزّ الكيان بالطغيان ولا يتعرّض للسيطرة. قال رسول الله ﷺ: «إذا كان ثلاثة في سفرٍ فليؤمّروا أحدهم»(١). هذا إن كان العدد ثلاثة، وهو أدنى عدد الجماعة، وهو أولى إن كانت الجماعة أكثر. والقيادة الجماعية لا تصلح على هذا القياس إلاّ إن كان لها قائد واحد، وعندها لا تكون قيادة جماعية حسب الأعراف القائمة أو ما اصطلحت عليه بعض النظم عندما لا يمكن الاتفاق على قائدٍ واحدٍ.

---

(١) رواه أبو هريرة، وأخرجه أبو داود في باب الجهاد.

ادعت جماعة في مصرٍ من الأمصار تُعلن العمل للإسلام أنها اختارت قيادةً جماعيةً لأنها لم تجد من بينها من يحلّ محلّ أميرها الذي تُوفي ـ رحمه الله ـ وكان الردّ عليها: عندما انتقل رسول الله ﷺ، إلى الرفيق الأعلى لم يكن بين المسلمين من يسدّ مسدّه، ولم يُفكّر المسلمون يومذاك باختيار قيادةٍ جماعيةٍ، بل عندما اقترح بشير بن سعد، رضي الله عنه، يوم سقيفة بني ساعدة منا أمير ومنكم أمير، رُفض هذا الاقتراح ورُدّ، ولم يُنظر فيه لما له من عواقب، وبايع المسلمون أبا بكرٍ الصدّيق، رضي الله عنه، ولما تُوفي أبو بكرٍ، رضي الله عنه، لم يكن بين المسلمين من يحلّ محلّه، ولم يُفكّروا بقيادةٍ جماعيةٍ، بل اختار لهم قبل وفاته عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، خليفةً لهم. ولما طُعن عمر، رضي الله عنه، لم يكن من يقوم مقامه، فاختار للمسلمين ستةً من أصحاب رسول الله ﷺ، الذين تُوفي رسول الله ﷺ، وهو عنهم راضٍ، وطلب منهم أن يختاروا من بينهم خليفةً للمسلمين في مدة ثلاثة أيام لا يتعدّونها، وقال: أمهلوا فإن حدث بي حدث فليصلّ لكم صهيب ثلاث ليالٍ، ثم أجمعوا أمركم، فمن تأمّر منكم على غير مشورةٍ من المسلمين فاضربوا عنقه. وأرسل عمر إلى أبي طلحة الأنصاري(١) قبل أن يموت بساعة فقال: كُن في خمسين من قومك من الأنصار مع هؤلاء النفر أصحاب الشورى فإنهم فيما أحسب سيجتمعون في بيت أحدهم فقم على الباب بأصحابك فلا تترك أحداً يدخل عليهم، ولا تتركهم يمضي اليوم الثالث حتى يُؤمّروا أحدهم وقم على رؤوسهم، فإن

---

(١) أبو طلحة الأنصاري: زيد بن سهل بن الأسود بن حرام بن عمرو من بني النجار من الخزرج. شهد العقبة مع السبعين من الأنصار، وشهد بدراً، وأُحُداً، والخندق، والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وقد آخى رسول الله ﷺ، بينه وبين الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي، وقال ﷺ: صوت أبي طلحة في الجيش خير من ألف رجل. تترّس به رسول الله ﷺ، يوم أُحُد، وكان يرمي بين يدي رسول الله يومذاك. وكان رِدْفَ رسول الله يوم خيبر، وقتل يوم حُنين عشرين رجلاً من الأعداء. توفي عام أربع وثلاثين للهجرة في خلافة عثمان بن عفان في البحر غازياً، وهو ابن سبعين سنة. وأنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ، ربيبه إذ تزوّج أم سليم بنت ملحان بعد وفاة مالك، على مهرٍ اشترطته أم سليم هو إسلام أبي طلحة.

اجتمع خمسة ورضوا رجلاً، وأبى واحد، فاشدخ رأسه بالسيف، وإن اتفق أربعة فرضوا رجلاً منهم، وأبى اثنان، فاضرب رأسيهما، فإن رضي ثلاثة رجلاً منهم وثلاث رجلاً فحكّموا عبد الله بن عمر فأيّ الفريقين حكم له فليختاروا رجلاً منهم، فإن لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف، واقتلوا الباقين إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس، ولا يحضر اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منكم، اللهم أنت خليفتي فيهم. وهذا يدلّ على مدى أهمية القائد الواحد، فإن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وهو الحريص على كل فردٍ من الرعية يمكنه أن يُضحّي بستةٍ ممن يراهم أفضل الخلق يؤمذاك، وأولى الناس بالقيادة، وكلهم من صحابة رسول الله ﷺ، ومن المُبشّرين بالجنّة في سبيل اختيار قائدٍ واحدٍ، ولم يُفكّر في جعل قيادةٍ جماعيةٍ منهم. وتُوفي عثمان بن عفان، رضي الله عنه، وما بين المسلمين من يسدّ مكانه، فبايعوا عليّ بن أبي طالبٍ، رضي الله عنه، ولم يُفكّروا بقيادةٍ جماعيةٍ. وطُعن علي ولم يكن في جنده من يستطيع القيام بالعبء الذي كان يتحمّله فبايعوا مع ذلك ابنه الحسن، رضي الله عنه، ولم يخطر على بالهم في ظرفهم العصيب أن يُولّوا قيادةً جماعية. ثم تنازل الحسن بن علي، رضي الله عنهما، لمعاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنهما، ولم يخطر على بال المسلمين أن تكون قيادة من الحسن ومعاوية، رضي الله عنهما. وتُوفي معاوية، وانتهى عهد الخلفاء من الصحابة ولم يقل المسلمون لمعاوية عندما اقترح عليهم بيعة ابنه يزيد: إنه ليس من الصحابة، وحبذا لو شكّلت قيادة جماعية من يزيد وبعض صحابة رسول الله ﷺ، أو أبناء الصحابة أمثال: الحسين بن علي، وعبد الله بن عمرو، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن الزبير، مثلاً إنما وافقوا، وإن وافق بعضعهم على كرهٍ أو مضض.

ولم يضعُف أمر الخلافة وقيادة الأُمّة إلاّ عندما أصبح الخليفة يرى بجانبه من يخلفه، ورُبّما اثنين، ولا شك أنه يُريد أن يُثبت كفاءته أو يملأ مركزه بتدخّله في شؤون السلطة، ومن ناحيةٍ أخرى يُريد أن تُسرع به الأيّام

لاستلام السلطة، وصاحبها يعمل ليحول بينه وبينها إذ يراها لابنه، ولو لم يكن لها أهلاً، بحكم عاطفة الأبوة، فتختلف الأهواء، وينعكس ذلك على القيادة فيفسُد الأمر. ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾[1] ولم نعرف في عهد الخلفاء الراشدين وهم القدوة لنا بعد رسول الله ﷺ، نائباً أو وكيلاً أو وليًا للخليفة. إذن لا بُدّ من قائدٍ واحدٍ لكل أمرٍ، قوله الحكم، وهو المرجع لكل شأنٍ من الشؤون.

والقيادة عامة بين الناس، والأُمم والشعوب والتجمّعات البشرية كلها صغُرت أم زاد عدد أتباعها لا بُدّ لها من قياداتٍ تُمارس الصلاحيات المُناطة بها، وإذا كانت هناك مفاهيم عن القيادة لدى الأمم والشعوب جميعها، غير أن هذه المفاهيم والصلاحيات المُعطاة للقيادة وما تقوم به من واجباتٍ إداريةٍ تختلف بين الأمم حسب القيم السائدة والعقيدة التي تنبع منها هذه القيم.

إن مفهوم القيادة لدى الناس كافةً في أنها تُنظّم العمل، وتُحدّد الأهداف، وتُبيّن الوسائل، وتُتابع التنفيذ، ويُرجع إليها في المُلمّات، وتتجمّع عندها المعلومات، وتستعين بالكفاءات المتخصّصة، وتُصدر التعليمات اللازمة وبعد ذلك هناك اختلافات بيّنة، إذ نجد لدى الأُمم الجاهلية، وكل الأمم ما عدا الإسلام جاهلية، صفات للقيادة لا نجدها عند القيادة الإسلامية، حيث نجد في قيادتها الترفّع، والصلاحيات الواسعة، والامتيازات الكثيرة التي يتمتّع بها أعضاؤها، ويُقابلها في القيادة الإسلامية التواضع، والخدمات العامة، والشعور بالمسؤولية أمام الله. فلنستمع إلى أبي بكر الصدّيق، رضي الله عنه، يقول بعد أن بُويع بالخلافة في خُطبته يومذاك:

أمّا بعد أيّها الناس قد وُلّيت عليكم ولست بخيركم ولكن نزل القرآن وسنّ النبيّ ﷺ، السنن فعلّمنا فعلِمنا، اعلموا أن أكيس الكيس التقوى وأن

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٢٢.

أحمق الحُمق الفجور، وأن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ له بحقّه، وأن أضعفكم عندي القويّ حتى آخذ منه الحقّ، أيّها الناس إنما أنا مُتّبع ولست بُمبتدعٍ، فإن أحسنت فأعينوني وإن زغت فقوّموني[(١)].

ولنستمع إلى عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وقد نادى يوماً: الصلاة جامعة فلما اجتمع الناس صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس لقد رأيتني وأنا أرعى على خالاتٍ لي من بني مخزوم فكنت أستعذب لهنّ الماء فيقبضن لي القبضة من التمر أو الزبيب ثم نزل. فقال له عبد الرحمن بن عوف: ما أردت إلى هذا يا أمير المؤمنين، فقال: ويحك يا ابن عوف: خلوت بنفسي فقالت لي: أنت أمير المؤمنين، وليس بينك وبين الله أحد، فمن ذا أفضل منك؟ فأردت أن أُعرّفها قدرها[(٢)]. ولنستمع إلى عثمان بن عفان، رضي الله عنه، يقول على منبر رسول الله ﷺ، بعد أن بُويع بالخلافة: أيّها الناس إن أول مركبٍ صعب، وإن بعد اليوم أيّاماً، وإن أعش تأتكم الخطبة على وجهها، وما كنّا خطباء وسيُعلّمنا الله[(٣)]. ولننظر إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهو يكنس بيت المال، ثم يُصلي فيه[(٤)].

وأما الجاهلية سواء أكانت في الماضي أم في الحاضر فإن القائد يتألّه، ويستعبد شعبه، ويُسخّر طاقات بلاده وسكانها جميعهم لمصالحه وفي سبيل تحقيق رغباته، ولعلّنا نذكر قول فرعون لقومه: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾[(٥)]، وتسخيرهم بالقسر والإكراه لبناء الأهرامات حتى تمت على جُثث الآلاف، وأطلقوا بمفهومهم المادي عليها حضارةً وهي لم تتعدّ الفنّ المعماري، وقول لويس الرابع عشر ملك فرنسا: أنا فرنسا، وأنا الشعب، وتسخير طاقات فرنسا لأهوائه، وهذا شأن الجاهليين كلهم، يقتلون من غير خوفٍ

---

(١) الطبقات ٣/ ١٨٣.

(٢) سيرة عمر بن الخطاب ـ ابن الجوزي.

(٣) الطبقات ٣/ ٦٢.

(٤) تاريخ الخلفاء ـ السيوطي.

(٥) سورة النازعات: الآية ٢٤.

من أحدٍ، ويُعذّبون من شاءوا بلا حساب، ويُنفقون من دون رقيب.

وتواضع القيادة الإسلامية إنما يكون للمؤمنين المتقين أما على الذين يظلمون الناس بغير حق سواء أكانوا من الذين ينتمون إلى الإسلام أم من الطغاة فإنها قيادة قوية حازمة تأخذ بالشدّة من يستحق ذلك وتُؤدّبه حتى يثوب إلى رُشده إن كان من المسلمين، أو يزول من طريق عباد الله إن كان من الذين ختم الله على قلبه وعلى سمعه وعلى بصره، وسيلقى عذابه الأوفى يوم القيامة - إن شاء الله -.

إن تصرّفات القيادات الجاهلية وعدم خوفها من أحدٍ، يُقابلها خوف دائم من الله لدى القيادات الإسلامية لأن المسلم على يقينٍ أنه مُحاسب على كل عملٍ سواء أكان صغيراً أم كبيراً، وأن الله مطّلع على السرّ وما تُخفي الصدور، وعلى ما يتمّ جهاراً فلا يمكن للعبد أن يُخفي شيئاً عن الله، ولنستمع إلى قول عمر بن الخطاب كأنموذجٍ على هذا: «فوالذي بعث محمداً ﷺ بالنبوة، لو أن عَنَاقاً ذهبت بشاطئ الفرات لأُخذ بها عمر يوم القيامة»[1]. قال هذا وقد رآه علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، يعدو على قَتَب، فقال له: يا أمير المؤمنين أين تذهب. فقال: بعير ندّ من إبل الصدقة أطلبه. فقال له علي: لقد أتعبت من بعدك.

وإذا كانت القيادات الجاهلية تتألّه على رعيتها فإن القيادات الإسلامية تخدم رعيتها خدمة الخادم لا خدمة السيد ولننظر هذا المشهد. قالت جارية من حيٍّ أبي بكر الصدّيق، رضي الله عنه، لما بُويع بالخلافة: الآن لا تُحلب منائح دارنا - وقد كان يحلبها لهم قبل خلافته - فسمعها أبو بكرٍ فقال: بل لعمري لأحلبنّها لكم وإني لأرجو أن لا يُغيّرني ما دخلت فيه عن خُلُق كنت عليه[2]. فكان يحلب لهم واستمرّ على ذلك ستة أشهر، إذ نزل بعدها من الحيّ (إلخ) إلى المدينة.

---

(١) ابن الجوزي.

(٢) الطبقات ٣/١٨٦.

والقيادة لا تتمثّل في الخلافة فقط أو في رأس السلطة، وإنما تتمثّل في كل مسؤولٍ مهما كان عدد المسؤول عنهم «كلكم راعٍ، وكلكم مسؤول عن رعيته، فالأمير الذي على الناس راعٍ لهم، وهو مسؤول عنهم، والرجل راعٍ على أهل بيته، وهو مسؤول عنهم، وامرأة الرجل راعية على بيت بعلها وولدها، وهي مسؤولة عنهم، وعبد الرجل راعٍ على مال سيده، وهو مسؤول عنه، ألا فكلكم راعٍ، وكلكم مسؤول عن رعيته»[1]. ومن القيادات: القيادة العسكرية. بل إنّ لفظ القيادة أول ما يُوحي اليوم إلى القيادة العسكرية. ولا أقصد بالعسكرية فقط الذين يلبسون اللباس الخاص بالجندية اليوم وإنما كل تجمّعٍ وُجد للقتال بأيّ لباسٍ كان، وبأيّ سلاحٍ كان يُسمّى عسكرياً ويخضع لقيادةٍ تُدير شؤونه، وتسهر على تنظيمه والتخطيط له، وتُصدر له الأوامر، وتُطالب بالتنفيذ. ولذا فإن التجمّعات البشرية قبليةً كانت أم غير ذلك عندما تتحرّك للقتال تُسمّى عسكريةً. وقد كان لهذه التجمّعات آثار في السيطرة على الدولة العباسية في عهدها الثاني كانت السبب في ضعفها وتأخُّرها لذا ذكرت أن السيطرة العسكرية كانت سبب ضعف الدولة العباسية وانحطاطها لا سيطرة مجموعاتٍ ليست عربيةً حسب العرف العصبي القائم.

إن القيادات العسكرية في الماضي تختلف عنها في العصر الحديث، وهي في الإسلام تختلف عما هي عليه عند الجاهليين. لقد كانت القيادة في الماضي مؤقتةً على الغالب يُكلّف رجل بقيادة جيش لحرب مُعينةٍ، وقد لا يُكلّف في أُخرى. وبذا تبقى السيطرة على المحاربين مؤقتةً، كما أن واجب الطاعة مؤقت، وتزول الهيمنة بزوال الإمرة، وإن كانت القيادة تُعطى إلى الذين عُرفوا بالقدرة على استعمال السلاح، والمناورة في القتال، والفتك بالأعداء، والرغبة في سفك الدماء، وحسن السيطرة على الجند. والذين تتوافر فيهم هذه الصفات قلّة، لذلك استمرت فيهم الإمرة وقيادة

---

(١) متفق عليه عن ابن عمر.

الجيوش، وأمكنهم استلام السلطة في كثيرٍ من الأحيان، وطرد من كانت بيدهم من ملوكٍ وأمراء وأكاسرةٍ وقياصرةٍ، ومتى استبدّ العسكريون بالسلطة فقد أزف وقت رحيل الأُمّة ودنا أجلها في أغلب الأوقات.

العسكرية الإسلامية:

كانت قوات المجاهدين تنطلق بإمرة أحدهم، ومن كان في غزوةٍ أميراً قد يكون في أخرى جندياً، وأخلاق المسلمين يومذاك، والمفاهيم الخاصة بهم، والتي تنبع من عقيدتهم، لم تدعهم يهتمّوا بمثل هذه الأمور، فلما برزت عبقرية خالد بن الوليد العسكرية، وغدا مُوفّقاً في أكثر حروبه، وطغى الإيمان على سلوكه وتصرّفاته وتمثّلت به أعماله، وظهرت على جوارحه، أصبح كثير من المجاهدين يرغبون في القتال تحت إمرة خالد، وأحسّ عمر بن الخطاب بهذا، ورغم قناعته بإيمان خالدٍ العميق وعدم الخوف منه إلا أنه حرصاً على المستقبل والأجيال القادمة فقد كلّم عمر في شأنه أبا بكرٍ، وطلب منه أن يعزله عن قيادة جند الشام، ويُعطيها لأبي عبيدة بن الجراح لسابقته في الإسلام غير أن أبا بكرٍ رفض وأحبّ الإفادة من هذه العبقرية والشجاعة في بناء الدولة الناشئة، وتوسعة الفتوح مع اعترافه بفضل أبي عبيدة وشجاعته التي تفوق شجاعة خالد إضافةً إلى ما عنده من آراء مُوفّقة في القتال وخوض المعارك.

والأصل ألاّ تكون القيادة العسكرية منحصرةً في فردٍ كي لا تكون له هيمنة دائمة على جنده والمقاتلين، وقد يخشون بأسه فيُطيعونه في كل أمرٍ، فربما راودته نفسه أمراً لا يتفق مع مصلحة الأُمّة، لقد أرسل رسول الله ﷺ، ستاً وأربعين سرية أو بعثاً، وكان عدد القادة الذين تولّوا أمر هذه السرايا ثلاثة وثلاثين قائداً، وليس شرطاً أن يكون القادة جميعاً على درجةٍ واحدةٍ من الإيمان والإخلاص، وعندها تكون نكبة على المسلمين إن كان القائد ضعيف الإيمان أو قليل الإخلاص. وخاصة في الآونة الأخيرة عندما ضعف المسلمون، وابتعدوا عن عقيدتهم تحت تأثيراتٍ شتّى فضاع ما بنوه.

العسكرية اليوم:

وفي العصر الحاضر أصبحت الجندية مهنةً، وأصبحت فروعاً ذات اختصاصاتٍ، وكان لا بدّ للضباط من أن يُمارسوا مهنتهم واختصاصهم باستمرار، ويبقى الجند تحت أيديهم على الدوام يُنفّذون أوامرهم، ويتلقّون التعليمات منهم، وهذا ما أوجد قوةً جديدةً يُخشى بأسها لا من قبل الأعداء، وإنما من قبل الأُمةِ، فالسلطة تخشاها على نفسها، والشعب يخشاها من أن يستهوي كبارها السيطرة فينقضّوا عليها وهذا كثيراً ما يحدث في أرجاء العالم، وإن اختصت به الدول النامية أو كما يسمونها دول العالم الثالث فيبسط العسكريون نفوذهم، ويسفكون دماء الشعب، ويستحلّون محارمه، ويُخضعون كل شيءٍ لسلطانهم وتئنّ الدول منهم، ومن ظلمهم، وكابوسهم الذي يفرضونه.

أما أمصار العالم الإسلامي فقد كان حظّها بتسلّط العسكريين، وتتابع التغيّرات أكثر من غيرها. وفي كل مرّةٍ وأثناء التغيّر تُدفع هذه الأمصار دفعةً جديدةً نحو التحلّل والبُعد عن العقيدة، وتُذلّ السكان، ويُضغط عليهم أكثر من المرّة التي تسبق ليسهل إخضاعهم، ولتنفيذ مرحلةٍ جديدةٍ من مُخطّط الأعداء، وإضافةً إلى أن القيادة قد أصبح يشغلها من ليس منهم من أبناء الأقليات والفرق الضالّة، وذلك منذ أن سُمح لهم بدخول الجيش عندما ابتعدنا عن العقيدة التي تحول دون التحاقهم به، ما دام الجهاد أساس وجوده، ولا يُؤمنون بالإسلام، ولا يعرفون الجهاد، فكيف يكون الأمر عندما يصبح القائد حاقداً على جنده، ودولته، وبلاده حيث لا يدين بدينهم، ولا يُؤمن بفكرتهم؟.

ولنعد إلى القيادة بصورةٍ عامةٍ ولنرى الفرق بين القيادة الإسلامية وغيرها من القيادات الجاهلية، في بعض الجوانب التي تأخذ بها القيادة الإسلامية، ولا تأخذ بها غيرها ما دامت المفاهيم تنبع من العقيدة.

يمكن للأفراد أن يُقدّموا التضحية للقيادة الإسلامية، وهذا من واجباتهم ما داموا مسلمين، حديث رسول الله ﷺ: «الدين النصيحة لله

ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»[1]، وقول جرير بن عبد الله: (بايعت رسول الله ﷺ، على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم)[2]. بينما الأفراد في بقية القيادات لا يمكنهم أن ينبثوا ببنت شفة أمام قادتهم وخاصةً القادة العسكريين.

لا يصحّ للأفراد المسلمين أن يُطيعوا قادتهم في أمر فيه معصية الله سبحانه وتعالى أي فيه أية مخالفة للإسلام لقوله ﷺ: «لا طاعة لمخلوق في معصية الله»[3]. وقوله: «لا طاعة لمن لم يطع الله»[4]. ونعلم أن أبا بكرٍ الصديق، رضي الله عنه، قد قال في خطبته يوم بُويع بالخلافة: «أطيعوني ما أطعت الله، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم». أما القيادات الجاهلية فطاعتها عند أفرادها واجبة في كلّ الأمور. بل يُنفّذ الفرد ما أُمر به، ثم يعترض إن أراد، ولا يصحّ أن يكون الاعتراض في أمورٍ تتعلق بالغيبيات ـ حسب زعمهم ـ.

وفي القيادة الإسلامية لا توجد قيادة جماعية ـ كما سبق أن ذكرنا ـ ولا يوجد نائب للقائد، ولكن عندما يضطر للغياب لسببٍ من الأسباب يُعيّن مكانه من يقوم مقامه. وقد رأينا أن رسول الله ﷺ، عندما يخرج إلى غزوةٍ، ويُغادر المدينة يُعيّن أميراً من قبله عليها، وفي كل مرّةٍ يضع أحد أصحابه، وغالباً ما يكون غير الذي وضع في المرة السابقة لقد غاب رسول الله ﷺ، سبعاً وعشرين مرة عن المدينة، وخلفه في هذه المرات ثلاثة عشر نائباً، وعلى ذلك سار الخلفاء الراشدين من بعده حيث يُنيب الخليفة مكانه أحد الذين يختارهم لتصريف شؤون الدولة أثناء غيابه. كما لا يوجد خليفتان في دار الإسلام مهما اتسعت حتى لو شملت العالم كله ـ وهو ميدان عملها ـ ولو قام أحدهم يُنازع الخليفة أو يدّعي خلافته على

---

(١) أخرجه البخاري في باب الإيمان.
(٢) أخرجه البخاري في باب الإيمان.
(٣) أخرجه أحمد في مسنده ٥/٦٦.
(٤) أخرجه أحمد في مسنده ٣/٢١٣.

جزءٍ من ديار الإسلام والخليفة الشرعي على جزء آخر فإن الدعيّ يُقتل إن لم يتُب إلى رشده بعد النصح والتذكير بأوامر الإسلام، يقول ﷺ: «من أتاكم وأمرُكم جميع على رجلٍ واحدٍ يُريد أن يشقّ عصاكم أو يُفرّق جماعتكم فاقتلوه»[1]. وقال عليه الصلاة والسلام: «إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما»[2]. أمّا في القيادات غير الإسلامية فيوجد لكل قائدٍ نائب له، وكثيراً ما يحدث النزاع إن كان النائب على شيء من القوة.

وفي الإسلام لا يُعطي القيادة من يسألها أو يحرص عليها، قال رسول الله ﷺ: «إنا والله لا نُولّي على هذا العمل أحداً سأله، ولا أحداً حرص عليه»[3] قال ذلك عندما سأله أحد ابني عمّ أبي موسى الأشعري الإمرة، وقد دخلوا عليه، أما عند غير المسلمين فالجميع يطلبون الإمارة، ويسعون إليها، ويحرصون عليها، ويعملون كل وسيلةٍ في سبيل الوصول إليها.

وفي الإسلام يوضع الرجل المناسب في المكان المناسب، وأول الصفات المناسبة الدين وحسن الخلق، والرجل القويّ الأمين، وأمّا بالنسبة إلى إمرة الجيش فيُختار الكفء صاحب الإمكانات. وقد قال أبو ذرٍّ مرةً لرسول الله: يا رسول الله ألا تستعملني فقال له: «يا أبا ذرّ إنك ضعيف وإنّها أمانة وإنّها يوم القيامة خزي وندامة إلاّ من أخذها بحقّها وأدّى الذي عليه فيها»[4]. أما عند غير المسلمين ولو كانوا من الذين ينتمون إلى الإسلام بل هم أول ما أخصهم فإن أول ميزات القيادة البعد عن الدين والخلق، وللشهادة دورها الرئيسي، وللمعرفة شأنها، وللعصبية حزبيةً كانت أم قبليةً مكانتها.

وفي الإسلام لا يوجد صلاحيات مطلقة أو واسعة تُعطى للقائد

(١) أخرجه مسلم في باب الإمارة.
(٢) أخرجه مسلم في باب الإمارة.
(٣) أخرجه مسلم في باب الإمارة.
(٤) أخرجه مسلم في باب الإمارة.

يُمارسها فوق حقِّه الطبيعي، وفوق ما تُعطيه تلك الدساتير الوضعية التي يصوغونها حسب مصالحهم وأهوائهم، فيتصرّف بعدها تصرّف الفراعنة والمتألّهين. أما القائد المسلم فلا يستطيع أن يسير خارج دائرة الإسلام قيد أُنملة، ويشعر أن الله رقيب عليه في كلّ حركةٍ من حركاته لا تخفى عليه خافية فلا يمكنه التهرّب، فلو كان الخوف من سلطانٍ أو قانونٍ لأمكنه التلاعب أو التستّر، ولما كان عمله واضحاً بيّناً مكشوفاً أمام خالقه الذي سيُحاسبه لذا فإنه يبقى حذراً خائفاً لا يحيد عن الإسلام، ولا يزيغ عما تسمح به الشريعة سواء أُعطي أم لم يُعط، فكّر أم لم يُفكّر.

وإذا كان غير المسلمين سواء أكانوا ينتمون إلى الإسلام أم إلى غيره يعدّون القيادة جاهاً يستظلّون فيه، ومركزاً يمشون فيه بين الناس، وغنماً يُحقّقون منه أرباحاً، وسلطة يُنفّذون من ورائها أهواءهم وشهواتهم أو يشفون صدورهم ويروون غلّهم من خصومهم، و. . . . فإن المسلمين يرون القيادة مسؤوليةً، تجعل حسابهم أكبر عند الله إن لم يأخذوها بحقّها ويؤدّوا واجبهم فيها، وبذا عليهم أن يُضاعفوا الجهد، ويبذلوا إمكاناتهم وطاقاتهم كافةً.

أما بالنسبة إلى القيادة العسكرية فإن بعضهم ربما يقول: إن النظام العسكري القائم والاختصاص الذي أصبح أساساً لا بُدّ من أن يفرض قيادةً دائمةً، وبهذا يبقى المحظور الذي تتكلّم عنه قائماً، وأحبّ أن أُركّز على هذا الموضوع لذا عُدت إليه بعد أن قطعته ليثبت في الذهن. قلت: إنّ كلّ موضوعٍ يرتكز على أساس العقيدة، ولما كنّا أبناء الإسلام نختلف عن غيرنا في عقيدتنا فإننا نختلف عنهم في كثيرٍ من تصوّراتنا للحياة ومنهجها. إن مُهمّتنا في الحياة تقوم على الجهاد الذي لا ينتهي أبداً حتى ينتهي الطغاة والظلم من العالم وحتى ينتهي الشرك من العالم أيضاً. فساحة عملنا العالم كلّه، لذا يجب أن نستعدّ دائماً أو أننا في مرحلة جهادٍ دائم، وهذا يقتضي ألا يكون الجيش النظامي في مصر من الأمصار هو المقاتل فقط، وإنما كل عناصر الشعب القادرة على حمل السلاح يجب أن تتدرّب في الدوائر،

والمدارس، والمعامل، وفي ساحات القرى، وحدائق المدن، بغضّ النظر عن السنّ، ويصل الأمر أحياناً إلى تدريب النساء الذي نحتاج إليه كما هو معلوم في أمور الفقه حيث يكون الجهاد فرض عين عندما يُداهم العدو دار الإسلام أو يقتحم المدن والقرى. ويكون التدريب على كافة أنواع الأسحلة. ومن هذا المنطلق فإن الجيش النظامي لا يُشكّل إلا جزءاً قليلاً، من المقاتلين، ووظيفته في الحالات العادية دعم قوات الأمن الداخلي عند الضرورة، وحفظ نقاط الحدود، ويكون الطليعة للقتال. وبذا فإن القيادة في الأمور المادية تكون لغير المحترفين من الجيش، وفي حالات القتال يمكن أن تكون القيادات العليا لضباط الجيش، وهي حالات موقتة. والقيادات الأخرى لغيرهم، بل من الممكن أن يتولى غيرهم القيادة ما دام التدريب مُستمرًّا، والإمكانات موجودة. وفي هذه الحالة لا يخشى من المحظور المرتقب من التسلّط العسكري.

هذا إضافةً إلى أن الحكم عندما يكون قائماً على أساس الإسلام، فإن كل شيءٍ يكون مُنبثقاً عنه سواء أكانت التربية أم التعليم أم التدريب العسكري وجوانب الحياة الاجتماعية كلها، وعندها لا توجد نفسيات كالتي عهدنا عند العسكريين الذين يتسلّطون على الأوضاع في بعض الأمصار التي اعتادت أن ترى هذه النماذج أو عند أولئك الذين يُفسّرون الأمور وتصرّفات غيرهم بمقتضى هواهم وحسب نفسياتهم المُعقّدة التي تتناسب مع المجتمع الجاهلي الذي يعيشون فيه.

والخلاصة:

١" ـ لا بدّ من قيام قيادة يتولّى أمرها مسؤول واحد. وليس للخليفة أو الأمير نائب دائم.

٢" ـ لا توجد لدى المسلمين قيادة جماعية. ولم تُعرف هذه القيادة لدى أسلافنا.

٣" ـ لا توجد قيادة دائمة سوى الخلافة.

٤" ـ لا تُعطى القيادة لمن يسألها أو يحرص عليها.

٥" ـ ليس للقيادة صلاحيات مطلقة.

٦" ـ على القيادة أن تتقبل النصح والرأي من أي فرد من الأُمّة.

٧" ـ لا تُطاع القيادة في معصية.

٨" ـ تُسأل القيادة أمام النظام في الدنيا، وهي مسؤولة أمام الله في الآخرة.

٩" ـ وظيفة القيادة خدمة الأمة ورعايتها.

١٠" ـ وضع الرجل المناسب في المكان المناسب له.

١١" ـ من شروط القيادة: التواضع، والتقوى، والخوف من الله، والحزم، والقوة.

[٢٢] الإدارة

هي إدارة التعاون البشري أو المجتمع، أو استخدام القوى البشرية والتفاعل معها للوصول إلى الأهداف العامة التي ترسمها القيادة، أو تدعو إليها العقيدة ضمن مبادئ مُحدّدة. وتُمثّل بشكلٍ عامٍ العلاقة بين الرئيس والمرؤوسين، أو طريقة تطبيق القوانين أو السياسة العامّة. ورُبّما عدّ بعضهم الإدارة هي تصرّف القائد باستخدامه المبادئ العامة وتطبيقها إذ لا يكفي وجود المبادئ، ولكن كيفية استخدامها وتطبيقها، وتعامل القائد معها، وتصرّفه في استعمالها، وطريقته في الإفادة من مرونتها.

ولما كان الإسلام عقيدة، والعقيدة لا بدّ من أن يكون لها منهج حياة، فلا بدّ من أن يكون منهج في الإدارة والنظام. ويُلزمنا الإسلام باتخاذ منهجه وإلا نكون خارجين عنه ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾[(١)]. والمنهج هو ما سار عليه رسول الله ﷺ، لأنّه من عند الله سبحانه وتعالى، فهو أدرى بخلقه، وقد أنزل لهم ما يصلُح لهم، ويُصلح لهم شأنهم، ويتّفق مع المهمّة التي خلقهم من أجلها، وهي العبادة، والمهمة التي كلّفهم بها وهي عمارة الأرض. ورسول الله ﷺ، هو القدوة لنا في كل شيء ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾[(٢)]. ومن ثمّ فإن طريقته قد حقّقت نجاحاً باهراً إذ استطاع وحده ـ بإذن الله ـ أن يُغيّر مجتمعاً كاملاً موغلاً في الجاهلية، ويرفعه من

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١٥٣.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٢١.

الحضيض إلى القمّة، وأن يقيم له دولةً في مدةٍ لا تزيد على ثلاثة عشر عاماً، ولا غرابة في ذلك فهو رسول الله. مُوجّه من الله، مرعي من الله، مُسدّد الخطا، والمنهج منهج الله، والعباد خلق الله، وقد أنزل إليهم هذا المنهج.

وليست الإدارة في الإسلام ضغط، ورقابة، وتوجيه، وتسلّط كما هي في بعض الأنظمة بحيث لا يستطيع المرؤوس أن يرفع رأسه من العمل، أو يأخذ شيئاً من الراحة، كما لا يستطيع أن يُفكّر وإنما يعمل كالآلة مدة الوقت المحددة كلّها، وإذا أمكن يُضاف له جزء آخر بحيث تستغلّ طاقة العمل اليومية كلها فلا يذهب إلاّ وهو منهوك القوى خائر الجسم. وإذا كانت الأنظمة الحديثة قد حدّدت ساعات العمل، وأعطت العامل بعض الحقوق مثل الإجازة المرضية، والعطلة الأسبوعية، وهي يوم يجد العامل فيه راحة، ويستعيد نشاطه والعطلة السنوية وهي ما يقرب من أسبوعين غير أن العامل قد بقي محطّما نفسياً، ويعدّ نفسه دون بقية أفراد المجتمع مستوى. وأصبح العمال طبقةً خاصةً تُكافح ضد طبقةٍ أخرى من المجتمع هي طبقة أصحاب المعامل وغدا الصراع في المجتمع حتى تهدّم في بعض الشعوب والأمم.

أما الإدارة في المجتمع الإسلامي فتمتاز ببعض الميزات الخاصة بها، وقد لا تلتقي إلاّ في جوانب قليلةٍ مع الإدارات في المجتمعات الثانية، وأهم هذه الصفات:

١ ـ لا توجد طبقات في المجتمع الإسلامي، وبالتالي لا يوجد صراع فيه، وإنما كل فرد في المجتمع يُشكّل جُزءاً منه له دوره الذي يُؤديّه، ولا تختلف منزلة فردٍ عن فردٍ بالمهنة أو الوظيفة، أو المال، أو الأملاك، أو النسب، أو العصبية، أو الانتماء، فالناس في المجتمع الإسلامي سواسية كأسنان المشط يتمايزون بالإيمان ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾[1]. وقال رسول الله ﷺ، في خُطبة حجّة الوداع: «أيها الناس إن ربكم واحد. وإن

(١) سورة الحجرات: الآية ١٣.

أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب. إن أكرمكم عند الله أتقاكم. ليس لعربي على عجمي فضل إلاّ بالتقوى»[1].

٢ ـ يكون رأس الإدارة قدوةً طيبةً لمرؤوسيه، فهو أولاً يقتدي برسول الله ﷺ، والجميع يقتدون، ولكن هو أكثرهم. وما وصل إلى رئاسة العمل إلا بأخلاقه، وتقواه واقتدائه برسول الله ﷺ، ولم يصل إليها بشهادته، وإن كان لها دور بالاختصاص، والمعرفة، والعلم، ولم يصل بنسبه، أو معارفه، أو حزبيته، أو عصبيته أو أيّة رابطة من روابط الدنيا سوى رابطة الإسلام. وكلما زاد المسلم منزلةً أو رتبةً ازداد تواضعاً إلى الله، وزادت صلته بإخوانه حسناً، وبجيرانه قربى، وبمرؤوسيه إحساناً، وبالناس جميعاً خُلقاً ومودةً، وبأهله برًّا وارتباطاً. وقد كان رسول الله ﷺ، خير الناس جميعاً في هذا كله، لذا كان القدوة للمسلمين على اختلاف مراتبهم ومنازلهم، يقول رسول الله ﷺ: «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي»[2].

٣ ـ يأخذ الإسلام بمبدأ معرفة الإمكانات لكل فرد، وإعطاء كلّ إنسان ما يُحسنه، ولننظر إلى رسول الله ﷺ، وكان يختار قادته العسكريين من أصحاب القوة والشجاعة أمثال: الحمزة بن عبد المطلب، وزيد بن حارثة، وأبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعبد الرحمن بن عوف، ومحمد بن مسلمة، وبشير بن سعد، وعكاشة بن محصن، وعبد الله بن جحش، وعلي بن أبي طالب، وأبي عبيدة بن الجراح، وعمرو بن العاص، وخالد بن الوليد... وبغضّ النظر عن السابقة، وهي ذات قيمة في الإسلام، وبغضّ النظر عن التقوى وعليها المعوّل في التفضيل. وإذا كان أكثرهم من السابقة ومن المهاجرين إلاّ أننا نلاحظ أنه قد أرسل عمرو بن العاص إلى جموع بلي وقضاعة في ثلاثمائة من سراة المهاجرين والأنصار منهم صهيب بن سنان، وسعد بن أبي وقّاص، وأسيد بن الحضير، وعبّاد بن

---

(١) حياة الرسول المصطفى، عبد الرزاق محمد أسود، ٧٠٦/٣.

(٢) أخرجه ابن ماجه في باب النكاح، ٥٠، والدارمي في باب النكاح أيضاً ٥٥.

بشر، وسعد بن عبادة و... وكلهم أفضل منه لسابقتهم، وهي السرية المعروفة بذات السلاسل، ثم أمدّه بأبي عبيدة بن الجراح بسريةٍ فيها أبو بكرٍ وعمر. وقدّم خالد بن الوليد على الفرسان يوم فتح مكة وبينهم من هو خير منه. كما بعث أسامة بن زيد بن حارثة بجيش إلى تخوم بلاد الشام ولم يتجاوز أسامة الثامنة عشرة، وفي البعث كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار. كما أن رسول الله ﷺ، كان يختار الولاة من الأقوياء الأمناء بغضّ النظر عن سابقتهم وفضلهم، فقد ولّى على مكة بعد فتحها وخروجه منها عتّاب بن أُسيد، وكان فتى حدثاً، وولّى أبا سفيان على نجران و... وعندما طلب أبو ذر من رسول الله ﷺ، الإمرة قال له: «يا أبا ذرٍ إنك ضعيف، وإنها أمانة وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلاّ من أخذها بحقّها وأدّى الذي عليه فيها»[1].

٤ ـ وتكون القدوة الطيبة في القتال أيضاً، فقد كان رسول الله ﷺ، أشجع الناس، كان فزعٌ في المدينة فخرج الناس قِبَل الصوت فاستقبلهم رسول الله ﷺ، قد سبقهم فاستنبأ الفزع على فرسٍ عُرى لأبي طلحة ما عليه سرج، في عنقه السيف، فقال: لا تراعوا.

عن البراء، رضي الله عنه، أنه سأله رجل من قيس فقال: أفررتم عن رسول الله ﷺ، يوم حنين؟ فقال البراء: ولكن رسول الله ﷺ، لم يفرّ. كانت هوازن قوماً رماة، وإنا لما حملنا عليهم انكشفوا، فأكببنا على الغنائم، فاستقبلونا بالسهام، ولقد رأيت رسول الله ﷺ، على بغلته البيضاء، وإن أبا سفيان بن الحارث آخذ بلجامها، وهو يقول:

أنا النبي لا كذب   أنا ابن عبد المطلب

وعن البراء، رضي الله عنه، قال: كنا والله إذا احمر البأس نتقي به، يعني النبي ﷺ، وإن الشجاعة منا الذي يُحاذي به.

وعن علي، رضي الله عنه، لقد رأيتنا يوم بدرٍ ونحن نلوذ بالنبي ﷺ،

---

(١) صحيح مسلم باب الإمارة.

وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشدّ الناس يومئذٍ.

وعنه أيضاً قال: كنّا إذا احمر البأس، ولقي القوم القوم اتقينا برسول الله ﷺ، فما كان أحد أقرب إلى العدو منه[1]. ولا ننسى موقفه يوم أُحُد، وقد انهزم عنه الناس، ويوم حنين قد فرّت أمامه الجموع.

ومن المعلوم أن رسول الله ﷺ، كان يقود المعركة بنفسه، ويُشرف على سيرها، ويكون في أول المقاتلين، وإذا كان في طريقه إلى العدو كان على رأس المقدمة ليكون أول من يصطدم بالعدو، ويحمي من خلفه، وإذا كان في طريق العودة من الغزو يكون مع الساقة ليحمي مؤخرة الجيش من غارات الأعداء فيما إذا وقعت، إذا كان الأعداء يباغتون خصومهم عند انسحابهم أو في طريق قفولهم.

٥ ـ مبدأ تقسيم العمل: بحيث يُعطى كل فردٍ جزءاً من العمل، ويأخذ المدير جزءاً، إذ لا يترك لنفسه الإشراف، أو يُفضّل الجلوس بصفته المسؤول، وإنما يختار كالبقية جزءاً وقد يكون أشقّها، أو فيه من التعب كغيره أو يزيد، كما ليس فيه راحة أو يدل على منزلة و. . . (وأمر رسول الله ﷺ، في بعض الأسفار بإصلاح شاة، فقال رجل: عليّ ذبحها، وقال آخر عليّ سلخها، فقال ﷺ: وعليّ جمع الحطب، فقالوا: نكفيك فقال: قد علمت أنكم تكفونني، ولكني أكره أن أتميز عليكم، ثم قام وجمع الحطب)[2].

٦ ـ مبدأ المكافآت والرتب: لقد كان رسول الله ﷺ، يُعطي الألقاب، وهي تعادل الرتب اليوم بل تزيد عليها حيث تدلّ على فضلٍ كبيرٍ وجزاءٍ عظيمٍ فالصديق، والفاروق، وذو النورين، وأسد الله، وسيف الله، وحواري رسول الله، وحبّ رسول الله، وحبّ رسول الله وابن حبّه، وأمين الأُمّة، وارم بأبي أنت وأمي، وشاعر رسول الله، وخطيب رسول الله، وقائد حرس رسول الله، وخادم رسول الله، والمؤاخاة مع علي، وجار رسول الله و. . .

---

(١) الوفا بأحوال المصطفى ـ ابن الجوزي ـ تحقيق مصطفى عبد الواحد، ٢/ ٤٤٣.

(٢) العامري: بهجة المحافل وبغية الأماثل: ٢/ ٢٨٤.

وقد يُعطي رسول الله ﷺ مكافآت مادية من الغنائم، فقد أعطى المهاجرين الغنائم من بني النضير دون الأنصار سوى سهل بن حُنيف، وأبي دجانة (سمّاك بن خرشة) لفقرهما، وذلك لقاء الهجرة وما تركوا من أموالٍ وبيوتٍ في مكّة، ولم يجد الأنصار خصاصة في ذلك ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾[1]. وأعطى رسول الله ﷺ، من غنائم حنين المُؤلّفة قلوبهم، وكانوا أشرافاً من أشراف الناس، يتألّفهم، ويتألف بهم قومهم، فأعطى أبا سفيان صخر بن حرب مائة بعير، وأعطى ابنه معاوية مائة بعير، وأعطى حكيم بن حزام مائة بعير، وأعطى الحارث بن الحارث بن كلدة مائة بعير، وأعطى الحارث بن هشام مائة بعير، وأعطى سهيل بن عمرو مائة بعير، وأعطى حويطب بن عبد العزى بن أبي قيس مائة بعير، وأعطى العلاء بن جارية الثقفي مائة بعير، وأعطى عُيينة بن حصن بن بدر مائة بعير، وأعطى الأقرع بن حابس التميمي مائة بعير، وأعطى مالك بن عوف النضري مائة بعير، وأعطى صفوان بن أمية مائة بعير. وأعطى رجالاً آخرين دون ذلك فقد أعطى مخرمة بن نوفل الزهري، وعمير بن وهب الجمحي، وهشام بن عمرو العامري، كما أعطى رجالاً آخرين خمسين من الإبل منهم سعيد بن يربوع، وعدي بن قيس وغيرهم. وأعطى عباس بن مرداس حتى رضي. وأعطى الكثيرين ولا أجد حاجةً لذكر أسمائهم جميعاً. غير أن الأنصار لم يأخذوا أبداً ووجدوا في أنفسهم شيئاً، وحدّثوا رسول الله ﷺ، فأجابهم: «وكّلتكم إلى إسلامكم، ألا ترضون يا معشر الأنصار، أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً، لسلكت شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار»، فبكوا حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قَسْماً وحظاً.

---

(١) سورة الحشر: الآية ٩.

وهذا يدلّ على أن هذا العطاء كان مكافأةً لهم لقتالهم الذي قاموا به، ولم يُسلموا بعد إسلاماً أكيداً، كما أن هذا كان تشجيعاً لهم كي يُسلموا ويدخل الإيمان إلى قلوبهم، أما المؤمنون حقّاً من المهاجرين والأنصار فلم يظفروا بشيء وأوكلهم إلى إسلامهم إذ يحصلون على الأجر من الله. والحديث ورد عن الأنصار لأن الذين أخذوا من المؤلّفة قلوبهم من بطون قريش نفسها التي منها المهاجرون، فلم يتكلّموا بشيءٍ إضافةً إلى أن أكثرهم كانوا من النواة التي تألّفت حولها الدعوة، والذين تربّوا في مرحلة الدعوة السرية.

٧ ـ حسن الصلة بالأفراد: كان رسول الله ﷺ، يُخالط الناس، ومن صفاته التي ذكرها هند بن أبي هالة عندما سأله الحسن بن علي عنها: قال: كان يَخْزِن لسانه إلاّ فيما يعنيه، ويُؤلّفهم ولا يُنفّرهم، ويُكرم كريم كلّ قوم ويُولّيه عليهم، ويحذر الناس ويحترز منهم، من غير أن يطوي على أحدٍ بشرهُ ولا خُلُقَهُ، ويتفقّد أصحابه، ويسأل الناس عمّا في الناس، ويُحسّن الحسن ويُقوّيه، ويُقبّح القبيح ويُوهنه، معتدل الأمر غير مختلفٍ، لا يغفل مخافة أن يغفلوا أو يميلوا، لكل حالٍ عنده عتاد لا يُقصّر عن الحقّ ولا يجوزه، الذين يلونه من الناس خيارهم، أفضلهم عنده أعمّهم نصيحةً، وأعظمهم عنده منزلةً أحسنهم مُواساةً ومؤازرةً، وكان لا يقوم ولا يجلس إلاّ على ذكر، وإذا انتهى إلى قومٍ جلس حيث ينتهي به المجلس، ويأمر بذلك، يُعطي كل جلسائه نصيبهُ، لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه، من جالسه أو قاومه في حاجةٍ صابره حتى يكون هو المنصرف، ومن سأله حاجةً لا يردّه إلاّ بها أو بميسورٍ من القول، قد وسع الناس بسطه وخلقه فصار لهم أباً وصاروا في الحقّ عنده سواء، مجلسه مجلس علم وحياءٍ وصبرٍ وأمانةٍ، لا تُرفع فيه الأصوات ولا تُؤبَن فيه الحُرَم، يتعاطفونَ فيه بالتقوى، متواضعين يُوقّرون فيه الكبير، ويرحمون فيه الصغير، ويُؤثرون ذا الحاجة ويحفظون فيه الغريب.

كان دائم البشر، سهل الخلق، ليّن الجانب، ليس بعيّاب ولا مدّاح،

يتغافل عما لا يشتهي، ولا يُيئس منه ولا يُخيّب مُؤمِّله[1].

٨ ـ الرفق بالمسيء إذا أنكر فعله أو اعتذر ولم يكن من شأنٍ، يستطيع أن يفعل ما من شأنه تهديم المجتمع. لقد أظهر عدد من الناس إسلامهم بعد أن قويت الدولة الإسلامية، وعظُمت شوكتها بعد معركة بدرٍ الكبرى، وأصبح هؤلاء ضمن الصفّ ينفثون سمومهم فيه، هؤلاء هم المنافقون وعلى رأسهم كبيرهم عبد الله بن أُبيّ بن سلول الذي يحاول أن يبثّ الفرقة بين المسلمين كلما سنحت له الفرصة، وفي غزوة بني المصطلق في شهر شعبان من السنة السادسة لاحت له بارقة أملٍ في إثارة فتنةٍ بعد النصر على بني المصطلق والعودة نحو المدينة، وعلى مياه القبيلة ازدحم الناس واختلف أجير لعمر بن الخطاب هو جهجاه بن مسعود مع سنان بن وبر الجهني حليف الخزرج واقتتلا، فنادى سنان يا معشر الأنصار وصرخ جهجاه يا معشر المهاجرين. ووصل الخبر إلى رأس المنافقين فأبدى غضبه أمام رهطٍ من قومه بينهم فتىً حدث يُدعى زيد بن أرقم. فقال كبير المنافقين عبد الله بن أُبيّ: أوقد فعلوها، قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما أَعُدّنا وجلابيب قريشٍ إلا كما قال الأول: سمّن كلبك يأكلك! أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخْرِجَنّ الأعزّ منها الأذلّ. ثم أقبل على من حضره من قومه، فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحوّلوا إلى غير داركم. فسمع بذلك زيد بن أرقم، فمشى به إلى رسول الله ﷺ، وذلك عند فراغ رسول الله ﷺ، من عدوّه، فأخبره الخبر، وعنده عمر بن الخطاب، فقال: مُر به عبّاد بن بشر فليقتله؛ فقال له رسول الله ﷺ: فكيف يا عمر إذا تحدّث الناس أن محمداً يقتل أصحابه! لا ولكن أذّن بالرحيل، وذلك في ساعة لم يكن رسول الله ﷺ، يرتحل فيها، فارتحل الناس.

وقد مشى عبد الله بن أُبيّ بن سلول إلى رسول الله ﷺ، حين بلغه

---

(١) الوفا بأحوال المصطفى ٢/٤٦٩ ـ ٤٧٠.

أن زيد بن أرقم قد بلّغه ما سمع منه، فحلف بالله: ما قلت ما قال، ولا تكلّمت به ـ وكان في قومه شريفاً عظيماً ـ فقال من حضر رسول الله ﷺ، من الأنصار من أصحابه: يا رسول الله، عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه، ولم يحفظ ما قال الرجل، حَدَباً على ابن أُبيّ بن سلول، ودفعاً عنه.

فلما استقل رسول الله ﷺ، وسار، لقيه أُسيد بن حضير، فحيّاه بتحية النبوة وسلّم عليه، ثم قال: يا نبيّ الله، والله لقد رحت في ساعةٍ مُنكرةٍ، ما كنت تروح في مثلها، فقال له رسول الله ﷺ: أو ما بلغك ما قال صاحبكم؟ قال: وأيّ صاحبٍ يا رسول الله؟ قال: عبد الله بن أُبيّ؛ قال: وما قال؟ قال: زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليُخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ، قال: فأنت يا رسول الله ﷺ، تُخرجه منها إن شئت، هو والله الذليل وأنت العزيز، ثم قال: يا رسول الله، ارفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك، وإن قومه لينظمون له الخرز ليُتوّجوه، فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكاً. وأنزل الله سورة المنافقين وفيها: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾.

وبلغ عبد الله بن عبد الله بن أُبيّ الذي كان من أمر أبيه، فأتى رسول الله ﷺ فقال: إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أُبيّ فيما بلغك عنه، فإن كنت لا بُدّ فاعلاً فمُرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجلٍ أبرّ بوالده مني، وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعُني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أُبيّ يمشي في الناس، فأقتله، فأقتل رجلاً مؤمناً بكافرٍ، فأدخل النار؛ فقال رسول الله ﷺ: بل نترفق به، ونحسن صحبته ما بقي معنا.

وجعل بعد ذلك إذا أحدث عبد الله بن أبيّ الحدث كان قومه هم الذين يُعاتبونه، ويأخذونه، ويُعنّفونه، فقال رسول الله ﷺ، لعمر بن الخطاب، حين بلغه ذلك من شأنهم: كيف ترى يا عمر؛ أما والله لو قتلته يوم قلت لي: اقتله، لأُرعِدت له أُنُف، لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته؛ قال

عمر: قد والله علمت لأمر رسول الله ﷺ، أعظم بركةً من أمري[1].

ولما انتهى رسول الله ﷺ، إلى وادي العقيق، تقدّم عبد الله، رضي الله عنه، ابن عبد الله بن أُبيّ بن سلول، وجعل يتصفّح الركاب حتى مرّ أبوه، فأناخ به، ثم وطئ على يد راحلته، فقال أبوه: ما تريد يا لكع، فقال: والله لا تدخل حتى تُقرّ أنك الذليل وأن رسول الله ﷺ العزيز، وحتى يأذن لك رسول الله ﷺ، لتعلم أيضاً الأعزّ من الأذلّ، أنت أو رسول الله ﷺ، فصار يقول: لأنا أذلّ من الصبيان، لأنا أذلّ من النساء، حتى جاء رسول الله ﷺ، فقال له: خلّ عن أبيك، فخلّى عنه[2].

وصبر رسول الله ﷺ، على أذى المنافقين، وتوفي عبد الله بن أُبيّ كبير المنافقين في العام التاسع فجاء ابنه عبد الله، رضي الله عنه، إلى النبيّ ﷺ، فقال: يا رسول الله أعطني قميصك أُكفِّنه فيه، وصلّ عليه، واستغفر له. فأعطاه النبي ﷺ قميصه، فقال: آذنّي أُصلّي عليه، فآذنه، فلما أراد أن يُصلّي عليه جذبه عمر، رضي الله عنه، فقال: أليس الله نهاك أن تُصلّي على المنافقين، فقال: أنا بين خِيَرَتَين، قال: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾[3] فصلّى عليه فنزلت: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾[4].

وهكذا نجد رفق رسول الله ﷺ، بمن معه سواء أكانوا من الصادقين أم من المنافقين ما داموا لا يستطيعون تأثيراً على المجتمع الإسلامي، وإن هذا الرفق قد جعل أعوان المنافقين يُعنّفونهم على تصرّفاتهم حتى بطُل تأثيرهم نهائياً، وربما كانت الشدّة مجالاً لعطف بعض الناس عليهم ما داموا يُظهرون الإسلام، ويسيرون مع رسول الله ﷺ، في غزواته. غير أن رسول الله ﷺ، عندما يجد أن التأثير ربما يقع فهناك لا بدّ من استعمال

---

(١) انظر سيرة ابن هشام.
(٢) انظر السيرة الحلبية.
(٣) سورة التوبة: الآية ٨٠.
(٤) البخاري باب الجنائز.

الحزم بل اتخاذ الشدّة إن دعت الضرورة إليها. ونلاحظ هذا عندما كان أهل الكتاب من اليهود لا يزالون يعيشون في مجتمع المدينة، وأرادوا إثارة الفتنة فقد أخرج بني قينقاع من المدينة إثر معركة بدرٍ، كما أخرج بني النضير إثر غزوة أُحدٍ بعد حصارهم، وفتك بني قريظة بعد خيانتهم المسلمين وخيانة عهودهم إثر غزوة الأحزاب، هذا بصورةٍ جماعيةٍ، وكذلك فهناك بعض التصرفات الفردية مثل كعب بن الأشرف الذي قال عندما بلغه خبر غزوة بدرٍ ونتائجها: والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم، لبطن الأرض خير من ظهرها. فلما تيقّن عدوّ الله الخبر خرج حتى قدم مكّة، وجعل يُحرّض على رسول الله ﷺ، ويُنشد الأشعار، ويبكي أصحاب القليب من قريش الذين أُصيبوا ببدرٍ. ثم رجع إلى المدينة فشبَّب بنساء المسلمين حتى آذاهم، فكان لهذا أثره بحيث لا يمكن السكوت عنه لأن النتائج قد تتضاعف فكعب بن الأشرف له حصنه المنيع، وأهل الكتاب لا يزال أكثرهم في ضواحي المدينة، والنفاق قد نجم، لذا فقد قرّر رسول الله ﷺ، التخلّص من هذا المجرم، فقال لبعض أصحابه: من لي بابن الأشرف؟ فقال محمد بن مسلمة: أنا لك به يا رسول الله، أنا أقتله؛ قال: فافعل إن قدرت على ذلك. فذهب إليه مع أربعة من الأنصار وقتلوه. ويجب أن ننتبه إلى أن هذا الحادث قد وقع في المرحلة المدنية أي بعد أن قامت دولة المسلمين، إذ لا يصحّ هذا قبل ذلك.

٩ ـ وحدة الاتجاه: إن من الأهمية بمكان أن يُوجّه أصحاب الإدارة المسؤولين عنهم نحو هدفٍ واحدٍ وغايةٍ واحدةٍ بحيث يعمل الجميع للوصول إليها، ويبذلون جهدهم كله في سبيل ذلك، ولا يضيعون الوقت لتحقيق أهدافٍ خاصة ومصالح ذاتيةٍ، وقد تتضارب بعضها مع بعض تبعاً لمصالح الأفراد وأهواء الأشخاص التي لا بُدّ لها من أن تتباين وتختلف، فيضيع الوقت في المنافسات والصراع، وتذهب الأهداف تحت وطأة المصالح التافهة والأهواء الفانية.

ولا شكّ أن الإسلام يُوجّه أتباعه جميعاً أفراداً وإداراتٍ نحو غايةٍ

ساميةٍ هي إرضاء الله سبحانه وتعالى فيعمل كل إنسانٍ في سبيل ذلك ويتنافس كلّ فردٍ لتحقيق الدرجة العليا والغاية التي يتطلّع إليها. وبذا لا نجد أطماعاً شخصية، ولا تهافت على أمور الدنيا الزائلة، ولا صلات مع أعداء الله مما نجده هذه الأيام. ومما لا شكّ فيه أن هناك شذوذات نراها في المجتمع الإسلامي، وهي لها حلول وعلاج، حيث يُقضى عليها في مدةٍ بسيطةٍ، والتي تبقى في غيّها فإن هناك روادع تصل إلى حدّ البتر في بعض الأحيان.

ولما كانت الإدارات تُقوّم الأمور بالتقوى والكفاءات، فإن مجال النفاق والتزلّف لا وجود له في المجتمع الإسلامي، والأشخاص الذين يعيشون بالنفاق ومحاولة التقرب من أصحاب السلطة من غير إنتاج ولا مردود لا مكان لهم أيضاً، وبذا فالمجتمع الإسلامي نظيف من أهل الأهواء والفساد، بعيد عن النفاق والتزلّف، خالٍ من الخيانة التي تقضّ مضاجع الأمم، متعاون الأعضاء، ويوجد تفاهم تام بين الإدارات والذين يتبعونها.

وهذا يؤدي بدوره إلى تحقيق الاستقرار النفسي الذي يزيد من فاعلية الفرد، وتفاعله مع مجتمعه الذي يعيش فيه.

١٠ ـ تنمية الخبرات: وتعمل الإدارة الإسلامية على تنمية الخبرات بشكلٍ مستمرٍ، وتُشجّع على الابتكار، وهي مسؤولة عن إيجاد ما يكفي المسلمين من أيّة حاجةٍ، ومعرفة كلّ ما يحتاجون إليه لشؤونهم العلمية والعملية، وتُعدّ آثمةً إن لم تعمل على تحقيق ذلك.

١١ ـ الشورى: لا بُدّ للإدارة قبل اتخاذ أيّ قرار من استشارة العناصر من أهل الرأي والخبرة، والذين يمارسون العمل. وقد رأينا رسول الله ﷺ، بعد غزوة بدرٍ يستشير أصحابه في شأن الأسرى. فقد استشار أبا بكر، وعمر، وعلياً، وعبد الله بن جحش، وعبد الله بن رواحة، وغيرهم، وكان رأي أبي بكر الفداء، ورأي عمر القتل وبأيدي أقرب الناس إليهم، ورأي عليٍّ وابن جحش القتل ورأي ابن رواحة الحرق.

وبعد أن استمع رسول الله ﷺ، إلى رأي أصحابه وجد أن يأخذ

الفداء لعلّ الله يهدي هؤلاء الأسرى فيكونون من أنصار الإسلام، ويقفون مواقف حميدة، وذلك رحمةً بهم وطمعاً في هدايتهم.

١٢ ـ اتخاذ القرار: ويكون بعد مُشاورة أهل الرأي، وأصحاب الخبرة والذين يُؤدّون العمل بأنفسهم. ومن المعلوم أنه لا توجد أكثرية أصوات وأقلية، وإنما اتخاذ القرار بعد تداول الرأي مع أصحاب الحلّ والعقد، إن الآراء كلها ليست سوى اجتهاداتٍ مبينةٍ على أُسسٍ إسلاميةٍ، وأهل الشورى أهل علمٍ ومعرفةٍ، واتخاذ القرار ليس سوى ترجيح اجتهادٍ على اجتهادٍ حسبما يُوَفّقه الله إلى ذلك.

الخلاصة: لا تقوم الإدارة في الإسلام على الإكراه، والضغط، والإرهاب، بقطع جزءٍ من الأجر، واستنفاد الطاقة، واستغلال الوقت كلّه دون راحةٍ. وإنما تقوم على:

١ ـ عدم التمييز.

٢ ـ القدوة الطيبة.

٣ ـ معرفة إمكانات كلّ فردٍ.

٤ ـ تقسيم العمل.

٥ ـ المكافآت.

٦ ـ حسن الصلة بالأفراد.

٧ ـ الرفق بالمسيء.

٨ ـ وحدة الاتجاه.

٩ ـ الاستقرار النفسي.

١٠ ـ تنمية الخبرات.

١١ ـ الشورى.

١٢ ـ اتخاذ القرار.

[٢٣] التخطيط

إن المستقبل مجهول لا يدري المرء ما سيحدث فيه، الأمر الذي يجعله يخشاه فيُخطّط ليدرأ ما قد يأتي من أحداث أو ليُقلّل من خطرها فيما إذا تمّ، أو يُحاول أن يتدخّل في مجريات الأحداث. فقد تتوقّع الجماعة مداهمة عدوٍّ خارجي فلا تعرف القوة التي يداهمها فيها، ولا الطريق التي يسلكها فتُخطّط الجماعة لردّ ذلك العدوّ والانتصار عليه بتهيئة قوةٍ تفوق قوة الخصم، وشدّه كي يسلك طريقاً تكون في مصلحتها، وجرّه إلى ميدانٍ تُحقّق فيه السيطرة عليه، وتأمين النصر.

والمدن تنمو وتتطوّر ولا بُدّ من السيطرة على اتجاه نموها كي نُحافظ على الأرض الزراعية مثلاً، ونُوجّه اتساعها في الجهات غير الصالحة، إلاّ للبناء، ولإمكانية تأمين صرف مياه السيول المرتقبة أو مجاري المياه المستعملة، وحتى تستطيع السلطة المشرفة أن توصل المياه إلى السكان في المناطق المرتفعة. وتضبط الأبنية لفتح الشوارع وجعلها بعرضٍ معيّن تتفق مع المهمّة التي تُؤدّيها، ومع ارتفاع العمران كي يبقى الهواء في جريانه، ولا يُحبس فيسبب الخمول والكسل، وينشأ المرض والوباء. ولا بُدّ للمصانع من أن تكون في جهةٍ مُعيّنةٍ تنسجم واتجاه الريح بحيث لا يحمل دخانها والغازات المنطلقة منها إلى المدينة كي لا يضرّ بالسكان، وبحيث تكون مع ميل الأرض حتى يسهل تصريف مُخلّفاتها. كل هذا يجعل التفكير بالمستقبل والتخطيط له.

والتنمية الاقتصادية تحتاج إلى نظرةٍ مستقبليةٍ لإقامة السدود وضبط مياه الأنهار والسيول خوفاً من فيضاناتها المُدمّرة، وإفادةً من مياهها في الريّ،

وعملاً للملاحة فيها. وبناء المصانع الضرورية في أماكن توافر المادة الخام، وتكاثر اليد العاملة، وسهولة المواصلات، والقرب من الأسواق، وإمكانية النقل إلى الموانئ لتصدير الفائض، واستيراد ما نحتاج إليه. وعقد المعاهدات التجارية لتبادل السلع خوفاً من الكساد، وسدّ النقص من المواد وهذا كله يحتاج إلى التخطيط.

والتنمية الاجتماعية، وتطوير اليد العاملة، وإكسابها الخبرة الفنية، وتأمين حاجاتها الأساسية، ومعرفة عدد السكان، وتطوّرهم لتهيئة المدارس، وتأمين المشافي، وتسيير وسائل النقل و....

ووضع السياسات العامة، وتحديد الأهداف، واتباع الوسائل المُحقّقة للأهداف، والعمل على تطوير الدولة، والسعي وراء الغاية المنشودة، والمحاولة للوصول إلى الخطة المرسومة وهذا ما يُجبر المسؤولين من النظر إلى المستقبل لتحقيق غدٍ أفضل ينعم فيه الناس بالرخاء والطمأنينة والاستقرار وهذا هو التخطيط.

فالتخطيط عملية واعية لتحديد خطر سير العمل في المستقبل، واختيار أفضل طريقٍ أو مسارٍ للتصرّف لحلّ المشكلات المُقبلة، وتحقيق الهدف المُحدّد الذي يُعيّنه العاملون بوضوحٍ. ويُحدّد التخطيط مراحل العمل، والخُطوات التي تُتّبع، والطريق التي يسلكها المُنفّذون، والتناسق بين الأهداف كي لا يتعارض بعضها مع بعض بل لتتكامل وتنسجم في سبيل الوصول إلى الغاية النهائية التي تنشدها الجماعة. وبذا يُحقّق التخطيط الأمن النفسي.

والإسلام يدعو إلى النظر في المستقبل والتفكير والتهيئة والإعداد والاستعداد، ولم تقم دولة الإسلام إلاّ بالتخطيط والإعداد اللازم لذلك، وإذا كان علماء التخطيط اليوم يقسمون مراحل العمل إلى:

١ ـ مرحلة الإعداد التحضيري.

٢ ـ مرحلة تحديد الأهداف.

٣ ـ مرحلة إقرار الخطة.

٤ ـ مرحلة التنفيذ.

٥ ـ مرحلة متابعة التنفيذ.

٦ ـ مرحلة تعديل الخطة إن دعت الحاجة إلى ذلك.

لقد قام رسول الله ﷺ، بالدعوة، ورسم خطةً، وبدأ بالتنفيذ ومتابعتها فالأهداف مُحدّدة، وإقرار الخطة قائم، ولا تحتاج إلى تعديل.

لقد بدأ رسول الله ﷺ، في مرحلة الإعداد التحضيري فبقي ثلاث سنوات يلتقي بأصحابه الأوائل سرًّا في دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي بالصفا، يُعلّمهم الإسلام، ويُرسّخ الإيمان في قلوبهم والعقيدة في نفوسهم حتى غدت كالجبال الرواسخ، وأصبحوا قاعدةً صلبةً يمكن الاعتماد عليها ومواجهة قريشٍ بها، فانطلق بعدها إلى المرحلة الثانية وهي مرحلة التنفيذ.

خرج رسول الله ﷺ، من مرحلة الدعوة السرية فدعا قومه قريشاً، وعرض عليهم فكرته، وحذّرهم وأنذرهم بصورةٍ جماعيةٍ، فسمعوا أمراً لم يألفوه، فأنكروه، ووقفوا ضدّه إذ خافوا على مركزهم، وصعُب عليهم ترك ما هم عليه من الغواية، وما هم فيه من الضلالة. فصار يلتقي بهم أفراداً وجماعاتٍ يُبّين الشرك الذي عليه قريش والناس أجمعين إلا من رحم الله، ويشرح الطريق المستقيم وما فيه من الهداية والخير لمن يسلكه، والعاقبة التي تنتظر المتقين وينتظرها المشركون.

لقد زاد عدد أصحابه لدرجةٍ قلّت بعدها الزيادة إذ وجد قلوباً غُلفاً صُمًّا كالحجارة أو أشدّ قسوةً، وقاومت قريش بكل وسائلها خوفاً على مصالحها فعدت على من أسلم منها، وأذاقتهم مُرّ العذاب الجسدي والنفسي، فلما اشتدّ أذى قريش وزاد طغيانها كان لا بُدّ لرسول الله ﷺ، من أن يجد حمايةً لأصحابه، مع متابعة العمل في تنفيذ خطته، فأشار على أصحابه بالهجرة إلى الحبشة لإيجاد مكان أمينٍ يأوي إليه من لم يتحمّل ضغط قريش، ومن لم يجرؤ على الإسلام خوفاً من العذاب فيكون سبيلاً

لإسلامه والفرار بدينه، ولعلّ الحبشة تكون ملجأً للمسلمين جميعاً فيما إذا عتا الطغيان على حدّه، أو مهداً جديداً للدعوة، فليست الدعوة مقصورةً على العرب، وليس من الضروري انطلاقها من أرض العرب فحيثما توافر المكان الملائم، والمُناخ المناسب انطلقت الدعوة وتفتّحت.

هاجر عدد من المسلمين من مكّة إلى الحبشة، ولا يزيد عددهم على العشرة، ثم تبعهم آخرون حتى وصل عددهم إلى ثلاثةٍ وثمانين مسلماً منهم مَن معه أهله، ومنهم من سافر وحده بلا أهل. فكانت حياتهم صعبة شاقة هناك لقلّة عددهم، ولوجودهم داخل مجتمع لم يألفوه، وفي وسط لا يعرفون لغته، ولتميُّزهم بعقيدتهم، ولحقد البطارقة والقُسس عليهم، ولتحريض النصارى على هؤلاء الغرباء بدافع الكره والصليبية هذا رغم ترحيب النجاشي بهم، ودعمه واحتضانه لهم ولولا ذلك لعاد المهاجرون من الأيّام الأولى، وقد سبّب ذلك للنجاشي متاعب من خصومه، وحركاتٍ، وقد نصره الله عليهم، فمكّن للمسلمين مُوقّتاً هناك رغم أن الغربة قد تغلّبت فعاد أربعة وثلاثون، منهم أصحاب الهجرة الأولى العشرة جميعهم.

كان قد بقي عدد من المسلمين في مكّة ليُتابعوا الطريق مع رسول الله ﷺ، إذ لم يُهاجر كل المسلمين إلى الحبشة، فكان رسول الله ﷺ، يعمل على تربية أصحابه وتوجيههم وفي الوقت نفسه يسعى لتنفيذ الخطة في سبيل الوصول إلى هدفه لإقامة الدولة الإسلامية.

لقد كان يعرض ﷺ، نفسه على القبائل في كل موسم عسى أن يُؤمن بعضها، ويقبل الدعوة فتكون وديارها قاعدةً للدولة الإسلامية التي يسعى لها، أو تقبله، وتتعهّد بحمايته فتكون قاعدة انطلاقةٍ جديدةٍ وإسلام أفرادٍ جددٍ يرفدون المجتمع الإسلامي الذي لا يزال صغيراً ضعيفاً مُشتّتاً عسى أن يكبر وتقوى شوكته ويتجمّع أعضاؤه، وقد أبقى ﷺ، الحبشة مقرًّا احتياطياً فيها بعض أصحابه. غير أن قريشاً قد حالت بينه وبين القبائل إذ كانت تُحذّرها منه وتُلازمه كالظلّ في الموسم لتُكذّبه في كل ما يقوله وتتّهمه بالجنون والسحر لتُنفّر منه القبائل.

وهاجر إلى مدينة الطائف سرًا بعيداً عن أعين قريش ليأمن مكرهاً عسى أن يجد في قبيلة ثقيف ما يرمي إليه، غير أنه قد عاد خائباً كئيباً إذ أغرت ثقيف سفهاءها وصبيانها به فقذفوه بالحجارة فأُدميت قدماه الشريفتان وحتى رقّت له قلوب غُلف، وتأثرت لما حلّ به نفوس ما اعتادت أن تتأثّر وترحم.

ورجع رسول الله ﷺ، وهو أكثر تصميماً لمتابعة طريقه وتحقيق هدفه، وشاء الله أن يلتقي سرًا في الموسم مع بعض حجاج يثرب فعرض عليهم دعوته فقبلوها، وتعاهدوا على اللقاء معه في الموسم القادم في المكان نفسه والزمان نفسه، وقد عرضوا دعوته على قومهم في مدينتهم، واستدار العام، وتمّ اللقاء، وحصلت البيعة، وقام العهد بين الطرفين، وبدأت الهجرة، وانتقل رسول الله ﷺ، إلى المدينة، وقامت دولة الإسلام، وتحقّق الهدف الأول، وتمّت المرحلة الثانية، ولكنه بقي ﷺ، ينظر إلى المستقبل ويخشى أن تعصف الريح بدولته الناشئة لذا فقد عمل على إبقاء أصحابه في الحبشة لتبقى هناك المقرّ الاحتياطي، ويبقى أصحابه القاعدة الاحتياطية فيها.

وتبرز المرحلة الثالثة وهي تقوية هذه الدولة الناشئة فعمل على المؤاخاة بين المسلمين بعضهم مع بعض ليكونوا كتلةً واحدةً في مُواجهة أيّ عُدوان سواء أكان داخلياً أم خارجياً، ثم وادع يهود لتكون المدينة صفاً واحداً لصدّ أيّ غزوٍ خارجي، ثم انطلق يدرس الأرض التي يتوقّع أن تكون ساحة القتال بين المسلمين وبين المشركين من قريش، وكانت هذه الدراسة بالغزوات والسرايا التي انطلقت قبل معركة بدر، ويُلاحظ أنها كلها كانت إلى جهةٍ واحدةٍ هي المنطقة الساحلية حيث طريق قوافل قريش من مكّة إلى الشام وبالعكس، كما كان لهذه الغزوات والسرايا مُهمّة أُخرى وهي التعرّف على القبائل التي تنزل في تلك الجهات ومُحاولة شدّها إلى صفّ المسلمين، أو على الأقل وقوفها على الحياد فيما إذا تمّ اللقاء بين المسلمين وقريشٍ، ولم تكن لهذه الغزوات والسرايا مُهمّة قتالية كما يتصوّر

بعضهم إلا إذا جعلنا فكرة الاستعداد ورفع الروح المعنوية والتشجيع في المواجهة المرتقبة في باب القتال، وقد تمّت الدراسة، وتمّ التعرّف على بعض القبائل، وغدا التهيؤ جاهزاً.

وجرت معركة بدر، وترسّخت أقدام المسلمين، وثبتت دعائم الدولة، ومع ذلك فإن رسول الله ﷺ، لا يزال يشعر بالخطر يُحدق بدولته، لذا فقد أبقى أصحابه في الحبشة. وجرت معركة أحد، وهبت ريح على المسلمين ثبتوا أمام هبوبها بعزم فتجاوزتهم بعد مرورها على الرجيع وبئر معونة، ثم عادت للمسلمين قوتهم بعد إجلاء يهود بني النضير، وغزوة الأحزاب، وغزوة بني قريظة، وغزوة بني المصطلق، وصلح الحديبية، وزال الخطر تقريباً عن الدولة الإسلامية، وعندها استدعى رسول الله ﷺ، أصحابه من الحبشة، إذ أرسل عمرو بن أُميّة الضمري إلى النجاشي ليحمل إليه أصحابه فقدم بهم في سفينتين. ولم يعد الأمر بحاجة إلى قواعد احتياطية أو مقرّ ثانٍ. وبدأت الدولة بعدئذٍ تتوسّع وتنتشر نحو تحقيق غايتها السامية.

وهكذا قامت الدولة نتيجة التخطيط الذي تمّ على مراحل، وأرى أننا مطالبون بالسير على المراحل التي سار عليها رسول الله ﷺ، وهي:

١ ـ مرحلة الإعداد التحضيري.

٢ ـ مرحلة الدعوة وطرح الأفكار.

٣ ـ مرحلة التنسيق وتقوية الصفوف.

٤ ـ مرحلة إقامة الدولة والعمل على تثبيت قواعدها.

[٢٤] الوسائل والغايات

لما كانت العقائد مختلفةً على هذه الأرض، ولكل عقيدةٍ منهج حياةٍ خاص بها، ونظرة خاصة إلى هذه المعمورة وما فيها من مخلوقاتٍ، ومُهمّة الإنسان في هذه الدنيا، لذا فإن غاياتها التي تسعى إليها تتباين كما أن الوسائل التي تتخذها للوصول إلى تلك الغايات مختلفة باختلاف عقائد أصحابها.

وإذا كانت الجاهليات كلّها تتفق بالوسائل التي تستعملها كي تصل إلى غاياتها باختلافاتٍ يسيرةٍ، ولكن مُعظمها وسائل لا تتفق مع الإسلام أو كما تسمّى اليوم «وسائل غير شريفة»، وبالتالي فالغايات لا تختلف كثيراً عن الوسائل التي اتبعت للوصول إليها مع فارقٍ طفيفٍ بين الجاهليات. فاليهود مثلاً غايتهم السيطرة على العالم، ويسعون إلى ذلك بالوسائل كلها، ويعملون بالطرق كي يُحقّقوا هدفاً من أهدافهم، ومن وسائلهم المرأة، والمال، والقتل، والعمالة، وتسخير الرجال، وشراء الأشخاص، وركوب التيارات العالمية، والأمواج الحزبية و.... وليس هناك من وسيلةٍ مهما كانت دنيئةً من حرجٍ في اتباعها.

أما بقية الجاهليات فتتنوّع عندهم الغايات فهناك غايات عسكرية وأخرى سياسية، أو اقتصادية، أو فكرية، وإذا كان أصحاب هذه الجاهليات من النصارى فكل غايةٍ عندهم مطبوعة بالطابع الصليبي سواء أكان ظاهراً أم مخفياً، وربما كان مُقنّعاً أو مُغطّىً لا يظهر للناس الذين لا يُفكّرون بالعقائد ولا يهتمّون بها، أو يظنّون أن العالم يسير على هذه الصورة التي يمشون عليها، أو استطاع الأعداء أن يُوهموهم بذلك حتى غطت الغشاوة على أعينهم كاملةً. وتُتخذ لهذه الغايات كلها وسائل غير شريفةٍ مهما كان نوعها، والمهمّ الوصول إليها.

وإذا كانت الغايات متنوعةً إلاّ أنها تلتقي في خطٍّ واحدٍ هو حبّ السيطرة لإذلال الأمم والشعوب الأخرى بدافعٍ صليبيٍ ولتعيش شعوبها على جثث الآخرين ودمائهم وثرواتهم وتُحقّق رغباتها وشهواتها البهيمية. إذن فغايات دول الأمم الجاهلية هي السيطرة، وغايات أفرادها اللذة البهيمية من طعامٍ، وشرابٍ، وجنسٍ، ومتاعٍ، وأثاثٍ لا غير، أو ليس لهم غايات إلا بما يحصلون عليه، ووسائلهم كلّ ما يمكنهم فعله.

أمّا الأُمّة المسلمة فغايتها رضاء الله سبحانه وتعالى، وما تقوم به في سبيل هذه الغاية فيه رضاء لله سواء أوصلت إلى هدفٍ من أهدافها أم لم تصل فهي تسعى إلى ذلك وتحصل على الأجر مقابل هذا السعي. والسعي لا ينتهي ما دامت توجد أهداف أمام الأُمّة من واجبها تحقيقها، وهذه الأهداف لا تنتهي لأن ساحة العمل الإسلامي هي الدنيا كلّها، وإزالة الظلم والطغيان من سطح المعمورة، وإحياء الأرض كلها وتحقيق الاستخلاف فيها، وهذه أهداف لا تنتهي على ما يبدو حتى تنتهي حياة الإنسان في هذه الدنيا. فعمل الأُمّة دائب وباستمرار.

وأفراد الأُمّة المسلمة غايتهم رضاء الله أيضاً، وكل ما يعملون من عمل مهما كان نوعه، ومهما كان حجمه يُعدّ عبادةً ولهم فيه أجر إذا كانت نيتهم فيه طاعة أو التقوية لطاعة الله، أو العفّة، أو الصبر على البلاء، أو الشكر لله على السرّاء. عن صهيب بن سنان، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذاك لأحدٍ إلاّ للمُؤمن إن أصابته سرّاء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»[1]. وليس على المسلم تحقيق الهدف وإنما السعي لذلك، ويحصل على الأجر أثناء سعيه، فالسعي وسيلة وغاية وهدف في الوقت نفسه، ولا يكون هذا إلا للمسلم.

وما دام الإنسان يسعى على الدوام فالمسلم يُحقّق أهدافه باستمرار

---

(١) أخرجه مسلم في باب الزهد، وأحمد في مسنده ١/ ١٧٣.

وهذا ما يدفعه إلى الحركة والعمل بجهدٍ وتضحيةٍ والانطلاق بإخلاصٍ واندفاعٍ بصورةٍ دائبةٍ وبذل لا ينقطع، وبذا كان المسلم أقدر على إحياء الأرض من غيره، وإنتاجه أكثر من غيره، ومردوده أكبر من غيره، وروحه المعنوية مُرتفعة إلى درجةٍ لا تُحدّ، وهذا تفسير انتصاراته الواسعة في المعارك التي خاضها في بداية الأمر عندما كان مستمسكاً بإسلامه وفي كل مرحلةٍ من مراحل التاريخ التي عاد فيها إلى دينه مستلهماً منه القوة وإلى ربه طالباً منه النصر مُخلصاً له النية والعمل. وإن الجهاد هو أقرب الطرق وأقصرها لتحقيق غاية المسلم المثلى وأفضلها للوصول إلى الدرجات العليا في الجنّة ولنرى بعض الأمثلة السريعة لهذا.

في غزوة مؤتة، وصل المسلمون إلى معان من أرض الشام، ونزلوا فيها، فبلغ الناس أن هرقل قد نزل مُؤاب من أرض البلقاء، في مائة ألفٍ من الروم، وانضمّ إليهم من لخم، وجذام، والقين، وبهراء، وبلي مائة ألف منهم، عليهم رجل من بلي ثم أحد أراشة، يقال له: مالك بن زافلة. فلما بلغ ذلك المسلمين أقاموا على معان ليلتين يُفكّرون في أمرهم، وقالوا: نكتب إلى رسول الله ﷺ، فنُخبره بعدد عدوّنا، فإمّا أن يُمدّنا بالرجال، وإما أن يأمرنا بأمره، فنمضي له. [إذ كان عدد المسلمين لا يزيد على ثلاثة آلاف، أي يُعادلون جُزءًا من سبعين من الروم ومن معهم من العرب المتنصرة أو أن كلّ مسلمٍ يُقابل سبعين من الأعداء، فلا يوجد مقياس من مقاييس الأرض كلها يجعل هذا العدد مُتكافئاً فما بالك بالنصر، ولكنه مقياس الإيمان الذي لا تفهمه الجاهليات]. فشجّع الناس عبد الله بن رواحة، وقال: يا قوم، والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون الشهادة، وما نُقاتل الناس بعددٍ ولا قوةٍ ولا كثرةٍ، ما نُقابلهم إلا بهذا الذين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين: إمّا ظهور وإمّا شهادة[1].

---

(١) انظر سيرة ابن هشام.

في اليرموك، كان عدد الروم مائتين وأربعين ألفاً، وعدد المسلمين أربعين ألفاً، أيَ أنّ كلّ مُسلم يُقابل ستين من الروم، ومع ذلك فقد كان انتصار المسلمين حاسماً، وتُعدُّ معركة اليرموك معركةً فاصلةً. وقد كان فيمن شهد اليرموك: الزبير بن العوام، وهو أفضل من هناك من الصحابة، وكان من فرسان الناس وشجعانهم، فاجتمع إليه جماعة من الأبطال يومئذٍ فقالوا: ألا تحمل فنحمل معك؟ فقال: إنكم لا تثبتون، فقالوا: بلى! فحمل وحملوا. فلما واجهوا صفوف الروم أحجموا وأقدم هو فاخترق صفوف الروم حتى خرج من الجانب الآخر، وعاد إلى أصحابه. ثم جاءوا إليه مرةً ثانيةً ففعل كما فعل في الأولى، وجرح يومئذٍ جرحين في كتفه[1].

ولم يفهم أعداء الإسلام الروح المعنوية العالية التي حملها المسلمون الأوائل تحت جوانحهم، ولم يُدركوا أن الغايات التي يسعون وراءها هي سبب تلك الروح، لذلك فقد علّلوها بأسبابٍ ماديةٍ طعناً في الإسلام، وإساءَةً لأبنائه، وإبعاداً للأجيال عن عقيدتهم، ثم كان ذلك التعليل حسب مفهومهم المادي.

لقد تكلّموا عن الانتصارات الواسعة التي حقّقها المسلمون في بداية عهدهم، والفتوحات الشاسعة التي قامت بها جيوشهم، والقوة التي امتاز بها أبطالهم بل جنودهم عامةً فقالوا: إن سبب ذلك إنما يعود إلى حاجتهم المادية، وفقرهم المدقع، فانطلقوا وراء السلب والنهب والقتل للحصول على الغنائم، فكذبهم الواقع الذي يقول: إن المسلمين قد تجلّت الإنسانية الكاملة عليهم أثناء فتوحاتهم بل وفي كل وقتٍ فقد كانوا أرحم من عرف التاريخ، أيديهم نظيفة لا تمتدّ إلى شيءٍ لا يملكون رغم فقرهم، نفوسهم عفيفة لا تتطلع إلى ما حرّم الله، بطونهم مليئة رغم خوائها. لا يعرفون الحقد، ولا يسعون لذلّ الأعداء، لكنهم يعملون لإخراج خصومهم من الظلمات إلى النور، وتخليصهم من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن جور

---

(١) انظر البداية والنهاية لابن كثير.

الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الحياة، ومن نظرة التشاؤم إلى الأمل برحمة الله، والتمتّع بزينة الحياة والطيبات من الرزق وما أحلّ الله. إن أجسامهم الهزيلة تحمل النفوس الأبيّة، وإن فقرهم الظاهر يملؤه الغنى النفسي ويحلّ محلّه. وإن الأرض لتنفتح أمام ناظريهم فيُمعنون فيها بدقةٍ، ويخُططون فيها لأنهم يعلمون أن الله قد استخلفهم فيها جميعها.

وقال الأعداء: إن المسلمين قد انطلقوا من صحرائهم الفقيرة إلى السهول الغنية ليأخذوا منها ما يسدّ نهمهم الذي أخرجهم، فتردّ عليهم الأرض: إن المسلمين قد انطلقوا إلى السهول الخضراء، والبوادي القفراء، والجبال الجرداء لا تهمّهم الأرض وما فيها، ولكن يهمّهم ساكنوها ومن فيها. يريدون إنقاذهم ومساواتهم بهم لا ما تحتويه بلادهم، فكم من أرضٍ تركوها بيد أهلها بعد أن أسلم أصحابها؟ وكم من سهولٍ خلّفوها لزُرّاعها مُكتفين بخراجها، وكم من بلادٍ اكتفوا من سكانها بالجزية عندما قبل أهلها دفع ذلك، والجزية شيء زهيد؟ وكم من مدنٍ أعاد المسلمون إليها الجزية عندما لم يستطيعوا حمايتها؟ لقد كان هدفهم السكان لا الأرض التي يُقيم عليها السكان، ورفع الناس لا إذلالهم، وإنقاذهم من ما هم فيه لا الضغط عليهم وكبتهم، وإسعادهم لا إفقارهم.

وقال الأعداء: إن المسلمين قد حرصوا للوصول إلى مناطق منيعةٍ تقيهم شرّ الجوار، وتكون حدًّا فاصلاً بينهم وبين خصومهم، فإذا بالواقع يصدمُهم إذ أن البحار التي وصلوا إلى سواحلها ما كانت أمامهم إلا برًّا يابساً وهم الذين لم يعتادوا ركوب البحر، ولا كانت لهم سفن تمخر عبابه فتجاوزوا بسرعةٍ هاتين النقطتين فملكوا السفن وصنعوها وكانوا أمراء البحر. ووصلوا إلى أعلى جبال العالم في آسيا فما كانت أمامهم عقبة إذ تسلّقوها وكأنّهم ما اجتازوا إلا سهولاً.

إن الإيمان وحده هو الذي كان يدفعهم، والنظر إلى الجنّة من خلال القتال، وهي غايتهم، وهذا الذي دفعهم إلى ركوب هذا المركب. إنّ الحواجز المنيعة والحدود الطبيعية لم تحلْ دون تقدُّمهم، ولم تقف أمام

هدفهم ومقصدهم ما داموا لا ينظرون إلى الأرض، ولا يُفكّرون إلا في الجنّة، ولا ينتظرون النصر إلاّ من الله، فلو كانت غايتهم السلب والنهب أو الفتح والقتل أو الاحتلال والاستعمار لثقُلت بهم الخيل، وحطّت بهم الهمّة وفترت فيهم العزيمة. ولو كانت غايتهم الوصول إلى أماكن منيعةٍ تقيهم شرّ الجوار، وتدفع عنهم خطر الأعداء لكانت تلك الجبال التي وصلوا إليها وسواحل البحر التي وقفوا عندها أفضل ما يوجد من حدودٍ على سطح هذه الأرض، ولكانت الفتوحات قد توقّفت عند أقدام الجبال وعلى شواطئ البحار، لقد اجتاز المسلمون هذه الموانع في المشرق كما اجتازوها في المغرب بل وفي كل مكان وجدت فيه ووصلوا إليه، إنه الإيمان الذي دفعهم إلى أن يتجشّموا المخاطر، ويركبوا المخاوف غير مُبالين. ولو كانت غايتهم المال والمغانم لما وصلوا بالأصل إلى تلك الأمصار النائية والأقاليم البعيدة، ولاقتصر زحفهم على المناطق الخصبة والأرجاء الغنية ولابتعدوا عن الصحاري المجدبة والأجزاء الماحلة والقفار الواسعة والتي كانت في الواقع تشهد أكثر معاركهم، وتقدّم جيوشهم وتحرّكاتها، وهي لا تُنتج إلا الشوك ولا تُنبت إلاّ القتاد. ولو كانت غايتهم السيطرة لاكتفوا باحتلال المراكز المهمّة والمواقع ذات الأهمية الخاصة فإن جندهم قليل وعددهم ضئيل. لقد كانت غايتهم إعلاء كلمة الله ونشر العقيدة الإسلامية وإخراج الناس من الظلمات إلى النور، وكان كلما آمن فوج انخرط أبناؤه في صفوف إخوانه المجاهدين يحملون راية القرآن حتى انتشر الإسلام.

لم يلو المسلمون أثناء تقدّمهم على شيءٍ، ولم يُفكّروا فيما وراءهم. لم يُفكّروا بأرضهم ولم يرتبطوا بترابهم، ولم يخافوا على أهليهم من بعدهم حيث وليُّهم الله، فلو فكّروا لأضاعوا النصر وخسروا المعركة، وعادوا إلى الموطن الذي ارتبطوا به ينتظرون الغزاة لتستذلّهم، وتطأ ديارهم، وتجوس خيول أعدائهم أرضهم. لقد طلب المسلمون الشهادة فوُهبت لهم الحياة، وسادوا الدنيا عندما طلبوا النصر من الله، وعندما ارتبطوا بأرضهم وأخلدوا إليها أضاعوا أرضهم وفقدوا النصر من ربهم.

الخلاصة:

إن الشعوب غير المسلمة ليس لها من غايةٍ أو مُهمّةٍ في الحياة سوى تأمين حاجاتها البهيمية من طعامٍ وشرابٍ وجنسٍ على أوسع نطاقٍ وأحسن مستوىً وتتّخذ كلّ الوسائل الممكّنة لتحقيق ذلك سواء أكانت الوسائل شريفةً أم غير شريفةٍ، وغالباً ما تكون الثانية لأن الغاية غير النبيلة لا يوصل إليها إلاّ بمثلها.

وإن دول هذه الشعوب غير المسلمة غايتها السيطرة والاستعلاء لتحقيق الحاجات البهيمية لها ولشعوبها، وقد تضغط على شعوبها للاستئثار بالحاجات لنفسها على حساب الرعية ومن الرعية، وتتخذ من الرعية وسيلةً لتأمين طموحاتها وسيطرتها كالدول الشيوعية.

وإن الشعوب المسلمة ليس لها من غايةٍ سوى إرضاء الله بعبادتها وتحقيق استخلافها في الأرض وإظهار عبوديتها الكاملة لله سبحانه وتعالى، لذلك لا تسلك إلاّ السُّبُل التي تُرضي الله سبحانه وتعالى، فالغاية الكريمة ليس لها سوى الوسيلة الكريمة.

وإن الدولة الإسلامية لمن واجبها أن تقود شعوبها لتحقيق غايتها بفتح المجال أمامها لرفع الظلم، وإزالة الطغيان، وتحقيق العدل، وإعلان الجهاد للوصول إلى الشهادة، أو لتأمين النصر والتمكين في الأرض.

فالدول إذن تسعى لتحقيق غايات شعوبها، وحسب ما تكون الغايات تحرص الدول على تنفيذها.

[٢٥] الشورى

لقد أثّرت المفاهيم الجاهلية الحديثة في نفوسنا تأثيراً بليغاً، وتغلغلت في أفكارنا لدرجةٍ يصعُب التخلّص منها، وعندما نريد أن نبحث في بعض المفاهيم الإسلامية ونستخلصها من أيام رسول الله ﷺ، والخلفاء الراشدين تمثُل أمامنا المفاهيم الجاهلية، ويتعذّر علينا إبعادها، ونُسقط الماضي على الحاضر، والعكس هو الأصل، فنقع في ارتباكاتٍ لا نجد فيها لنا مخرجاً، ونتعثّر حتى يصعُب علينا القيام لنُقدّم أفكاراً صحيحةً وآراءً سديدةً، وغدونا نُفسّر الأحداث التاريخية من صدر الإسلام حسب الصورة التي تراءت لنا أثناء تعثُّرنا، ولا نستطيع أن نزيل ما عَلِق في أذهاننا من آثار الجاهلية فحين نتحدّث عن الشورى مثلاً لا نرى في سيرة رسول الله ﷺ، وخلفائه الراشدين من بعده إلا استشارةً لتطييب قلوب الصحابة، رضي الله عنهم، على حدّ رأي بعضهم، ومعرفة الرأي وتقليب وجهات النظر قليلاً، ثم يُعطي رسول الله ﷺ، أو الخليفة رأيه، وبذا لم يفهموا من هذه الحوادث التي سنتكلم عنها بعد قليل، إن شاء الله، إلا أنها استطلاع عام أو أن الشورى بمفهومنا الحديث ليست إلاّ مُعلمة. وصعُب على آخرين أن يروا مجلس الشورى يلتقي، وتتفق الآراء في جهةٍ ويُخالفها الأمير، ويُصدر أمره حسب رأيه الفردي، فلم يروا في هذه إلا طغياناً واستبداداً أو ديكتاتوريةً حسب المفهوم السائد اليوم، وذلك لأنهم تصوّروا الشورى مجلس يُعقد ويُتداول فيه الرأي، ويصوّت على هذا الاقتراح أو ذاك، لذا يُصرّون على أن تكون الشورى أكثريةً كي نتحاشى الاستبداد مُتأثّرين بشدّة الطغيان الذي يطحنهم، وقسوة الظلم الذي يُمزّقهم، وهم يُفسّرون الأحداث التاريخية نفسها أنها مُلزمة، والتي فسّرها أولئك أنها مُجرّد استطلاع رأي، ولم يسر

رسول الله ﷺ، والخلفاء من بعده إلا حسب رأي مجلس شوراه، وإذا كان رسول الله ﷺ، لم يتقيّد ببعض الشورى فذلك لأنّه يتلقّى الوحي من السماء، لذا فلم تكن هناك مُعارضة.

ليس الأمر هذا ولا ذاك، وليس موضوع أقليةٍ وأكثريةٍ، وليس موضوع حاكم ومعارضةٍ له، إن الأمر هو موضوع الشورى وهو موضوع الإسلام، ليس تسلّط (ديكتاتورية) ولا تسيّب (ديمقراطية). إن هناك أناساً بعصرنا قد فُتنوا بتوجيه النظام والضغط على السلطة التنفيذية لما رأوا من تميُّعٍ في الإدارة، وإهمالٍ في جهاز الحكم، وفوضى في المؤسسات، وتجاوزاتٍ في الدوائر، وفُتن آخرون بترك الحبل على الغارب (النظام الحرّ)، وقد غرّهم الانتخاب، والمجالس النيابية، والمعارضة، وحريات الأفراد التي ليس لها حدّ، وكرهوا ظلم المُستبدّين، وحكم الفرد، وتسلّط الطغاة فوجدوا نظاماً يُعطي الحرية ـ على حدّ زعم أصحابه ـ فأغراهم وفتنتهم بعض نظمه فساروا وراءها ولما كانوا يملكون شيئاً من عاطفةٍ إسلاميةٍ ظنّوا أن هذا النظام هو أقرب النظم إلى الإسلام فردّدوا ذلك، وانطلقوا يُبشّرون به، وهم لا يدرون أنهم يُخالفون الإسلام، ويُهدّمون بعض أُسّسه، ويظنّون أنهم يُحسنون صنيعاً.

لا يصحّ أن يستبدّ الهوى بالنفس، ولا الحاكم بالشعب، فالخليفة تَحُدُّ الشريعة من عمله ولا تسمح له أن يشطط، وأعطته الرعية البيعة على أن يحكُم بما أنزل الله وحسب سنة رسول الله، وأن يسير على نهج الخلفاء الراشدين فإن فعل فالبيعة قائمة، وإن خالف سقطت البيعة لأنه نكص بما عاهد عليه، ومن هنا لا يخشى المسلمون أن يستبدّ خليفة أو أن يطغى. وأما النظام الحرّ فلا يتماشى مع الإسلام أيضاً لأن للحرية حدود لا بدّ من أن تقف عندها حيث تبدأ حرية الآخرين وحيث تُحترم مشاعرهم. ولا فائدة من الأكثرية لأن معظمها من الرعاع والإمعات الذين يُحسنون إن أحسن الناس ويُسيئون إن أسأوا، وغالباً ما يخضع هؤلاء الرعاع لضغوطٍ في الانتخابات فتكون المجالس النيابية ذات أكثريةٍ وصلوا إليها بطرقٍ غير

صحيحةٍ فكان أعضاؤها: منهم صاحب الدور البارز، ومنهم قوى سكوت وهو الغالبية فلا فائدة من رأيهم، بل ليس لهم رأي يُقدمونه، ويجب ألا ننسى ما تقع فيه البلاد من أزماتٍ وفوضى أثناء عمليات الانتخاب، ولا شكّ فإن بعض بلدان العالم قد راق لها هذا النظام، ووجدت فيه شيئاً من الراحة والطمأنينة، أما نحن المسلمين فإن لدينا البديل، وما هو الأفضل، وما فيه الخير كل الخير لأنه من لدن حكيمٍ خبيرٍ، خالق الإنسان، والعالم وما يصلح لهما.

فالشورى تداول في الرأي في محاولة الوصول إلى الرأي الصحيح إن لم يكن هناك نصّ صريح، أو هي تقليب وجهات النظر للخروج باجتهادٍ سليمٍ، فهي تعاون بين المسؤول والرعية لتحقيق الخير، وتطبيق ما ينفع الناس، والمسؤول ملزم بتحقيق مبدأ الشورى إذ عليه أن يستشير الذين عُرفوا بالعلم، واشتهروا بالاستقامة وقول الحقّ، وهو ينصح للأُمّة بالاستشارة واختيار الرجال الذين يستشيرهم، والأمة تنصح للمسؤول بإبداء الرأي فلا تضنّ به أبداً، كما تنصحه بالسمع والطاعة عندما يصدر الرأي النهائي. ومن هذا يتبيّن أنه لا يوجد مجلس للشورى مُحدّد بأفرادٍ مُعينين، وإنما يستشير المسؤول عدداً من أهل الحلّ والعقد، ويختلف عددهم بين مرّةٍ وأخرى، وقد يختلف أشخاصهم أيضاً، وهذا ما كان يتّم أيام رسول الله ﷺ، وعهد الخلفاء الراشدين، ولما كان لا يوجد مجلس مُحدّد وبالتالي لا توجد أكثرية وأقلية، وفي الوقت نفسه لسنا مضطرين لأن نقول: الأكثرية مُلزمة أم مُعلمة، وإنما ساد النقاش حول هذا الموضوع لأننا نتصوّر مجلساً مُحدّداً، وعملية تصويت، كما يحدث اليوم فنريد أن نسقط الماضي الناصع على الحاضر الأسود، إذ نضع الأكثرية مكان الشورى، والشورى ملزمة ولا مجال لأكثرية أو أقلية.

ويتبيّن أيضاً أنه لا يوجد حاكم ومعارضة له كما هو شائع في النظام الديمقراطي، لأن الرجل من أهل الشورى يُبدي رأيه وليس له أن يتعلّق أو يتمسك فيه أو يُشهره للناس فمتى أصدر المسؤول اجتهاده سمع الجميع

وأطاعوا، وهذا واجب عليهم، ومن كان له رأي مُخالف يُحافظ عليه إذ لسنا مُلزمين بإجباره على اتباع غير ما يراه، ولكن لا يُعلن رأيه، وعليه السمع والطاعة.

ويشعر الجميع: الخليفة ومن يستشيرهم أنهم مسؤولون أمام الله في تطبيق الشورى، وإبداء الرأي، والنصح والسمع والطاعة، وأن ما يُؤدّونه نوع من العبادة فنحن أمام رجال مسلمين عُرفوا بالعلم، وصدق الإيمان، والنية الصادقة، والتزام الحدود، وممارسة المسؤولية ولسنا أمام رجال يُسيّرهم الهوى، وتحرّكهم المصلحة، لا يُقيمون للحدود وزناً ولا يخشون الله، ومن معرفتنا بالرجال اليوم يصبح عندنا غبش في مفهوم الشورى فنريد أن نضغط المفهوم ونحصره حتى يتفلّت وينقلب إلى ما يُقرّبه من النظام الديمقراطي.

فالشورى قاعدة اجتهادية فيها بحث عن الحقّ، وتنسيق للجهد، وعبادة، وسمع وطاعة، كما فيها إعداد وتدريب، ومعرفة لمواهب الرجال، وسدّ لباب الإساءة، وهي واجبة على المسؤول، وعلى أهل الرأي بل وعلى جميع الرعية وكلٌّ يتحرّى الحقّ، ويلتزم النصح ويشعر بالمسؤولية أمام الله.

ولنُعطي أمثلةً من حوادث السيرة وعهد الخلفاء الراشدين ولنحرص أن تكون هي الأمثلة التي ذكرها أهل الإلزام والإعلام واستقرأ كل طرف منها ما يُؤيّد وجهة نظره، ولنصل إلى النتيجة نفسها التي عرضناها في بداية الموضوع.

١" ـ في بدر:

أ ـ في القتال:

لما سمع رسول الله ﷺ، أن القافلة مُقبلة من الشام، ندب المسلمين إليها، وقال: هذه عير قريش، فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعلّ الله ينفلكموها. فانتدب الناس، فخفّ بعضهم، وثقُل بعضهم، وذلك أنهم لم يظنّوا أن رسول الله ﷺ، يلقى حرباً. ووصل الخبر إلى أبي سفيان فأرسل

من يستنفر قريشاً، فتجهّزت قريش وخرجت باتجاه المدينة، وخرج رسول الله ﷺ، غير أن العير قد نجت، وأتى الخبر رسول الله ﷺ، عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم، فاستشار الناس، وأخبرهم عن قريش؛ فقام أبو بكر الصديق، فقال وأحسن. ثم قام عمر بن الخطاب فقال وأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله، امض لما أراك الله، فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾[1] ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مُقاتلون، فوالذي بعثك بالحقّ لو سرت بنا إلى بَرْك الغِماد[2] لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه، فقال له رسول الله ﷺ، خيراً ودعا له.

ثم قال رسول الله ﷺ: أشيروا عليّ أيها الناس. وإنما يُريد الأنصار، وذلك أنهم عدد الناس، وأنهم حين بايعوه بالعقبة، قالوا: يا رسول الله، إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا، فإن وصلت إلينا، فأنت في ذمّتنا، نمنعك مما نمنع منه أباءنا ونساءنا. فكان رسول الله ﷺ، يتخوّف ألا تكون الأنصار ترى نصره إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوّه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدوٍّ من بلادهم، فلما قال ذلك رسول الله ﷺ، قال له سعد بن معاذ: والله لكأنك تُريدنا يا رسول الله؟ قال: أجل. قال: قد آمنا بك وصدّقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فنحن معك، فوالذي بعثك بالحقّ، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلّف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدوّنا غداً، إنا لصُبُر في الحرب، صُدُق في اللقاء، لعلّ الله يُريك منا ما تقرّ به عينك، فسر بنا على بركة الله. فسُرّ رسول الله ﷺ، بقول سعد؛ ونشّطه ذلك، ثم قال: «سيروا وأبشروا، فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم».

---

(١) سورة المائدة: الآية ٢٤.

(٢) برك الغماد: موضع باليمن.

ويبدو أن هذه لم تكن استشارة بالصورة التي تحدّث عنها الكتّاب حتى وصفها بعضهم أنها استشارة مصيرية. رسول الله ﷺ، يعلم أن المعركة لقائمة، فقد خرجت قريش تُريد القتال ومصمّمة على ذلك رغم نجاة العير، والمسلمون لا يُمكنهم الانسحاب فرجوعهم إلى المدينة يُسبّب هياجاً عليهم، وإضعافاً كبيراً لمعنوياتهم فالمنافقون كثر في المدينة يتربّصون الدوائر بالمسلمين، واليهود لا تزال لهم قوّتهم، إضافةً إلى أعدادٍ ليست قليلةً من الذين لم يُعلنوا إسلامهم بعد، وكلهم يُعادون المسلمين، ويجب ألا ننسى الأعراب من حول المدينة، وهم ينتظرون ما يُمكن أن تؤول إليه أوضاع المسلمين، وهذا لا شكّ يُؤدّي إلى إضعاف الروح المعنوية لدى المؤمنين، ثم ما هو الضمان لعدم ملاحقة قريش المسلمين إلى المدينة فيما إذا انسحبوا، وعندها تنشب الحرب أيضاً، وتكون ذات نتائج وخيمةٍ لأن أعوان المشركين يكونون قد كثروا، وعلى كلٍ فالحرب قائمة والأفضل أن تكون في البداية. وفوق كل هذا فقد أخبر الله سبحانه وتعالى نبيّه بأن القتال سيقع وسيكون النصر بجانب المسلمين، ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨﴾[1]. وقال لهم رسول الله ﷺ، مُخبراً المسلمين بذلك ومُشجّعاً ومُحرّضاً: «سيروا وأبشروا، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم»، وكذلك فإن المسلمين مؤمنون إيماناً لا تُزعزعه الجبال بأن رسول الله ﷺ، لا يسير إلا بأمر الله وأن الله معه، وأنه ناصرهم (امضى لما أراك الله). لذا فإن رسول الله ﷺ، يُريد أن يتكلّم المسلمون وخاصةً الأنصار لتتولّد القناعة بالقتال، وإذا تمّت القناعة كانت الحماسة، وكان النصر بإذن الله. وإلاّ فالحرب قائمة لا محالة، ومفروضة على المسلمين، ولا مجال للانسحاب، والله سبحانه وتعالى يريد أن يقع القتال ليُحقّ الحقّ ويُبطل الباطل ولو كره المجرمون. والاستشارة ليست في

---

(١) سورة الأنفال: الآيتان ٧، ٨.

موضع الإعلام ولا للإلزام، وإنما لإقامة القناعة وزيادة الحماسة.

ب ـ النزول على الماء:

ونزل رسول الله ﷺ، أدنى ماءٍ من بدر. فجاء الحُباب بن المنذر بن الجموح، فقال له: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل، أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدّمه، ولا نتأخّر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: «بل هو الرأي والحرب والمكيدة»، فقال: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى تأتي أدنى ماءٍ من القوم، فننزله، ثم نُغوّر ما وراءه من القُلُب، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماءً، ثم نُقاتل القوم فنشرب ولا يشربون. فقال رسول الله ﷺ: «لقد أشرت بالرأي». فنهض رسول الله ﷺ، ومن معه من الناس، فسار حتى أتى أدنى ماءٍ من القوم ونزل عليه، ثم أمر بالقُلُب فغُوّرت، وبنى حوضاً على القَليب الذي نزل عليه، فمُلئ ماءً، ثم قذفوا فيه الآنية.

لم تكن هذه الحادثة بالشورى، وإنما نزل رسول الله ﷺ، منزلاً لم ير الحُباب بن المنذر أنه منزل مُناسب للنزول، وما دام الأمر ليس من عند الله، فعليه واجب تقديم النصح، ففعل، وتمّت قناعة رسول الله ﷺ، بهذا الرأي، ولم يعترض أحد من المسلمين أيضاً، إذ اقتنعوا برأي الحُباب فنهض رسول الله ﷺ، إلى المكان الذي أشار إليه الحُباب، ونهض معه المسلمون إذ سمعوا وأطاعوا.

جـ ـ أسرى بدر:

وهنا نقطة مُهمّة يجب أن ننتبه إليها وهي أن النبي ﷺ، قال لأصحابه يومئذٍ (قبل بدء القتال): إني قد عرفت رجالاً من بني هاشم وغيرهم قد أُخرجوا كَرْهاً فمن لقي منكم أحداً من بني هاشم فلا يقتله، ومن لقي أبا البَختري بن هاشم بن الحارث بن أسد فلا يقتله، ومن لقي العباس بن عبد المطلب، عمّ رسول الله، فلا يقتله، فإنه إنما أُخرج مُستكرهاً. فقال أبو حذيفة: أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخوتنا وعشيرتنا. ونترك العباس! والله لئن لقيته لأُلحِمَنّه السيف، فبلغت مقالته رسول الله ﷺ، فقال لعمر بن

الخطاب: «يا أبا حفص أيُضرب وجه عمّ رسول الله بالسيف»؟ فقال عمر: يا رسول الله، دعني فلأضرب عنقه بالسيف، فوالله لقد نافق. فكان أبو حذيفة يقول: ما آمن من تلك الكلمة التي قُلت يومئذٍ، ولا أزال منها خائفاً، إلا أن تُكفّرها عني الشهادة. فاستُشهد يوم اليمامة.

لقد سمع المسلمون في بدرٍ جميعاً نداء رسول الله ﷺ: «من لقي العباس بن عبد المطلب عمّ رسول الله فلا يقتله».

وانتهت المعركة، وانتصر المسلمون نصراً مُبيناً، وقتلوا سبعين من قريش، وساقوا أمامهم مثلهم سبعين من الأسرى، كان بينهم العباس بن عبد المطلب عمّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

واستشار رسول الله ﷺ، أصحابه في أسرى بدر، فأعطى من أعطى رأيه فقال أبو بكر الصديق، رضي الله عنه: يا رسول الله، هؤلاء أهلك وقومك قد أعطاك الله الظفر والنصر عليهم، أرى أن تستبقيهم، وتأخذ الفداء منهم، فيكون ما أخذناه منهم قوةً لنا على الكفار، وعسى أن يهديهم الله بك فيكونوا لك عضداً. وقال عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: يا رسول الله، قد كذّبوك وقاتلوك وأخرجوك فأرى أن تُمكّنني من خالي خالد بن هشام بن المغيرة، فأضرب عنقه، وتمكّن حمزة من أخيه العبّاس، وعلياً من أخيه عقيل، وهكذا حتى يعلم الناس أنه ليس في قلوبنا مودة للمشركين، ما أرى أن يكون لك أسرى، فاضرب أعناقهم، هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم، ووافقه على ذلك سعد بن معاذ، وعبد الله بن جحش. وقال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله، أنت في وادٍ كثير الحطب، فأضرم الوادي عليهم ناراً، ثم ألقهم فيه. فسكت رسول الله ﷺ، فلم يردّ شيئاً. ثم قام فدخل. فقال ناس: يأخذ بقول أبي بكر، وقال ناس: يأخذ بقول عمر، وقال ناس: يأخذ بقول عبد الله بن رواحة. ثم خرج رسول الله ﷺ، فقال: إن الله ليُليّن قلوب رجالٍ حتى تكون ألين من اللبن، وإن الله ليُشدّد قلوب رجالٍ فيه حتى تكون أشدّ من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم، عليه السلام، قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَن

عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1] وإن مثلك يا أبا بكر كمثل عيسى عليه السلام قـال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾[2]. وإن مثلك يا عمر كمثل نوح عليه السلام قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾[3]، أنتم عالة، فلا يُفكّن أحد منهم إلاّ بفداء، أو ضربة عُنق. قال ابن مسعود قلت: يا رسول الله إلا سهيل بن بيضاء فإنه يذكر الإسلام، فسكت رسول الله ﷺ، فما رأيتني في يوم أخوف من أن تقع عليّ حجارة من السماء مني في ذلك اليوم، حتى قالَ رسول الله ﷺ، إلا سهيل بن بيضاء.

لقد طلب رسول الله ﷺ، من أصحابه الرأي في الأسرى مع أنهم يعرفون ما قاله: «من لقي العبّاس بن عبد المطلب، عمّ رسول الله، فلا يقتله» والعبّاس بين الأسرى أفيقتله وقد نهى عن قتله، وفي هذا تدريب ليُعبّر المرء عن رأيه بكل صراحةٍ، ويقول ما يعتقد بكل وضوحٍ، ثم يتنازل عندما يصدر رأي الأمير ويسمع ويُطيع ولو كان مُخالفاً لرأيه، مُبايناً لما يظنّ أنه الصحيح.

أبدى عدد من الصحابة آراءهم، وكانت متقاربةً أو متشابهةً تقريباً وهي القتل وإن كان بطرقٍ مختلفةٍ سوى أبي بكر، رضي الله عنه، الذي أعلن عن رأيه بالعفو، مُدلّلاً على رأيه بقول رسول الله ﷺ: «اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون. عسى أن يكون من أصلابهم من يقول لا إله إلا الله». فيقول رضي الله عنه: وعسى أن يهديهم الله بك فيكونوا لك عضداً. فكانت حجة أبي بكر، رضي الله عنه، قويةً على حين تتسم أقوال الصحابة الآخرين، رضي الله عنهم، بالعاطفة والحماسة، وإلقاء كل أواصر القرابة والمعرفة تحت الأقدام والاعتراف بوشيجةٍ واحدةٍ هي رابطة العقيدة، أخوة الإسلام ولا شيء سواها، ولهذا أيضاً أثره الكبير.

---

(١) سورة إبراهيم: الآية ٣٦.

(٢) سورة المائدة: الآية ١١٨.

(٣) سورة نوح: الآية ٢٦.

وثمة نقطة أخرى يجب أن ننتبه إليها وهي أن رسول الله ﷺ، لا يمكنه أن يقتل العباس لأنه كان مسلماً وعيناً له على قريش، فإن أظهر رسول الله ﷺ، ذلك، انتهت مهمة العباس، رضي الله عنه، وعليه أن يُهاجر إلى المدينة، ونلاحظ أن أبا بكر وحده هو الذي كان يعرف مهمة العباس، ويعرف معنى قول رسول الله ﷺ: من لقي العباس بن عبد المطلب، عمّ رسول الله، فلا يقتله. ومن هذا المنطلق كان رأي أبي بكر في موضوع الأسرى لأنه يعلم والجميع يعلمون أن رسول الله ﷺ، لا يمكن أن يمايز بين الأسرى، ويرغب أن يبقى العباس في مهمته لأنه يُؤدّي دوراً مهماً لمصلحة المسلمين، وبقيت مهمته حتى سار رسول الله ﷺ، إلى مكة فاتحاً، فأشهر العباس، رضي الله عنه، إسلامه ولقي رسول الله ﷺ، في الطريق، فرجع معه على حين تابعت أسرته المسلمة أيضاً طريقها في الهجرة إلى المدينة. ونلاحظ أن بعض كتاب السيرة، ومنهم ابن هشام لا يذكر العباس بين أسرى بدر لأنه كان يعدّه مسلماً.

وعلى كل لم يكن رسول الله ﷺ، مُخالفاً لرأي أصحابه ممن أبدى رأيه في الأسرى لأسباب:

أ ـ إن الذين أبدوا رأيهم في موضوع الأسرى لا يزيد عددهم على الستة، خمسة منهم في رأي واحدٍ وهم: عمر بن الخطاب، علي بن أبي طالب، سعد بن معاذ، عبد الله بن جحش، عبد الله بن رواحة، ولأبي بكر رأي آخر. فلا يمثّل هذا العدد سوى نسبةٍ صغيرةٍ بين المسلمين، ولا يعدّ هؤلاء الصحابة مُمثّلين لآراء بقية المسلمين الذين سكتوا ما دام فيه رأي مخالف. فسكوت بقية الصحابة سكوت استماع لا سكوت تأييد بسبب وجود آراء مُتباينة.

ب ـ هناك مصلحة عليا للأمة لا يمكن لرسول الله ﷺ، أن يتكلّم عنها، وهي مهمة العباس، رضي الله عنه، في مكة بين قريش، وهذا ما يمكن أن يتصرّف به الخليفة.

جـ ـ ما كان لرسول الله ﷺ، أن ينطق عن الهوى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ

يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾، فالمسلمون يسمعون ويطيعون وقد لا يعرفون الحكمة.

إذن لا يمكن أن يستنتج من حادثة أسرى بدر أن الشورى مُعلمة.

وثمة أمر آخر يجب أن ننتبه إليه وهو أن العتاب قد جاء على عدم الإثخان في القتل أثناء المعركة لا في الأسرى إذ اهتم كثير من المسلمين أثناء القتال بأسر الرجال لأخذ الفداء منهم أكثر من اهتمامهم بالقتل فقد أسروا سبعين رجلاً وهو عدد كبير وفي الوقت نفسه لم يقتلوا سوى سبعين قتيلاً وهو عدد قليل إذ قارناه مع الأسرى. وكان عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، يشدّ على الأعداء، ويُثخن فيهم القتل، ولم يُبال بالأسر، وهنا جاءت الموافقة القرآنية لتصرّفه وإثخانه، كما أن سعد بن معاذ قال: «الإثخان أحبّ إليّ من استبقاء الرجال» وذلك عندما رأى الأسر وهو مع رسول الله ﷺ، في العريش. ويقول ابن عطية، رحمه الله، في تفسيره لهذه الآية: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾[1]. والذي أقول في هذا: إن العتب لأصحاب النبي ﷺ بقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ﴾ إلى قوله عظيم إنما هو على استبقاء الرجال وقت الهزيمة رغبةً في أخذ المال منهم، وجميع العتب إذا نظر فإنما هو للناس، وهناك كان عمر، رضي الله عنه، يقتل ويحضّ على القتل ولا يرى الاستبقاء، وحينئذٍ قال سعد بن معاذ: الإثخان أحبّ إليّ من استبقاء الرجال، ولذلك جعلهما رسول الله ﷺ، ناجيين من عذاب لو نزل، ومما يدلّ على حرص بعضهم على المال قول المقداد حين أمر رسول الله ﷺ، بقتل عقبة بن أبي مُعيط: «أسيري يا رسول الله» وقول مصعب بن عُمير للذي يأسر أخاه: «شدّ يدك عليه فإن له أمًّا موسرة»، إلى غير ذلك من قصصهم. فلما تحصّل الأسرى وسيقوا إلى المدينة، وأنفذ رسول الله ﷺ، القتل في النضر وعُقبة، والمنّ في أبي عزّة وغيره، وجعل يرتئي في سائرهم نزل التخيير من الله تعالى، فاستشار

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٦٧.

رسول الله ﷺ، حينئذٍ، فمرّ عمر، رضي الله عنه، على أول رأيه في القتل، ورأى أبو بكر، رضي الله عنه، المصلحة في قوة المسلمين بمال الفداء، ومال رسول الله ﷺ، إلى رأي أبي بكر، رضي الله عنه، وكلا الرأيين اجتهاد بعد تخيير، فلم ينزل على شيءٍ من هذا عتب، وذكر المفسرون أن الآية نزلت بسبب هذه المشورة والآراء، وذلك معترض بما ذكرته، وكذلك ذكروا في هذه الآيات تحليل المغانم لهذه الأمة، ولا أقول ذلك، لأن حكم الله في تحليل المغنم لهذه الأمة قد كان تقدّم قبل بدر، وذلك في السرية التي قُتل فيها عمرو بن الحضرمي، وإنما المبتدع في بدر استبقاء الرجال لأجل المال، والذي منّ الله به فيها إلحاق فدية الكافر بالمغانم التي قد تقدّم تحليلها[1].

وجاء في الصحيحين عن جابر بن عبد الله، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: أُعطيت خمساً لم يُعطهن أحد من الأنبياء قبلي، نُصرت بالرعب مسيرة شهرٍ، وجُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأُحلّت لي الغنائم ولم تُحلّ لأحدٍ قبلي، وأُعطيت الشفاعة، وكان النبيّ يُبعث إلى قومه وبُعثت إلى الناس عامةً.

والإمام مُخيّر عند جمهور العلماء إن شاء قتل كما فعل رسول الله ﷺ، في قتل النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط لشدّة إيذائهما، وإن شاء فادى، كما فعل في بقية الأسارى، وإن شاء استرقّ. وغالباً ما يُستبقى الأسرى إن لم تكن لهم جرائم كبيرة تقتضي معها مصلحة الأمة والإنسانية عدم الاستبقاء عليهم، لأنه ربما يهديهم الله ويتوبون إليه وهذا ما كان يحرص عليه رسول الله ﷺ.

٢" ـ في أحد:

وخرجت قريش لقتال المسلمين والثأر مما وقع في بدر، ونزلت

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لأبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي «تفسير ابن عطية» ج٦، ص٣٨٠ ـ ٣٨١ الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ الدوحة ـ قطر.

بالقرب من جبل أحد مقابل المدينة، ولما سمع بهم رسول الله ﷺ، والمسلمون، قال رسول الله ﷺ، للمسلمين إني قد رأيت والله خيراً، رأيت بقراً، ورأيت في ذباب سيفي ثَلْماً، ورأيت أني أدخلت يدي في درعٍ حصينةٍ فأوّلتها المدينة. ويروى أنه قد أوّل البقر التي تذبح بقتل أناسٍ من أصحابه كما أوّل الثلم برجل من أهل بيته. فقال للمسلمين بعد ذلك: إن رأيتم أن تُقيموا بالمدينة، وتدعوهم حيث نزلوا، فإن أقاموا أقاموا بشرّ مقام، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها. وكان ﷺ، يكره الخروج، واتفق رأي عبد الله بن أبيّ بن سلول كبير المنافقين مع رأي رسول الله ﷺ، إذ قال لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، أقم بالمدينة لا تخرج إليهم، فوالله ما خرجنا منها إلى عدوٍّ لنا قط إلا أصاب منا، ولا دخل علينا إلا أصابنا منه، فدعهم يا رسول الله، فإن أقاموا أقاموا بشرّ محبس، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجههم، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا. غير أن رجالاً، ومنهم من فاتته معركة بدر قالوا لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، اخرج بنا إلى أعدائنا، لا يرون أنا جبنّا عنهم وضعفنا، ولم يزالوا به حتى دخل إلى بيته ولبس لأمته، وذلك يوم الجمعة حين فرغ من الصلاة. فلما خرج عليهم رسول الله ﷺ، وقد استعدّ للقتال ندم الناس الذين ألحّوا عليه بالخروج وقالوا: استكرهنا رسول الله ﷺ، ولم يكن لنا ذلك، فقالوا له: يا رسول الله، استكرهناك ولم يكن ذلك لنا، فإن شئت فاقعد صلّى الله عليك. فقال رسول الله ﷺ: «ما ينبغي لنبيٍّ إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يُقاتل».

ليس هناك ما يدلّ على رأي كبار الصحابة في هذا الموضوع، وإنما كانوا ينتظرون أوامر رسول الله ﷺ، ولم يكن من رأي يصرّ على البقاء في المدينة سوى رأي عبد الله بن أُبيّ بن سلول، ولا يعتدّ به لأنه كان كبير المنافقين، ولم يستمع، ولم يطع، وبقي مُعارضاً، ثم انخزل بثلث الناس، وقال: أطاعهم وعصاني، ما ندري علام نقتل أنفسنا، ورجع بمن تبعه من قومه من أهل النفاق والشكّ. وقد جاء في إمتاع الأسماع للمقريزي ما

يُعطي آراء بعض صحابة رسول الله ﷺ، إذ جاء: وقال أشيروا عليّ. ورأى رسول الله ﷺ، ألا يخرج من المدينة فوافقه عبد الله بن أبي، والأكابر من الصحابة مهاجرهم وأنصارهم، وقال عليه السلام: امكثوا في المدينة واجعلوا النساء والذراري في الآطام، فإن دُخل علينا قاتلناهم في الأزقّة فنحن أعلم بها منهم، ورُموا من فوق الصياصي والآطام، وكانوا قد شبّكوا المدينة بالبنيان من كل ناحيةٍ فهي كالحصن. فقال فتيان أحداث لم يشهدوا بدراً، وطلبوا الشهادة وأحبّوا لقاء العدو: اخرج بنا إلى عدوّنا. وقال حمزة، وسعد بن عبادة، والنعمان بن مالك بن ثعلبة في طائفةٍ من الأنصار: إنا نخشى يا رسول الله أن يظنّ عدوّنا أنا كرهنا الخروج إليهم جبناً عن لقائهم، فيكون هذا جرأةً منهم علينا، وقد كنت يوم بدرٍ في ثلاثمائة رجل فظفّرك الله عليهم ونحن اليوم بشر كثير، وقد كنا نتمنّى هذا اليوم، وندعو الله به، فساقه إلينا في ساحتنا، ورسول الله ﷺ، لما يرى من إلحاحهم كاره، وقد لبسوا السلاح. وقال حمزة: والذي أنزل عليك الكتاب لا أطعم اليوم طعاماً حتى أُجالدهم بسيفي خارج المدينة. وكان يوم الجمعة صائماً ويوم السبت صائماً. وتكلّم مالك بن سنان والد أبي سعيد الخدري، والنعمان بن مالك بن ثعلبة، وإياس بن أوس بن عتيك في معنى الخروج للقتال، فلما أبوا إلا ذلك، صلّى رسول الله ﷺ، الجمعة بالناس، وقد وعظهم وأمرهم بالجد والجهاد، وأخبرهم أن لهم النصر ما صبروا، ففرح الناس بالشخوص إلى عدوهم، وكره المخرج كثير. ثم صلّى العصر بالناس وقد حشدوا، وحضر أهل العوالي، ورفعوا الناس في الآطام. ودخل رسول الله ﷺ، بيته ومعه أبو بكر وعمر، رضي الله عنهما، فعمّماه ولبّساه، وقد صُفّ الناس له ما بين حجرته إلى منبره. فجاء سعد بن معاذ، وأُسيد بن حضير فقالا للناس: قلتم لرسول الله ﷺ، ما قلتم واستكرهتموه على الخروج، والأمر ينزل من السماء، فردّوا الأمر إليه فما أمركم فافعلوه، وما رأيتم له هوى أو رأي فأطيعوه، فبيناهم على ذلك إذ خرج رسول الله ﷺ، قد لبس لأمته، ولبس الدرع فأظهرها، وحزم وسطها بمنطقة من حمائل سيف، واعتمّ، وتقلّد السيف. فقال الذين يُلحّون: يا

رسول الله، ما كان لنا أن نُخالفك، فاصنع ما بدا لك. فقال: «قد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتم، ولا ينبغي لنبيٍّ إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه. انظروا ما أمرتكم به فاتبعوه. امضوا على اسم الله فلكم النصر ما صبرتم»[1].

مع أن في النفس شيء من هذه الرواية إذ تتنافى مع ما كان عليه صحابة رسول الله ﷺ، من نبيّهم الكريم، إذ لا يمكن للحمزة، رضي الله عنه، أن يُحاول فرض رأيه حتى على رسول الله ﷺ، ومع هذا أقول: لم تكن هناك شورى، وإنما أبدى بعض المسلمين رأيهم، ودفعتهم الحماسة للخروج من المدينة لملاقاة أعدائهم خوفاً من اتهامهم بالجبن، وخوفاً من رفع معنويات الأعداء. ورأى رسول الله ﷺ، هذه الرغبة، ورأى هذه الحماسة فوافقهم، ولبس لأمته، حتى إذا رأوا أنهم استكرهوا رسول الله ﷺ، على الخروج فندموا على ذلك، وأرادوا أن يرجعوا عما فعلوه، وأحبّوا أن يرجع رسول الله ﷺ، فيبقى في المدينة، غير أن ذلك لا يمكن أن يكون، لأن رسول الله ﷺ، قد عزم على الخروج، وتوكّل على الله، وليس هو بالمُتردّد لذا فقد قال لهم: «لا ينبغي لنبيٍّ إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه....».

عزم رسول الله ﷺ، على الخروج لملاقاة الأعداء، وانطلق، وسمع المسلمون وأطاعوا وخرجوا، ولكن المنافقين بقوا على رأيهم في عدم الخروج فلم يسمعوا ولم يُطيعوا بل انخذل كبيرهم عبد الله بن أُبيّ بن سلول بثلث الناس.

لم تكن هناك شورى لأن الذين تكلّموا في موضوع الخروج أو عدمه ليسوا جميعهم من أهل الشورى وإنما أهل الشورى بينهم قلّة، وسواد الناس لا يُؤخذ تصرّفهم لأن العاطفة تُحرّكهم، وهذا ما كان فقد تكلّم من تكلّم في الخروج حماسةً، ومن تكلّم في عدم الخروج تحدّث خوفاً من أن يكون

---

(١) إمتاع الأسماع للمقريزي الجزء الأول ص١١٦ ـ ١١٨، طبعة الشؤون الدينية بدولة قطر.

رسول الله ﷺ، قد خرج مُستكرهاً، ولا قيمة لرأي عبد الله بن سلول لنفاقه، وأيّد ذلك عدم سماعه، وانخذاله بمن معه من قومه من المنافقين.

وما دامت لا توجد شورى في هذه الحادثة فلا يمكن أن نستنتج منها أن الشورى مُلزمة أو مُعلمة، وفوق هذا كله لم يكن هناك إحصاء لأصحاب هذا الرأي أو ذاك، وليست القضية قضية قلّة أو كثرة وإنما يتعلّق بأهل الشورى وآرائهم ولا يرتبط أبداً بالحديث حماسةً وعاطفةً.

٣" ـ في الخندق:

أ ـ حفر الخندق:

أشار سلمان، رضي الله عنه، على رسول الله ﷺ، حفر الخندق، فاقتنع رسول الله ﷺ، بهذا العمل، ولم يجد آراء مُباينةً له إذا سكت الجميع فأنفذ الأمر، وتمّت عملية حفر الخندق.

ب ـ مصالحة قادة غطفان:

لما اشتدّ على الناس البلاء يوم الخندق بعث رسول الله ﷺ، إلى عُيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر، وإلى الحارث بن عوف بن أبي حارثة المرّي، وهما قائدا غطفان فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه، فجرى بينه وبينهما الصلح، حتى كتبوا الكتاب ولم تقع الشهادة، ولا عزيمة الصلح، وإنما المفاوضة، ويريد رسول الله ﷺ، أن يُضعف الأحزاب، وأن يُفرّق كلمتهم، فتضعُف معنوياتهم، ويخشى بعضهم أن تدور عليه الدائرة فينسحب بمن معه. ولما أراد أن يُوثّق ما أقدم عليه بعث إلى سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، وهما سيدا الأنصار فذكر ذلك لهما، واستشارهما فيه، فقالا له: يا رسول الله، أمراً تُحبّه فنصنعه، أم شيئاً أمرك الله به، ولا بدّ لنا من العمل به، أم شيئاً تصنعه لنا؟ قال: بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأنني رأيت العرب قد رمتكم عن قوسٍ واحدةٍ، وكالبوكم من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمرٍ ما؛ فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله، قد كنا نحن وهؤلاء

القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله، ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرةً إلاَّ قِرىً أو بيعاً، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزّنا بك وبه نُعطيهم أموالنا والله ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نُعطيهم إلاَّ السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم؛ قال رسول الله ﷺ: فأنت وذاك. فتناول سعد بن معاذ الصحيفة، فمحا ما فيها من الكتاب، ثم قال: ليجهدوا علينا.

لقد وافق رسول الله ﷺ، سيدي الأنصار على رأيهما ما داما واحداً، وما دامت عزيمة القتال والصبر قائمة، فلو كان رأي سيدي الأنصار مختلفاً لكانت هناك مناقشة وتقليب وجهات النصر والاضطرار إلى مشاركة آخرين في الرأي، غير أنه كان واحداً، ولو كانت العزيمة على القتال ضعيفة أو هناك تردّد لكان من الضروري البحث عن بدائل ثانية، لكن العزيمة كانت قويةً، والصبر على الشدائد فيه صدق وجدية.

٤" ـ في الحديبية:

اتجه رسول الله ﷺ، والمسلمون إلى مكة على نية زيارة البيت وتعظيمه، وهذا أمر معروف بين العرب منذ أيام إبراهيم وإسماعيل، عليهما السلام، ولا يحقّ لسكان البيت أن يحولوا دون زيارة أحدٍ له مهما كان على خلافٍ معه، وأصبحت قريش هي المسؤولة عن حماية البيت والحجّاج إليه، والمسؤولة عن تقديم ما يجب للحاج. غير أن قريشاً تعدّت حدودها، وطغت ووقفت في وجه رسول الله ﷺ، والمسلمين، وعملت على منعهم من زيارة البيت، فاتجه رسول الله ﷺ، إلى أصحابه قائلاً: أشيروا عليّ أيها الناس. فقام أبو بكر، رضي الله عنه، فقال: يا رسول الله خرجت عامداً لهذا البيت لا تُريد قتال أحدٍ ولا حرباً، فتوجّه له، فمن صدّنا عنه قاتلناه، ولم يعترض أحد من الصحابة على قول أبي بكر، فعُدّوا مُوافقين. فأقرّ ذلك رسول الله ﷺ، وقال: «فامضوا على اسم الله».

وجاء الأمر من السماء على غير ذلك، إذ خلأت القصواء، وقال

الناس ما قالوا. فقال ﷺ: «ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل». أي لم يأذن الله بالسير، وقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يسألوني خطةً يُعظّمون حُرمات الله إلا أعطيتهم إياها».

وتمّ الصلح، ولم يُعد الأمر بحاجةٍ إلى شورى ما دام الأمر من الله، ولم يستطع كثير من الصحابة أن يُدركوا كنه هذا الصلح وما فيه من فتحٍ عظيمٍ، فاعترض بعضهم، ومنهم عمر بن الخطاب فقال له رسول الله ﷺ: «إني رسول الله، ولست اعصيه، وهو ناصري». وانتهى الصلح فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «قوموا فانحروا» فما قام رجل منهم، فكرّرها مراتٍ ثلاث فما نهض أحد منهم، فانطلق ﷺ، إلى خيمته مغتّماً، فلما رأته زوجه أم المؤمنين أم سلمة هند بنت أبي أُمية المخزومية قالت له: ما بك يا رسول الله؟ قال: «هلك الناس»، وأخبرها بما جرى فأشارت عليه بأن يبدأ بنفسه فينحر هديه ويحلق فوافق رأيها ففعل فأسرع الصحابة يتسابقون إلى تقليد رسول الله ﷺ. قد بدأ بنفسه فالأمر لم يبق بحاجةٍ إلى تعليلٍ أو تأويل، وهذا يكفي، يقوم رسول الله ﷺ، بعمل فيُبادر كل مؤمنٍ إلى القيام بما قام به الرسول الكريم، وإن كانت من قبل لديه ملاحظات أو اعتراضات وأدها في مكانها، واتجه في مسرىً جديدٍ.

٥" ـ في خيبر:

بدأ الهجوم الإسلامي على خيبر من الناحية الشمالية حتى لا يهرب اليهود إلى إخوانهم في «تيماء» و«وادي القرى» و«فدك» وإلى بلاد الشام. وكان الهجوم باتجاه منطقة «النطاة»، ولقي المسلمون مقاومةً عنيفةً، حتى فتح اليهود عدة مرات الحصون، وانطلقوا نحو المسلمين يقاتلونهم دلالةً على مقاومتهم وارتفاع معنوياتهم يومذاك، وعلى غير العادة، حتى إذا رُدّوا على أعقابهم دخلوا الحصون، وأغلقوا عليهم الأبواب. وقد أُصيب عدد من المسلمين يومذاك نتيجة رمي نبال اليهود من داخل حصونهم.

أشار الحُباب بن المنذر على رسول الله ﷺ، أن المكان الذي ينزل فيه المسلمون غير مناسب، فإن كان وحياً فلا مناص لتغييره، وإن كان رغبة رسول الله ﷺ، فالسكوت عنه واجب، أما إن كان مكيدةً وخطةً حربيةً فيمكننا التحوّل عنه إذ أنه مكشوف، والحصون مرتفعة تُطلّ على معسكر المسلمين، وتضعهم على مرمى النبال، إضافةً إلى أن المنطقة موبوءة بسبب النخيل، وقد مرض عدد من المسلمين: فأجاب رسول الله ﷺ: بل إنها المكيدة، فأشار الحُباب بن المنذر بالانتقال إلى مكان آخر، فتمّ التغيير في الليل بعد أن أتمّ المسلمون نهارهم الأول في القتال.

لقد كان رسول الله ﷺ، يستشير في أكثر أموره، ويروي الترمذي عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أنه قال: ما رأيت أحداً أكثر مشورةً لأصحابه من رسول الله ﷺ، لأصحابه.

ونلاحظ أن رسول الله ﷺ، قد استشار عدداً من الصحابة في عائشة، رضي الله عنها، بعد حادثة الإفك على الرغم من أن الموضوع خاص جداً، ويرتبط في حرمة أهله فقد استشار علياً، وأُسامة، واستشار زوجه زينب بنت جحش، كما سأل بريرة جارية عائشة. حتى نزل الوحي ببراءة أم المؤمنين، رضي الله عنها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

الشورى أيام الصديق:

كان رسول الله ﷺ، قد أمر أُسامة بن زيد أن يسير بالناس، ويُغير على الروم، فامتثل أُسامة وعسكر بالجرف شمال المدينة حتى يتعبأ الناس، غير أن المنية قد عاجلت رسول الله ﷺ، ولا يزال الناس بالجرف مُعسكرين.

١" ـ بعث أُسامة:

وبُويع أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، بالخلافة، وارتدّت العرب

عندما وصل إليها نبأ وفاة رسول الله ﷺ. وأمر الصديق، رضي الله عنه، أُسامة أن يمضي إلى الوجهة التي وجّهه إليها رسول الله ﷺ، فأخذ الناس بالخروج إلى الجرف حيث كانوا يُعسكرون غير أن بعض الصحابة قد شقَّ عليهم خروج الجيش من المدينة، حتى كادت تفرُغ من رجالها على حين أنها مُهدّدة من الأعراب المرتدّين، فدخل عمر، وعثمان، وأبو عبيدة، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، رضي الله عنهم، على الخليفة، وقالوا له: يا خليفة رسول الله، إن العرب قد انتفضت عليك من كل جانب، وإنك لا تصنع بتفريق هذا الجيش المنتشر شيئاً، اجعلهم عدّةً لأهل الردّة ترمي بهم في نحورهم، وأُخرى: لا نأمن على أهل المدينة أن يُغار عليها، وفيها الذراري والنساء، ولو تأخّرت لغزو الروم حتى يضرب الإسلام بِجِرَانِه، ويعود أهل الردّة إلى ما خرجوا منه، أو يُفنيهم السيف، ثم تبعث أسامة، حينئذٍ فنحن نأمن الروم أن تزحف إلينا.

وعى أبو بكر، رضي الله عنه، كلام الذين دخلوا عليه فقال لهم: هل منكم أحد يريد أن يقول شيئاً؟ قالوا: لا. قد سمعت مقالتنا. فقال لهم: (والذي نفسي بيده لو ظننت أن السباع تأكلني بالمدينة لأنفذت هذا البعث، ولا بدّ أن يؤوب منه. كيف ورسول الله ﷺ، ينزل عليه الوحي من السماء يقول: «أنفذوا بعث أسامة». ولكن خصلةً أُكلّم بها أسامة. أكلّمه في عمر يُقيم عندنا، فإنه لا غنى بنا عنه. والله ما أدري يفعل أسامة أم لا، والله إن أبى لأُكرهه)[1].

اقتنع صحابة رسول الله ﷺ، بما قال الصديق، اقتنعوا عندما تذكّروا قول رسول الله ﷺ، وهو على فراش الموت: «أنفذوا بعث أسامة» ولا ينطق رسول الله ﷺ، عن الهوى، ورأوا عزيمة الصديق. وبقناعتهم لم تعد هناك مُشكلة خلافٍ أو مُعارضة في رأي، وإنما أصبح الجميع أصحاب رأيٍ واحدٍ. فهذا غير ما يتوهّم بعضهم أن الصديق استبدّ برأيه وأطاعوه، فليس

---

(١) حياة الصحابة الجزء الأول ـ باب الجهاد.

في الإسلام استبداد برأيٍ بل شورى، ومناقشة للموضوع للوصول إلى الحلّ السليم والطريق الصحيحة.

وفي رواية أن أسامة قال لعمر: ارجع إلى خليفة رسول الله ﷺ، فاستأذنه يأذن لي أن أرجع بالناس، فإن معي وجوه الناس، ولا آمن على خليفة رسول الله ﷺ، وثَقَل رسول الله وَثَقَل المسلمين أن يتخطّفهم المشركون. وقالت الأنصار فإن أبى إلا أن نمضي فأبلغه عنا واطلب إليه أن يُولّي أمرنا رجلاً أقدم سناً من أسامة.

فخرج عمر بأمر أسامة وأتى أبا بكر فأخبره، بما قال أسامة، فقال: يا خليفة رسول الله، إن العرب قد ارتدّت على أعقابها كُفّاراً كما قد علمت، وأنت تُريد أن تُنفذ جيش أسامة؟ وفي جيش أسامة جماعة العرب وأبطال الناس فلو حبسته عندك لتقوّيت به على من ارتدّ من هؤلاء العرب.

فقال أبو بكر: والله لو علمت أن السباع تجرّ برجلي إن لم أردّه ما رددته، ولا حلت لواءً عقده رسول الله ﷺ، فقال عمر: إن الأنصار أمروني أن أُبلّغك، وهم يطلبون أن تُولّي أمرهم رجلاً أقدم سناً من أسامة. فوثب أبو بكر، وكان جالساً، فأخذ بلحية عمر، فقال: ثكلتك أمك وعدمتك يا ابن الخطاب، استعمله رسول الله ﷺ، وتأمرني أن أنزعه؟[1].

اقتنع عمر، رضي الله عنه، من كلام أبي بكر، رضي الله عنه، إذ رآه يسير على نهج رسول الله ﷺ، وهذا ما يجب أن يكون عليه المسلمون جميعاً، وانطلق إلى جيش أسامة قانعاً بل سار يحمل رأي أبي بكر. فلما وصل إلى الجيش قال له الناس: ماذا صنعت؟ فقال: امضوا ثكلتكم أمهاتكم، ما لقيت في سبيلكم من خليفة رسول الله.

رأى أبو بكر أن يخرج إلى الجيش بنفسه يُشيّع الجيش، ويُوضّح رأيه للناس، ويطلب من أسامة إبقاء عمر بن الخطاب في المدينة. فنادى مُنادي

---

(١) تاريخ الطبري.

أبي بكر بعد الغد من متوفى رسول الله ﷺ، ليتمّ بعث أسامة ألا لا يبقين بالمدينة أحد من جند أسامة إلا خرج إلى عسكره بالجرف. وقام أبو بكر في الناس فحمد الله وأثنى عليه وقال: يا أيها الناس إني وُلّيتُ هذا الأمر وأنا له كاره. والله لوددت لو أن بعضكم كفانيه، وإنما أنا مثلكم، وإني لا أدري لعلكم ستُكلّفوني ما كان رسول الله ﷺ، يطيق. إن الله اصطفى محمداً على العالمين، وعصمه من الآفات، وإنما أنا مُتّبع، ولست بمبتدع، ولست بخيرٍ من أحدكم، فراعوني، فإن رأيتموني استقمت فتابعوني، وإن رأيتموني زغت فقوّموني، وإن رسول الله ﷺ، قُبض وليس أحد من هذه الأمة يطلبه بمظلمة ضربة سوط فما دونها، ألا وإن لي شيطاناً يعتريني، فإذا أتاني فاجتنبوني لا أؤثر في أشعاركم وأبشاركم.

اقتنع المسلمون جميعاً بعد ما سمعوا أن الخليفة لم يأت بجديد، وإنما يسير على هدي رسول الله ﷺ، فالرسول قال وهو على فراش الموت: «أنفذوا بعث أسامة». وأن رسول الله ﷺ، هو الذي أمّر أسامة، والمسلمون قانعون بحكم الله ورسوله بل إن هذا من الإيمان، وتُرفع صفة الإيمان عمن لا يقبل بحكم الله ورسوله. إذن لم تكن هناك شورى معلمة، واستبدّ الخليفة برأيه، بل إن المسلمين جميعاً أصبحوا برأيٍ واحدٍ، ويسمعون ويطيعون، ولم تكن هناك أبداً آراء مُخالفة سواء أكانت فرديةً أم جماعيةً مُعلنةً أم مخفيةً في سبيل وحدة الجماعة، ومن أجل السمع والطاعة. وأيّدت الأحداث صحة رأي الخليفة الذي استند على هدي الرسول الكريم، وصدق النبوة من قبل في إمرة أسامة الذي أبدى عبقريةً في القيادة، وضروباً في فنّ الإمرة، وبطولةً فذّةً، وشجاعةً نادرةً. ثم كان في إنفاذ جيش أسامة قوة إذ هابت الأعراب المدينة، وقالوا: لو لم يكن فيها قوة كافية لما أُنفذ الجيش، ولقتال الروم بالذات، وللروم سيطرة معنوية في نفوس الأعراب والجاهليين عامةً.

٢" ـ قتال المرتدين:

وما قفل أسامة حتى كفرت الأرض وتصرّمت، وارتدّ من كل قبيلة

عامةً أو خاصةً إلا قريشاً وثقيفاً، واستغلظ أمر مُسيلمة، وطُليحة، واجتمع على طليحة عوام طيء وأسد، وارتدّت غطفان، وارتدّت خواص من بني سليم، وكذلك سائر الناس بكل مكان[1].

قال قتادة[2]، رحمه الله تعالى، لما تُوفي رسول الله ﷺ، ارتدّت العرب كلها إلا ثلاثة مساجد: مكة، والمدينة، والبحرين، فقالوا: أما الصلاة فإننا سنُصلّي، وأما الزكاة فوالله لا تُغصب أموالنا منا[3].

وقالت عائشة، رضي الله عنها: لما تُوفّي رسول الله ﷺ، اشرأب النفاق بالمدينة، وارتدّت العرب قاطبةً، وانحازت الأنصار وصار المسلمون كالغنم السائبة في الليلة الماطرة، حتى جمعهم الله على أبي بكر، فلقد نزل بأبي بكر ما لو نزل بالجبال الراسيات لهاضها[4].

كان المرتدون فريقين: فريق بذلوا الصلاة ومنعوا الزكاة، وفريق كفروا بالدين كله، وآمنوا برسالة الشيطان إلى مُسيلمة، وطليحة، والأسود، فأما الأولون فقالوا: نؤمن بالله ونشهد أن محمداً رسول الله، ولكن لا نُعطيكم أموالنا، وبعثوا إلى المدينة وفداً فنزلوا على وجوه الناس. فأنزلوهم ما خلا عباساً فتحمّلوا بهم على أبي بكر على أن يُقيموا الصلاة وعلى أن لا يُؤتوا الزكاة فعزم الله لأبي بكر على الحق فقال: والله لو منعوني عقالاً لجاهدتهم عليه، وكانت عُقُل الصدقة على أهل الصدقة، وردّ الوفد فرجعوا إلى قومهم فأخبروهم بقلّة أهل المدينة وأطمعوهم فيها[5].

---

(١) تاريخ الطبري.

(٢) قتادة بن النعمان بن زيد الأنصاري الأوسي أخو أبي سعيد الخدري لأمه كان من فضلاء الصحابة، شهد العقبة، وبدراً، وأحداً، والمشاهد كلها، وأُصيبت عينه في إحدى الغزوات فردّها رسول الله ﷺ، فكانت أحسن عينيه، توفي سنة ٢٣، وهو ابن ٦٥ سنة، رضي الله عنه.

(٣) تهذيب تاريخ ابن عساكر.

(٤) هاضها: كسرها.

(٥) تاريخ الطبري.

فقال عمر لأبي بكر، رضي الله عنهما: كيف تُقاتلهم، وقد قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أُقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قال لا إله إلا الله، فقد عصم مني نفسه وماله إلا بحقّه، وحسابه على الله». فقال أبو بكر: والله لأُقاتلنّ من فرّق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حقّ المال، والله لو منعوني عناقاً[١] لقاتلتهم على منعها[٢].

وجادله في ذلك كثير من الصحابة منهم عمر، وأبو عبيدة، وسالم مولى أبي حذيفة وغيرهم، ورأى الصحابة أن اللين أولى، وأن الأرض قد زُلزلت بالردّة فما يُطاق تثبيتها، وأبو بكر ماضٍ في الذي شرح الله له صدره من الحق، لا يضعُف ولا يني، ولقد قال عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: يا خليفة رسول الله! تألّف الناس وأرفق بهم، فقال: رجوت نصرتك وجئتني بخذلانك؟ أجبّار في الجاهلية وخوّار في الإسلام، إنه قد انقطع الوحي، وتمّ الدين، أو ينقُص وأنا حيّ؟ أليس قد قال: (أي النبيّ ﷺ، الذي احتجّ به عمر). إلا بحقّها، ومن حقّها الصلاة وإيتاء الزكاة والله لو خذلني الناس كلهم لجالدتهم بنفسي. قال عمر، رضي الله عنه: فما هو إلا أن رأيت أن الله شرح صدر أبي بكر للقتال حتى عرفت أنه الحقّ.

واقتنع الصحابة بقول أبي بكر فأيّدوا رأيه، ودعموه في موقفه، وثبتوا أمام الذين أرادوا الإغارة على المدينة، وانتصروا على المرتدّين، بإذن الله، وجاءت الصدقات إلى المدينة فقويت معنويات المسلمين، ورجع بعث أسامة، وقد أحرز نصراً، فخاف المرتدّون، وهابوا المسلمين، وضعُفت شوكتهم، ثم كانت حروب الردّة التي قضت على أصحابها.

٣" ـ في غزو الروم:

أخرج ابن عساكر عن الزهري عن عبد الله بن أبي أوفى الخزاعي،

---

(١) العناق: السخلة (الأنثى من ولد الماعز).

(٢) الصحيحان.

رضي الله عنه، أنه قال: لما أراد أبو بكر، رضي الله عنه، غزو الروم دعا علياً، وعمر وعثمان، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، وأبا عبيدة بن الجراح، ووجوه المهاجرين والأنصار من أهل بدر وغيرهم، فدخلوا عليه ـ قال عبد الله بن أبي أوفى: وأنا فيهم ـ. فقال أبو بكر، رضي الله عنه: إن الله عزّ وجل لا تُحصى نعماؤه، ولا تبلغ جزاءها الأعمال، فله الحمد، قد جمع الله كلمتكهم، وأصلح ذات بينكم، وهداكم إلى الإسلام، ونفى عنكم الشيطان، فليس يطمع أن تُشركوا به، ولا تتخذوا إلهاً غيره، فالعرب اليوم بنو أم وأب، وقد رأيت أن أستنفر المسلمين إلى جهاد الروم بالشام ليُؤيّد الله المسلمين، ويجعل الله كلمته العليا، مع أن للمسلمين في ذلك الحظ الأوفر، لأنه من هلك منهم هلك شهيداً، وما عند الله خير للأبرار، ومن عاش عاش مُدافعاً عن الدين مستوجباً على الله ثواب المجاهدين. وهذا رأيي الذي رأيته، فليُشر امرؤ عليّ برأيه.

فقام عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فقال: الحمد لله الذي يخصّ بالخير من شاء من خلقه، والله ما استبقنا إلى شيء من الخير قط إلا سبقتنا إليه؛ وذلك فضل الله يُؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم. قد ـ والله ـ أردت لقاءك بهذا الرأي الذي رأيت فما قُضي أن يكون حتى ذكرته، فقد أصبت ـ أصاب الله بك سبيل الرشاد ـ سرّب إليهم الخيل إثر الخيل، وابعث الرجال إثر الرجال والجنود تتبعها الجنود؛ فإن الله ناصر دينه ومعزّ الإسلام وأهله.

ثم إن عبد الرحمٰن بن عوف، رضي الله عنه، قام فقال: يا خليفة رسول الله، إنها الروم وبنو الأصفر! حدّ حديد وركن شديد، ما أرى أن نقتحم عليهم اقتحاماً، ولكن نبعث الخيل فتغير في قواصي أرضهم، ثم ترجع إليك، وإذا فعلوا ذلك بهم مراراً أضرّوا بهم، وغنموا من أداني أرضهم فقعدوا بذلك عن عدوّهم؛ ثم تبعث إلى أراضي اليمن وأقاصي ربيعة ومضر، ثم تجمعهم جميعاً إليك. ثم إن شئت بعد ذلك غزوتهم بنفسك وإن شئت أغزيتهم، ثم سكت وسكت الناس.

ثم قال لهم أبو بكر: ما ترون؟ فقال عثمان بن عفان، رضي الله عنه: إني أرى أنك ناصح لأهل هذا الدين، شفيق عليهم فإذا رأيت رأياً تراه لعامتهم صلاحاً، فاعزم على إمضائه فإنك غير ظَنين. فقال طلحة، والزبير، وسعد، وأبو عبيدة، وسعيد بن زيد ومن حضر ذلك المجلس من المهاجرين والأنصار، رضي الله عنهم: صدق عثمان، ما رأيت من رأيٍ فأمضه فإنا لا نُخالفك ولا نتهمك، وذكروا هذا وأشباهه؛ وعليّ، رضي الله عنه، في القوم لم يتكلّم.

فقال أبو بكر: ماذا ترى يا أبا الحسن؟ فقال: أرى أنك إن سرت إليهم بنفسك أو بعثت إليهم نُصرت عليهم إن شاء الله. فقال: بشّرك الله بخير! ومن أين علمت ذلك؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «لا يزال هذا الدين ظاهراً على كل من ناوأه حتى يقوم الدين وأهله ظاهرون». فقال: سبحان الله، ما أحسن هذا الحديث! لقد سررتني به سرّك الله.

ثم إن أبا بكر، رضي الله عنه، قام في الناس فذكر الله بما هو أهله، وصلّى على نبيّه ﷺ، ثم قال: أيها الناس، إن الله قد أنعم عليكم بالإسلام، وأكرمكم بالجهاد، وفضّلكم بهذا الدين على كل دين، فتجّهزوا عباد الله إلى غزو الروم بالشام، فإني مُؤمّر عليكم أمراء، وعاقد لكم ألوية، فأطيعوا ربكم، ولا تُخالفوا أمراءكم لتحسن نيتكم وأشربتكم وأطعمتكم، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون.

فقام خالد بن سعيد، رضي الله عنه، فقال: الحمد لله الذي لا إله إلا هو، الذي بعث محمداً ﷺ، بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدين كله ولو كره المشركون فالحمد لله منجز وعده، ومظهر وعده، ومهلك عدوّه، ونحن غير مُخالفين ولا مُختلفين، وأنت الوالي الناصح الشفيق، ننفر إذا استنفرتنا، ونُطيعك إذا أمرتنا.

٤" ـ استخلاف عمر:

قال الحسن البصري: لما ثقُل أبو بكر، رضي الله عنه، واستبان له

من نفسه، جمع الناس إليه فقال: إنه قد نزل بي ما قد ترون، ولا أظنّني إلا ميتاً لما بي، وقد أطلق الله أيمانكم من بيعتي، وحلّ عنكم عقدتي، وردّ عليكم أمركم، فأمّروا عليكم من أحببتم، فإنكم إن أمّرتم في حياة مني كان أجدر ألا تختلفوا بعدي. فقاموا في ذلك فلم يستقم لهم أمر، فرجعوا إليه، فقالوا: رأينا يا خليفة رسول الله رأيك. قال: فأمهلوني حتى أنظر لله ولدينه ولعباده[1].

ثم إنه دعا بعد ذلك عبد الرحمن بن عوف فقال له: أخبرني عن عمر بن الخطاب. فقال له: ما تسأله عن أمر إلا وأنت أعلم به مني. فقال له: وإن فقال عبد الرحمٰن: هو والله أفضل من رأيك فيه.

ثم دعا عثمان. فقال له مثل ذلك: فقال: علمي أن سريرته خير من علانيته، وأنه ليس فينا مثله فقال له أبو بكر: يرحمك الله، والله لو تركته ما عدوتك.

ثم شاور سعيد بن زيد، وأُسيد بن الحُضير، وغيرهما من المهاجرين والأنصار، فقال أُسيد: اللهم أعلمه الخيرة بعدك، يرضى للرضا، ويسخط للسخط، والذي يُسرّ خير من الذي يُعلن، ولن يلي هذا الأمر أحد أقوى عليه منه.

وسمع بعض الصحابة بدخول عبد الرحمن وعثمان على أبي بكر وخلوتهما به، فدخلوا على أبي بكر، فقال له قائل منهم: ما أنت قائل لربك إذا سألك عن استخلافك عمر علينا، وقد ترى غلظته، وهو إذا ولي كان أفظّ وأغلظ.

قال أبو بكر، رضي الله عنه، أجلسوني. فلما جلس. قال: أبالله تخوفونني؟ خاف من تزوّد من أمركم بظلم. أقول: اللهم إني قد استخلفت على أهلك خير أهلك. ثم قال للقائل: أبلغ عني ما قلت لك من وراءك.

---

(١) سيرة عمر بن الخطاب: ابن الجوزي.

ثم اضطجع ودعا بعثمان، فقال له: اكتب. بسم الله الرحمٰن الرحيم. هذا ما دعا به أبو بكر بن أبي قحافة، في آخر عهده بالدنيا خارجاً منها، وأول عهده بالآخرة داخلاً فيها، حيث يُؤمن الكافر، ويُوقن الفاجر، ويُصدّق الكاذب، إني استخلفت عليكم بعدي.

وأخذته غشية فذُهب به قبل أن يُسمّي أحداً. فكتب عثمان بن عفان، رضي الله عنه، إني استخلفت عليكم بعدي عمر بن الخطاب.

ثم أفاق أبو بكر فقال: اقرأ عليّ ما كتبت فقرأ عليه ذكر عمر، فكبّر أبو بكر، وقال: أراك خفت أن تذهب نفسي في غشيتي تلك فيختلف الناس، فجزاك الله عن الإسلام خيراً، والله إن كنت لها لأهلاً. ثم أمره أن يكتب تتمة الكتاب:

فاسمعوا له وأطيعوا، وإني لم آل الله ورسوله ودينه ونفسي وإياكم خيراً، فإن عدل فذلك ظنّي به وعلمي فيه، وإن بدّل فلكل امرئ ما اكتسب، ولا أعلم الغيب ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته[١].

ثم أمره فختم الكتاب، وأشرب أبو بكر على الناس من كوته فقال: يا أيها الناس إني قد عهدت عهداً، أفترضونه؟ فقال الناس: رضينا يا خليفة رسول الله ﷺ، فقام علي، رضي الله عنه، فقال: لا نرضى إلا أن يكون عمر[٢].

فأقرّوا بذلك جميعاً. ورضوا به ثم بايعوا، فرفع أبو بكر، رضي الله عنه، يديه فقال: اللهم إني لم أرد بذلك إلا صلاحهم. وخفت عليهم الفتنة فعلمت فيهم ما أنت أعلم به، واجتهدت لهم رأيي، فولّيت عليهم خيرهم، وأقواهم عليه، وأحرصهم على ما أُرشدهم. وقد حضرني من أمرك ما حضر، فاخلفني فيهم، فهم عبادك، ونواصيهم بيدك، وأصلح لهم أميرهم،

---

(١) الطبقات لابن سعد، وتاريخ الخلفاء للسيوطي، وتهذيب ابن عساكر.

(٢) مختصر الموافقة للزمخشري.

واجعله من خلفائك الراشدين، يتبع هدي نبي الرحمة، وهدي الصالحين بعده، وأصلح له رعية. ثم دعاه فأوصاه[1].

وهكذا فالشورى ليست للرعية كلها وإنما لأولي الرأي، ولا يمنع هذا أن يُبدي كل امرئ رأيه سواء أكان من أهل الرأي أم من غيرهم، وإذا اعترض أحدهم على رأيٍ عرض الخليفة هذا الاعتراض على أهل الحلّ والعقد لدراسته والنظر فيه، ونوقش الموضوع حتى تتمّ القناعة، ويُعطى المعترض الرأي الذي تمّ الوصول إليه. فعندما اعترض أحدهم على استخلاف عمر وقال ما قال عن غلظته، فاستدعى أبو بكر، رضي الله عنه، عثمان وعلياً، رضي الله عنهما، وسألهما عن قولة المعترض، فقال عثمان: بئس لعمر الله ما قال فلان، عمر بحيث يحب من قوته وسابقته. وقال علي: بئس ما قال، عمر عند ظنّك به، ورأيك فيه، إن وليته، مع أنه كان والياً معك، نحظى برأيه ونأخذ منه، فامض لما تريد ودع مخاطبة الرجل، فإن يكن على ما ظننت إن شاء الله فله عمدت، وإن يكن ما لا تظنّ لم تُرد إلا الخير.

الشورى أيام الفاروق:

تولّى عمر بن الخطاب أمر الأُمّة، وقد امتدّ الإسلام على رقعةٍ أرحب، ودخلت فيه شعوب جديدة، وشمل بيئاتٍ مختفلةً، فاستجدّ نتيجة ذلك أمور، وهذا ما يستدعي زيادة الشورى ومناقشة أهل الرأي والاستماع إلى الناس، وإلى من يعايش القضايا المستجدة.

١ ـ بساط كسرى:

جاء بساط كسرى إلى عمر بين الغنائم، وهو قطعة فنية لا يُماثلها في عصرها قطعة أخرى، طولها ستين ذراعاً، وعرضها مثل ذلك، الناظر إليها

(١) تاريخ الخلفاء.

كالناظر إلى جنّة حقيقيةٍ، قيمته تُعادل نصيب أعدادٍ من المقاتلين، فماذا يفعل الخليفة؟.

جمع الناس، فحمد الله وأثنى عليه، واستشارهم في البساط، وأخبرهم خبره. فأشار كلهم عليه بأخذه، إلا علياً، رضي الله عنه، فإنه قال: يا أمير المؤمنين، الأمر كما قالوا ولم يبق إلا التروية. إنك إن تقبله ـ على هذا ـ اليوم لم تعدم فيه غدٍ من يستحق به ما ليس له. قال: صدقتني ونصحتني، فقسّمه بينهم.

اقتنع أمير المؤمنين، ولم يكن هناك معترض، إذ لم يضع حقّ أحد. ولم يقل أحد حرام تمزيق هذه القطعة الفنية، فالحقّ والعدل أولى من إبقاء شيء جميل، وفي نفوس بعض الناس غصّة.

٢" ـ سواد العراق:

أفاء الله على المسلمين سواد العراق، ورأى عامة الصحابة، وعلى رأسهم عبد الرحمٰن بن عوف، وبلال بن رباح أن تُقسم الأرض، ومزارعوها بين المقاتلين، ورأى عمر غير ذلك إذ قال: والله لا تفتح بعدي بلد يكون فيه كبير نيل، بل عسى أن يكون كلًّا على المسلمين. فإذا قسّمت أرض العراق بعلوجها، وأرض الشام بعلوجها، فما يسدّ الثغور؟ وما يكون للذرية والأرامل بهذا البلد وبغيره من أهل الشام والعراق؟. فأكثروا على عمر، وقالوا: أتقف ما أفاء الله علينا بأسيافنا على قوم لم يشهدوا ولم يحضروا، ولأبناء القوم ولأبناء أبنائهم ولم يحضروا؟ فكان عمر لا يزيد على أن يقول هذا رأيي. قالوا: فاستشر. فاستشار المهاجرين الأولين فاختلفوا. فأما عبد الرحمٰن بن عوف فكان رأيه أن تُقسّم لهم حقوقهم. ورأي عثمان، وعلي، وطلحة، وابن عمر رأي عمر. فعرفهم، وأرسل إلى عشرة من الأنصار، خمسةٍ من الأوس وخمسةٍ من الخزرج من كبرائهم وأشرافهم. فلما اجتمعوا عرض رأيه وحجته. وقال: إني لم أُزعجكم إلا لأن تشتركوا في أمانتي فيما حملت من أموركم، فإني واحد كأحدكم،

وأنتم اليوم تُقرّون بالحقّ، خالفني من خالفني، ووافقني من وافقني، ولست أُريد أن تتبعوا هذا الذي هو هواي، معكم من الله كتاب ينطق بالحقّ، فوالله لئن كنت نطقت بأمرٍ أُريده ما أُريد به إلا الحقّ. قالوا: نسمع يا أمير المؤمنين. قال: قد أعوذ بالله أن أركب ظلماً، لئن كنت ظلمتهم شيئاً لهو لهم وأعطيته غيرهم لقد شقيت. لكن رأيت أنه لم يبق شيء يُفتح بعد أرض كسرى، وقد غنّمنا الله أموالهم وأرضهم وعلوجهم، فقسّمت ما غنموا من أموالٍ بين أهله، وأخرجت الخمس فوجّهته على وجهه، وأنا في توجيهه، وقد رأيت أن أحبس الأرض بعلوجها، وأضع عليهم فيها الخراج، وفوق رقابهم الجزية، يُؤدّونها فتكون فيئاً للمسلمين المقاتلة والذرية ولمن يأتي بعدهم. أرأيتم هذه الثغور؟ لا بدّ من رجالٍ يلزمونها. أرأيتم هذه المدن العظام كالشام والجزيرة والكوفة والبصرة ومصر؟ لا بدّ من شحنها بالجند، وإدرار العطاء عليهم، فمن أين يُعطى هؤلاء إذا قُسّمت الأرض والعلوج؟ فقالوا جميعاً: الرأي رأيك، فنعم ما قلت ورأيت، إن لم تشحن هذه الثغور وهذه المدن بالرجال وتجري عليهم ما يتقون به رحل أهل الكفر إلى مدنهم، فقال: قد بان لي الأمر. فمن رجل له جزالة وعقل يضع الأرض مواضعها، ويضع على العلوج ما يحتملون؟ فاجتمعوا له على عثمان بن حنيف، وقالوا: تبعثه إلى أهم من ذلك، فإن له بصراً وعقلاً وتجربةً. فأسرع إليه عمر فولاه مساحة أرض السواد.

٣" ـ الديوان:

لما كثرت الأموال بعد أن فتح الله على المسلمين أمصاراً، جمع عمر أناساً من أصحاب رسول الله ﷺ، فقال: ما ترون؟ فإني أرى أن أجعل عطاء الناس في كل سنةٍ، وأجمع المال فإنه أعظم للبركة فقال علي بن أبي طالب: تقسم كل سنة ما اجتمع إليك من مال ولا تُمسك منه شيئاً. وقال عثمان بن عفان أرى مالاً كثيراً يسع الناس، وإن لم يُحصوا حتى تعرف من أخذ ممن لم يأخذ، خشية أن ينتشر الأمر. فقال الوليد بن هشام بن المغيرة: يا أمير المؤمنين قد جئت الشام فرأيت ملوكها قد دوّنوا

ديواناً وجنّدوا جنوداً، فدوّن ديواناً وجنّد جنوداً فأخذ بقوله: فدعا عقيل بن أبي طالب، ومخرمة بن نوفل، وجبير بن مُطعم، وكانوا نسّاب قريش وكُتّابه. فقال: اكتبوا الناس على منازلهم. فكتبوا فبدؤوا ببني هاشم، ثم أتبعوهم أبا بكر وقومه، ثم عمر وقومه، على الخلافة. فلما نظر إليه عمر، رضي الله عنه، قال: وددت والله أنه هكذا، ولكن ابدؤوا بقرابة النبي ﷺ، الأقرب فالأقرب، حتى تضعوا عمر حيث وضعه الله.

٤" ـ خليج أمير المؤمنين:

دعا عمر بن الخطاب عمرو بن العاص أن يقدم عليه هو وجماعة من أهل مصر. ثم قال لهم: يا عمرو إن الله قد فتح على المسلمين مصر وهي كثيرة الخير والطعام، وقد ألقي في روعي لما أحببت الرفق بأهل الحرمين والتوسيع عليهم، حين فتح الله عليهم مصر، وجعلها قوةً لهم ولجميع المسلمين أن أحفر خليجاً من نيلها حتى يسيل في البحر، فهو أسهل لما نُريد من حمل الطعام إلى مكة والمدينة. فإن حمله على الظهر يبعد ولا نبلغ منه ما نُريد، فانطلق أنت وأصحابك فتشاوروا في ذلك حتى يعتدل رأيكم. وتمّ الرأي، وفُتح الخليج.

وهنا نوع جديد من الشورى، استشارة أهل الاختصاص والمعرفة في البلد لأن الموضوع يتعلّق بالخبرة ومعرفة الأرض، ولا علاقة له بالصحابة، وليس أمراً فقهياً يعرفه أصحاب رسول الله ﷺ، أكثر من غيرهم.

٥" ـ التقويم:

كتب أبو موسى الأشعري إلى عمر: إنه يأتينا من قبل أمير المؤمنين كتب ليس لها تاريخ فلا ندري على أيها نعمل.

وقال ميمون بن مهران: رُفع إلى أمير المؤمنين صك محلّه شعبان فقال: أي الشعابين هو؟ الذي مضى أم الذي نحن فيه أم الآتي؟

وقال قرة بن خالد: كان عند عمر عامل جاء من اليمن فقال لعمر:

أما تُؤرّخون؟ إني رأيت باليمن شيئاً يُسمّونه التاريخ، يكتبون من عام كذا شهر كذا. فقال عمر: إن هذا لحسن: فأرّخوا.

جمع عمر وجوه الصحابة فقال: إن الأموال قد كثرت، وما قسمنا منها غير موقت، فكيف التوصّل إلى ما يُضبط به ذلك؟

فقال قائل: اكتبوا على تاريخ الروم.

فقيل: إنه يطول، وإنهم يكتبون من عند ذي القرنين.

فقالوا: يجب أن يُعرف ذلك من رسوم الفرس. فعندما استحضر عمر الهرمزان وسأله عن ذلك، فقال: إن لنا حساباً نُسميّه: ماه روز (معناه حساب الشهور والأيام) وبيّنه لهم. فأراد عمر والناس أن يكتبوا من مبعث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

ثم قالوا: من عند وفاته.

ثم قالوا: من مولده، وقال علي: منذ خرج النبي ﷺ، من أرض الشرك يعني يوم هاجر فاتفقوا على أن يكون المبدأ من سنة الهجرة. وكانت الهجرة النبوية من مكة إلى المدينة في ربيع الأول فقال: بأي شهر نبدأ فنُصيّره أول السنة؟

فقالوا: رجب فإن أهل الجاهلية كانوا يُعظّمونه.

وقال آخرون: شهر رمضان.

وقال آخرون: ذو الحجة فيه الحجّ.

وقال آخرون: الشهر الذي خرج فيه من مكة.

وقال آخرون: الشهر الذي قدم فيه.

فقال عثمان: أرّخوا من المحرّم أول السنة، وهو شهر حرام، وأول الشهور في العدّة، وهو منصرف الناس عن الحج.

فلما عزموا على تأسيس الهجرة رجعوا القهقرى ثمانيةً وستين يوماً وجعلوا التاريخ من أول محرّم هذه السنة[1].

٦" ـ اختيار القادة:

أراد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أن يكون على رأس المجاهدين الذين يتجهون إلى العراق، فاستخلف علياً على المدينة، وخرج حتى أتى صراراً[2] في طريق العراق، وقد جعل طلحة بن عبيد الله على مقدمته، وعبد الرحمن بن عوف على الميمنة، والزبير بن العوام على الميسرة، وقد استشار الناس في (صرار) فاجتمع عليه الصحابة، ومنعوه من الخروج، وكان مما قاله عبد الرحمن بن عوف: يا أمير المؤمنين اجعل عجزها بي، وأقم، وابعث جنداً، وإنه إن يُهزم جيشك ليس كهزيمتك، وإنك إن تُقتل أو تُهزم في أنْف الأمر (أوله) خشيت أن لا يُكبّر المسلمون وأن لا يشهدوا أن لا إله إلا الله أبداً، فنزل عند رأي الصحابة، وقال لهم: إني إنما كنت كرجلٍ منكم حتى صرفني ذوو الرأي منكم عن الخروج فقد رأيت أن أُقيم وأبعثَ رجلاً.

واستشار الناس في اختيار القائد. فقال عبد الرحمن بن عوف: وجدته. قال: ومن هو؟ قال: الأسد عادياً سعد بن مالك (سعد بن أبي وقاص). فوافق الجميع. وانطلق سعد بالجيش.

واجتمع أهل فارس من السند، وخراسان، وحلوان إلى يزدجرد فأمّر عليهم (ذا الحاجب)، وأخرجوا رايتهم (درفش كابيان)، وهي العلم الأكبر لا يُخرجونه إلا في الأمور العظام، وقالوا: إن عمر قد أخرب بيت مملكتنا، واقتحم بلادنا وقاتلنا في عقر دارنا، وما نراه مُنتهياً، وهو آتينا إن لم نأته، وتعاقدوا على الحرب، وهم مائة وخمسون ألفاً، وأراد عمر

---

(١) أخبار عمر. الطنطاويان.

(٢) صرار: ماء على طريق العراق على بعد ثلاثة أميال من المدينة.

الخروج بنفسه، واستشار أصحابه فمنعوه، فقال: أشيروا عليّ برجلٍ أُوَلِّه ذلك الثغر غداً. قالوا: أنت أفضل رأياً وأحسن مقدرةً. قال: أشيروا عليّ به، واجعلوه عراقياً. قالوا: يا أمير المؤمنين أنت أعلم بأهل العراق وهم جندك، وقد وفدوا عليك، ورأيتهم وكلّمتهم. قال: أما والله لأُوليّن أمرهم رجلاً ليكوننّ أول الأسنّة إذا لقيها غداً، فقيل: من يا أمير المؤمنين؟ قال: النعمان بن مقرن المزني. فقالوا: هو لها.

٧" ـ الطاعون:

ولما خرج عمر إلى الشام في إحدى قدماته لقيه في سرع (قرب تبوك) أمراء الأجناد أبو عبيدة وأَصحابه فأخبروه أن الطاعون وقع في الشام، فقال لابن عباس: ادع لي المهاجرين الأولين، فدعاهم واستشارهم فأخبرهم أن الوباء وقع في أرض الشام فاختلفوا. فقال بعضهم: معك بقية الناس وأصحاب رسول الله ﷺ، ولا نرى أن تقدمهم على هذا الوباء.

وقال بعضهم: قد خرجت لأمرٍ ولا نرى أن ترجع عنه. فقال: ارتفعوا عني.

ثم قال: ادع لي الأنصار، فدعوتهم فاستشارهم فسلكوا سبيل المهاجرين واختلفوا كاختلافهم، فقال: ارتفعوا عني.

ثم قال: ادع لي من كان هنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح فدعوتهم فلم يختلف منهم عليه رجلان فقالوا: نرى أن ترجع بالناس ولا تقدمهم على هذا الوباء، فنادى عمر في الناس: إني مصبح على ظهر فأصبحوا عليه. فقال أبو عبيدة بن الجراح: أفراراً من قدر الله؟ فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة، نعم نفّر من قدر الله إلى قدر الله. أرأيت لو كانت لك إبل هبطت وادياً له عدوتان إحداهما خصبة والأخرى جدبة. أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله. فجاء عبد الرحمن بن عوف، وكان مُتغيّباً في بعض حاجته فقال: إن عندي في هذا علماً، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا سمعتم به بأرض فلا

تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه». فحمد الله عمر ثم انصرف.

وما أكثر الشورى في أيام عمر بل في أيام الراشدين عامة وإنما نستعرض بعضها، ولا نعرض كلها، ويكفي أن نأخذ منها الخطوط العريضة لهذا المبدأ العظيم كي نتعلّم طريقه لنسير على نهجه.

الشورى أيام ذي النورين:

بقيت الشورى على حالها أيام الخليفة الراشدي الثالث وأعطت نتائجها الإيجابية الطيبة، ولكن في آخر أيامه حدثت الفتنة ومع أن الشورى بقيت ربما زادت غير أن آثارها لم تظهر، وربما نقول لم يستفد منها لأن الفتنة عمّت المجتمع فلا مُجيب لمنادٍ، ولا مُستمع لناصح. ولعلّنا ننظر في بعض قضايا الشورى التي تمّت أيام ذي النورين، رضي الله عنه.

١" - **قتل قتلة الخليفة السابق**: إن الحادثة التي قُتل فيها الخليفة السابق عمر بن الخطاب جريمة سياسية، واعتداء على النفس، واشتركت في هذه الجريمة أطراف مُتعددة من مجوسٍ، ويهودٍ، ونصارى، بعضهم كان يُظهر الإسلام، وبعضهم من بلادٍ ثانيةٍ كان لهم دور في التخطيط، والمشتركون فيها لا بدّ من قتلهم قصاصاً، ووضعاً للحدّ من جرائم القتل، وعبث أعداء الإسلام بأهله، إلا أن القتل لا بدّ من أن يكون برأي الخليفة حتى لا يكون تعدٍّ على صلاحيات صاحب الأمر، وحتى لا يفلت زمام الأمر، ويقوم بدعوى تنفيذ الأحكام كل امرئٍ حسب هواه ورأيه باسم إقامة الحدود...

لا يوجد خليفة، الخليفة السابق مقتول، ولم يُبايع بعد خليفة جديد ينظر في الأمر، غير أن عبيد الله بن عمر بن الخطاب، قام بقتل القتلة (الهرمزان، جفينة، ابنة أبي لؤلؤة) وليس له من حقّ في ذلك، فالخليفة الجديد هو الذي سينظر في هذه القضية وريثما يُبايع الخليفة الجديد، وُضع عبيد الله في السجن. فلما تولّى عثمان، رضي الله عنه، كانت هذه أول مشكلةٍ واجهته.

استشار عثمان أولي الرأي فكان رأي علي بن أبي طالب وبعض الصحابة أنه لا بدّ من إقامة الحدّ، وقتل عبيد الله. ولا يصحّ التساهل أبداً في إقامة حدود الله، مهما كان وضع القاتل، ومهما كانت المبرّرات.

ورأى عدد آخر من الصحابة أنه يصعُب على المسلمين قتل خليفتهم بالأمس بأيدٍ قذرةٍ، ويقتل اليوم ابنه، وقد شكّوا في إسلام الهرمزان، ومن هنا فلا يقتل عبيد الله، إذ لا يقتل مسلم بكافر. وقد عرضوا على الخليفة أن يكون هو ولي أمر المقتولين بصفتهم غرباء، وأن يدفع الديّة من بيت المال، وتعود إليه ثانيةً، إذ أن بعضهم لا أولياء لهم.

واقترح بعضهم أن يقوم الخليفة بدفع الديّة من ماله الخاص. غير أن الخليفة لم يقبل بهذا التحايل على حدٍّ من حدود الله. ورأى أنه لا بدّ من إقامة الحدّ على عبيد الله بن عمر، إذ عدّ الهرمزان مسلماً.

دفع الخليفة عثمان بن عفان القاتل عبيد الله بن عمر إلى القماذبان بن الهرمزان ليقتله بأبيه، فخرج به، يقول القماذبان: خرجت به وما في الأرض أحد إلا معي، إلاّ أنهم يطلبون إليّ فيه. فقلت لهم: إلي قتله؟ قالوا: نعم - وسبّوا عبيد الله - فقلت: أفلكم أن تمنعوه؟ قالوا: لا، وسبّوه. فتركته لله، ولهم. فاحتملوني، فوالله ما بلغت المنزل إلاّ على رؤوس الرجال وأكفّهم.

عفا صاحب الحقّ. وعندها قام الخليفة بدفع الديّة من ماله الخاص، أما الذين لا أولياء لهم فالخليفة هو وليّهم، وقد دفع الديّة لهم أيضاً، ثم رُدّت إلى بيت المال.

٢" - **أصحاب الفتنة**: جمع الخليفة أمراء الأمصار، واستشارهم في أمر المنحرفين، وما يتكلّمون به، فأُشير عليه بنقلهم إلى الثغور كي يُشغَلوا بأنفسهم، كما اقتُرح عليه عدم إعطائهم الأعطيات حتى يرضخوا للأمر ويُطيعوا، ولكنه لم ير هذا الرأي ولا ذاك وإنما رأى أن يأخذهم بالحلم، وقال لأهل الكوفة: أما بعد، فقد أمّرت عليكم من اخترتم، وأعفيتكم من سعيد، والله لأفرشنكم عرضي، ولأبذلنّ لكم صبري، ولأستصلحنّكم

بجهدي، فلا تدعوا شيئاً أحببتموه لا يُعصى الله فيه إلا سألتموه، ولا شيئاً لا يُعصى الله فيه إلا استعفيتم منه، أنزل فيه عندما أحببتم حتى لا يكون لكم عليّ حجة.

واجتمع إلى وفد مصر وناقشهم، واستمع إلى آرائهم، كما استمع إليهم علي بن أبي طالب، ومحمد بن مسلمة غير أن صاحب الفتنة لا يسمع إلا ما في نفسه، ولا تصلح مع اللئيم إلا الشدّة، وعاملهم الخليفة باللين فأشعلوا الفتنة.

قامت الفتنة وتداخلت أمواج الآراء فلم يعد موضوع للشورى. وعصفت الفتنة بالخليفة الراشدي الثالث عثمان بن عفان، رضي الله عنه، فقتل.

الشورى أيام علي بن أبي طالب:

كان عليّ بن أبي طالب، رضي الله عنه، الخليفة الراشدي الرابع يستشير أهل الشورى من صحابة رسول الله ﷺ. ثم دعته الظروف إلى الانتقال إلى الكوفة، ومغادرة المدينة موطن الصحابة، ومقرّ رجال الشورى. ومع أن عدداً كان معه منهم إلاّ أن الشورى لم تعُد لها نتائجها الإيجابية إذ كان أكثر رجال عليّ، رضي الله عنه، من الجيل الجديد الذين أتوا بعد صحابة رسول الله ﷺ، فكانوا دونهم، إضافةً إلى وجود عددٍ بينهم من أهل الأهواء ومُثيري الفتنة، منهم الأعراب، ومنهم الذين دخلوا في الإسلام حديثاً، إذ كان ينصحهم فلا يقبلون، ويُشير عليهم فلا يهتمّون، ويدعوهم فلا يستجيبون، ويأمرهم فلا يُطيعون حتى ملّهم وتمنّى الخلاص منهم. إذا دعاهم إلى القتال في الصيف طلبوا منه التريث حتى ينجلي عنهم الحرّ، وإن طلب منهم التهيّؤ للنزال في الشتاء رغبوا إليه إمهالهم حتى ينقضي البرد.

طلب منهم متابعة القتال في صفّين بعد أن رفع إخوانهم أهل الشام المصاحف يبغون التحكيم فأصرّوا إلاّ على وقف القتال والإجابة لما دُعوا

له، فأعلمهم أنها خدعة فلم يرعوا لندائه واضطر إلى الوقوف بل أجبر الأشتر النخعي إلى عدم متابعة الإثخان في الخصم.

رشَّح مُمثّله للتحكيم عبد الله بن عباس فرفضوا، ورشح الأشتر النخعي فأبوا، حتى سار إلى الحكومة أبو موسى الأشعري. ولم يكن التحكيم في صالحهم فلم يعترفوا به، وعدّوا قبوله كُفراً، وهم الذين طلبوه، وطلبوا من خليفتهم أن يتوب مما وقع فيه من الكفر، فجادلهم لم يُظعنوا للحقّ بل خرجوا عليه، وكانت فرقة الخوارج التي اشتدّ بأسها على المسلمين حتى اضطر أن يُقاتلهم في «النهروان».

لم يتعظ من بقي مع الخليفة ولم يثُب إلى رشده بل استمرّ في عناده ورفضه حتى استُشهد الخليفة، رضي الله عنه، على يد أحد أشقياء الخوارج عبد الرحمن بن مُلجم ـ قبّحه الله ـ وهكذا كانت أيام هذا الخليفة الراشدي، رضي الله عنه وأرضاه.

واستمرّت الشورى بعد الراشدين غير أن صفاءها بدأ يقلّ تدريجياً وإيجابياتها تضعُف مع الزمن وربما كان ذلك لأن بعض من يستشيرهم الخليفة بدؤوا يُزينون له رأيه، يبغون التزلّف، ولا ينصحون له، حتى أصبحت بطانة أولي الأمر في النهاية تحجبهم عن الرعية فلا يسمعون إلا من البطانة التي لها مصالح وله أطماع، وقلّ الخوف من الله، وكلٌ ينظر إلى الساعة التي هو فيها، ويحرص على تثبيت وضعه، والإغداق على رجاله كي يأمن جانبهم، وهم أعداد كبيرة من مختلف الاختصاصات وبيدهم القوة يحمونه ويُقدّم لهم ما يطلبون مُقابل تلك الحماية، ولم يعُد للشورى مفهومها الذي وجدت له، ولم يعُد لرجالها تلك المكانة التي خوّلتهم أن يكونوا فيها.

ومن كل ما سبق نستنتج ما يأتي:

١ ـ الشورى واجبة على الخليفة وفيها نُصح للأُمّة، وعلى الرعيّة وأصحاب الرأيّ، وأهل الحلّ والعقد أن يُبدوا رأيهم بوضوح ولو كان يُخالف رأي الخليفة.

٢ ـ لا يُجبر الخليفة أو الأمير إنساناً على رأيٍ ما.

٣ ـ لا يصحّ أن يستمرّ الإنسان يُدافع عن رأيه ويُعارض بقية الآراء بعد صدور أوامر الخليفة حيث لا توجد معارضة في الإسلام، وإنما عليه أن يسمع ويُطيع وأن يحتفظ برأيه لنفسه.

٤ ـ لا يستشير الخليفة مع وجود نصٍ من القرآن الكريم أو السنة الشريفة، فالشورى قاعدة اجتهادية، ولا اجتهاد مع وجود نص.

٥ ـ إذا اتجهت أكثر آراء أهل الشورى نحو رأيٍ معيّنٍ وتمّت القناعة لديهم بذلك الرأي فإن الخليفة أو الأمير مُلزم به، وإن لم يلتزم فإنما يكون قد عطّل الشورى، وترك النُصحِ للأمة، وكلا الأمرين واجب عليه.

٦ ـ إذا تمّت قناعة الخليفة بأمرٍ بعد سماع آراء ولو كانت قليلة، ولم يسمع آراءً مخالفةً التزم به، وأنفذه.

٧ ـ يمكن للخليفة أن يُنفذ أمراً ولو خالف آراء أكثرية أهل الشورى إن كانت هناك مصلحة للأمة، ولا يستطيع أن يبوح فيها أمام الجميع، كإخفاء رسول الله ﷺ، مُهمّة عمّه العبّاس، إذ لم يكن يعلمها سوى الصدِّيق.

٨ ـ ليست هناك أقلية وأكثرية وإنما يتكلّم من له رأي، ويعرض رأيه بصراحةٍ ووضوحٍ، وتُناقش الآراء المطروحة، وتُقلّب وجهات النظر حتى تتمّ القناعة بوجهةِ نظرٍ معينةٍ، فيعمل الأمير على إنفاذها.

٩ ـ إذا لم تتمّ قناعة الجميع بوجهة نظر، وبقي اختلاف في وجهات النظر فإنه يمكن للأمير أن يعمل بإنفاذ وجهة النظر التي يراها دون البحث في موضوع أقليةٍ أو أكثريةٍ، وعلى الناس أن يسمعوا ويُطيعوا أميرهم.

١٠ ـ الشورى ليست للرعية كلها وإنما لأصحابها من أولي الرأي، ولكن هذا لا يمنع من أن يُبدي أيّ فردٍ رأيه، وله حق الاعتراض حتى يصل إليه الجواب، فإن وصل إليه رأي المسؤول المستند على أصحاب الحلّ والعقد سمع وأطاع وترك ما كان يراه.

١١ ـ يُناقش المسؤول وأهل الرأي أي اعتراضٍ مهما كان، ومن أيٍّ كان، ويرسلوا لصاحبه الجواب الصحيح.

١٢ ـ يمكن للأمير أن يوسّع دائرة الشورى إذا لم تتم القناعة بالشورى من دائرةٍ مُعينةٍ.

وفي النهاية لا بد من أن نقول: إن الشورى تحتاج إلى رجال مُؤمنين، ومجتمعٍ سليمٍ يعرف معنى النُصح، ولا يُفسّره بالمصلحة ولا يُعلّله ولا يُؤوله، فإنَ سوءَ الظنّ من مرض النفس وشغلها بهواها. ولذا علينا الاهتمام الكبير بالتربية، والعناية الكبيرة بالأخلاق، والرعاية الشاملة لتهذيب النفوس وإعطاء القيمة الحقيقية للمعاني والأثر الكبير للنتائج حتى نستطيع أن نوجد ذلك المجتمع ثم نقيم دعائم الشورى والحكم الإسلامي.

القسم الثاني

الدستور

هذه المفاهيم كانت سائدةً على مدى التاريخ الإسلامي وإن كانت تنحسر عن التطبيق تدريجياً بعد العهد الراشدي غير أنها بقيت معروفةً ولا منازع لها، ومع مرحلة زوال الخلافة بدأت ترافقها مفاهيم جديدة جاءت إلينا من الغرب مع الهزيمة النفسية التي حلّت فينا، وقد أخذت هذه المفاهيم الجديدة الفئة المستغربة من مجتمعنا، والتي أطلقت على نفسها المستنيرة أو التقدّمية إذ عدت التوجّه نحو الغرب والتقدّم إليه، وتقليده، ونزع كامل الشخصية الإسلامية تنوّراً. وبدأت المفاهيم الجديدة تدخل صراعاً مع المفاهيم الإسلامية. وتميّزاً للشخصية لا بدّ من تبنيّ تلك المفاهيم التي تنبع من شخصيتنا، وصياغة دستورٍ يقوم على أساسها تعتمد عليه الدولة الإسلامية التي ندعو لها، والتي نعتقد أنّ في قيامها سعادة للمسلمين جميعاً، ثم للبشر كافةً.

ربما انطلقت دولة على المنهج الإسلامي، أو وافق مسؤول على تبني الإسلام أو توصّل الدعاة نتيجة التربية والدعوة إلى العودة إلى الإسلام، أو الاستعداد إلى الحكم فإنه من الضرورة اتّخاذ الدستور القائم على المفاهيم الإسلامية، وربما كان في طرحه زيادة في التجاوب والانخراط في صفوف أصحاب الفكرة الإسلامية. وانطلاقاً من هذا فإني سأطرح هذا المشروع القابل للمناقشة والحذف والإضافة.

تعدّ الدولة التي انطلقت منها الفكرة بدءاً القاعدة الأساسية، ثم تنضمّ إليها بقية الأقاليم تبعاً لقبول الفكرة، فتنشأ الدولة الإسلامية على النظام اللامركزي مع شيءٍ من التحوير. ولا بدّ من أن يكون في الدستور شيئاً من المرونة يسهل معه الاستنباط، لذا عندما لم أجد نصاً مُلزماً استعمل عبارة [يُفضّل].

الفصل الأول

الأمّة والدولة

المادة الأولى: تشمل الأمة كل فردٍ يعتنق الإسلام، ويُؤمن بتطبيق منهجه بغضّ النظر عن موطنه، وجنسيته، ولونه.

المادة الثانية: تضمّ الدولة الأقاليم التي تُطبّق المنهج الإسلامي.

المادة الثالثة: يضمّ كلّ إقليم شعباً من الشعوب التي تتألّف منها الدولة الإسلامية.

المادة الرابعة: يُمكن أن يشمل الشعب الكبير كالشعب العربي والشعب التركي وغيرهما أكثر من إقليم.

المادة الخامسة: الشعب هو الجماعة التي تتكلّم لغةً واحدةً، وتُقيم متجاورةً.

المادة السادسة: يؤلّف الشعب الصغير جزءاً من إقليم، ويعود تقويم ذلك إلى المجلس التوجيهي الذي يُناط به تحديد ذلك.

المادة السابعة: تُعدّ اللغة العربية اللغة الرسمية الوحيدة عند الشعب العربي، واللغة الثانية عند بقية الشعوب. وتُدرّس بها العلوم الدينية، كما تُقام مدارس عربية لإعداد الأساتذة لهذه المادة، ولتعريب الشعب.

المادة الثامنة: تُعدّ لغة كلّ شعبٍ هي اللغة الرسمية في الإقليم الذي يسكنه أفراده موقتاً ريثما تسود العربية فيه.

المادة التاسعة: يعود تحديد الأقاليم إلى المجلس التوجيهي.

المادة العاشرة: يُمكن نزع جُزءٍ من إقليم، وضمّه إلى آخر بناءً على المصلحة، أو طلبٍ من أهل الجزء المنزوع.

المادة الحادية عشرة: لا يتمّ النزع إلاّ بموافقة المجلس التوجيهي.

المادة الثانية عشرة: تُعدّ راية الدولة «علم البلاد» واحدةً في الأقاليم كلّها.

المادة الثالثة عشرة: راية الدولة ذات لونٍ أخضر، ويكون طولها ضعف عرضها.

المادة الرابعة عشرة: يحقّ لكُلّ مُسلمٍ أن يدخل أرض الدولة الإسلامية بعد التأكد من نُبل هدفه.

المادة الخامسة عشرة: يحقّ لأهل الكتاب ومن يلحق بهم الدخول إلى أرض الدولة الإسلامية. تُجّاراً وزُوّاراً وسائحين أفراداً وجماعات لا يزيد أفرادها على السبعة أشخاص.

المادة السادسة عشرة: لا يحقّ لغير المسلمين الذين يدخلون دار الإسلام التجارة بالمحرمات أو حمل شيء منها.

المادة السابعة عشرة: على غير المسلمين الذين يدخلون دار الإسلام التقيّد بالأنظمة المرعية فيها مثل لباس الحشمة، وعدم ارتكاب المنكرات، وحمل المعلومات، والتجسس، ونشر الشائعات و...

المادة الثامنة عشرة: على السلطة الإسلامية مراقبة الغرباء بأناةٍ وأمانةٍ.

المادة التاسعة عشرة: في كُلّ إقليم رئيس تُختار تسميته في الإقليم. ويُعدّ والياً على منطقته.

المادة العشرون: يُشترط في الوالي شروط عضو المجلس التوجيهي نفسها.

المادة الحادية والعشرون: يُختار الوالي من قبل أهل العلم وباستشارة الخليفة.

المادة الثانية والعشرون: لا يحقّ للوالي مخالفة الخليفة، بل يُعدّ تابعاً، ويتلقّى التعليمات منه.

المادة الثالثة والعشرون: يرأس الوالي الوزارة المحلية.

الفصل الثاني

المجلس التوجيهي[1]

المادة الرابعة والعشرون: مهمة المجلس التوجيهي:

أ ـ اختيار الخليفة.

ب ـ نصيحة الخليفة.

ج ـ توجيه الدولة.

د ـ استنباط القوانين من الشريعة الإسلامية.

المادة الخامسة والعشرون: يتألف المجلس التوجيهي من مائة عضو.

المادة السادسة والعشرون: يختار أعضاء المجلس التوجيهي من العلماء من الأقاليم كافةً.

المادة السابعة والعشرون: لا تتساوى الأقاليم في عدد مُمثليها. ولا يُراعى عدد السكان، ولا اللغة.

المادة الثامنة والعشرون: يُفضّل تمثيل الأقاليم كلها في المجلس التوجيهي، ولا يُشترط، فحيثما وجد أهل لذلك اختيروا.

المادة التاسعة والعشرون: يشترط في عضو المجلس التوجيهي:

أ ـ أن يكون مسلماً.

---

(١) يدعو صاحب السلطة العلماء أول مرة لاختيار المجلس التوجيهي.

ب ـ من أهل العلم.

ج ـ ممن يشهد له بالصلاح.

د ـ كامل العدالة الاجتماعية.

هـ ـ لم يُسبق له أن أُقيم عليه حدّ، أو أُدين.

و ـ قد جاوزت سنّه الأربعين سنةً هجريةً.

ز ـ ترشيح أهل العلم له.

ح ـ لا يطلب ترشيح نفسه ولا يسعى وراء ذلك.

المادة الثلاثون: مدة عضوية المجلس التوجيهي خمس سنوات.

المادة الحادية والثلاثون: يمكن إعادة اختيار العضو حتى تصل سنّه إلى السبعين عاماً هجرية.

المادة الثانية والثلاثون: تنتهي عضوية المجلس التوجيهي في الحالات الآتية:

أ ـ الوفاة.

ب ـ ارتكاب أمرٍ يُدان فيه.

ج ـ الطعن فيه من جماعة.

د ـ مخالفة شرط من شروط العضوية.

الفصل الثالث

السُّلطة التَّنفيذيَّة

المادة الثالثة والثلاثون: الخليفة هو رأس السلطة التنفيذية.

المادة الرابعة والثلاثون: يتألّف في كُلّ إقليم سلطة تنفيذية محلية باستثناء الجهاد، والخارجية، والمالية.

المادة الخامسة والثلاثون: يختصّ الإقليم المركزي بمكان إقامة الخليفة، والمجلس التوجيهي، والسلطة التنفيذية المركزية التي تشمل الجهاد، والخارجية، والمالية.

المادة السادسة والثلاثون: يمكن لكلّ إقليم أن يكون هو المركزي، بناءً على رأي الخليفة وموافقة المجلس التوجيهي.

المادة السابعة والثلاثون: يُفضّل أن يكون مقرّ الخليفة بعيداً عن مكّة المكرّمة، والمدينة المُنوّرة كي لا تتعرّضان للخطر الذي تتعرّض له العواصم عادةً أثناء الحروب.

المادة الثامنة والثلاثون: يمكن أن يُقيم الخليفة في عاصمة الإقليم المركزي، ويُقيم أعضاء المجلس التوجيهي في مكّة المُكرّمة أو المدينة المُنوّرة، والاتّصالات الحديثة تُؤمّن سهولة الاتّصال.

المادة التاسعة والثلاثون: تشمل السلطة التنفيذية عدداً من الوزارات لكلٍ منها اختصاصها.

الفصل الرابع

الخليفة

المادة الأربعون: الخليفة هو المرجع الأعلى للدولة.

المادة الحادية والأربعون: الخليفة بيده إعلان الجهاد، ووقف القتال، وتوقيع المعاهدات، وهو إمام المسلمين، وباسمه تُقام الحدود بعد موافقته عليها.

المادة الثانية والأربعون: يختار أعضاء المجلس التوجيهي بعد الاستشارة.

المادة الثالثة والأربعون: يختار الوزراء، بعد استشارة أعضاء المجلس التوجيهي.

المادة الرابعة والثلاثون: يستشير أعضاء المجلس التوجيهي في قضايا الدولة، والأمور الفقهية، ويعطي الحكم بعد الاستنارة برأي من استشار. والاستشارة ليست ملزمة له إلاّ أن يكون إجماعاً على رأي من قبل أعضاء المجلس التوجيهي.

المادة الخامسة والأربعون: يتقيّد الخليفة بمصادر التشريع الإسلامي، ولا يصحّ أن يُخالف أيّة نقطة.

المادة السادسة والأربعون: يُشترط في الخليفة شروط أعضاء المجلس التوجيهي.

المادة السابعة والأربعون: يُختار من قبل أعضاء المجلس التوجيهي من بين الأعضاء أو من غيرهم.

المادة الثامنة والأربعون: يُفضّل أن يكون قد تجاوز السنة الخمسين من عمره.

المادة التاسعة والأربعون: ليس هناك مدة محددة للخليفة، ولا ينهي خلافته سوى:

أ ـ الوفاة.

ب ـ الكفر البواح.

ج ـ اختلال العقل.

المادة الخمسون: يُفضّل أن يتنازل مع بلوغ السنة السبعين من عمره.

المادة الحادية والخمسون: إذا غاب الخليفة لسفرٍ أو مرضٍ ناب عنه آخر يُعيّنه هو مدة غيابه فقط.

المادة الثانية والخمسون: إذا حلّت الوفاة بالخليفة حلّ مكانه أحد أعضاء المجلس التوجيهي ريثما يختارون خليفة مكانه.

المادة الثالثة والخمسون: يُفضّل ألاّ يكون الخليفة الجديد ابناً للأول أو من قرابته مع جواز ذلك، خشية الاستئثار بالسلطة أو نقل الخلافة إلى وراثة.

المادة الرابعة والخمسون: يُشترط فيمن ينوب عن الخليفة ما يُشترط في الخليفة.

المادة الخامسة والخمسون: تصحّ إمامة المفضول مع وجود الفاضل.

المادة السادسة والخمسون: لا يصحّ وجود أكثر من خليفة في دار الإسلام فإن قام أحد يُنازعه وقف العلماء ورجال الأمن، والناس بجانب الخليفة، وحاولوا ثني المُخالف عن غيّه فإذا استجاب انتهى الأمر، وإلاّ قاتلوه حتى يثوب إلى رُشده أو يُقتَل.

المادة السابعة والخمسون: لا يصحّ موافقة الخليفة على انفصال إقليمٍ من بلاد المسلمين عنها بل عليه إعادته ولو بالقوة. ويقف أهل العلم في ذلك الإقليم إلى جانبه.

المادة الثامنة والخمسون: يصحّ أن يكون الخليفة من أيّة جنسية، ومن أيّ إقليم.

الفصل الخامس

الوزارات

المادة التاسعة والخمسون: يُحدّد عدد الوزارات حسب المصلحة.

المادة الستون: وزارات الجهاد، والخارجية، والداخلية، والمالية، والتعليم، والعدل، والتعليم العالي، وأهل الذمة، والدعوة وزارات أساسية.

المادة الحادية والستون: يُشترط الإسلام فيمن يتسلّم الوزارات الأساسية.

المادة الثانية والستون: لا يشترك أهل الذمة في الجهاد.

المادة الثالثة والستون: لا يُعفى أهل الذمة من الجزية إذا اضطروا للقتال.

المادة الرابعة والستون: يستفيد مقاتلو أهل الذمّة من الغنائم.

المادة الخامسة والستون: ينطلق الجهاد مما حدّدته الشريعة الإسلامية.

المادة السادسة والستون: السفراء والقناصل والممثلون في الخارج يُشترط فيهم الإسلام.

المادة السابعة والستون: تنطلق العلاقات الدولية مما حددته الشريعة الإسلامية.

المادة الثامنة والستون: يشترط الإسلام في قوات الأمن الداخلي.

المادة التاسعة والستون: يرتبط الأمن الداخلي بوزارة الداخلية، ويُعدّ العسس جزءاً منه.

المادة السبعون: تتبع دائرة الزكاة وزارة المالية، ولها صفتها الاستقلالية.

المادة الحادية والسبعون: ينطلق التعليم من الروح الإيمانية. وتُوجّه المواد كلها توجيهاً إسلامياً.

المادة الثانية والسبعون: تتبع دائرة الترجمة وزارة التعليم العالي، ولها صفتها الاستقلالية.

المادة الثالثة والسبعون: تُوجّه وسائل الإعلام كلها للدعوة.

المادة الرابعة والسبعون: تحظر وسائل الإعلام الأجنبية في البلاد.

المادة الخامسة والسبعون: يمكن لأهل الذمة تسلم مناصب وزارية في الوزارات الأخرى، ويكون عندها الوكيل أو الأمين العام مسلماً.

الفصل السادس

السلطة القضائية

المادة السادسة والسبعون: السلطة القضائية منفصلة.

المادة السابعة والسبعون: لا حكم للسلطة التنفيذية على القضاء.

المادة الثامنة والسبعون: لا يتدّخل وزير العدل في عزل القضاة وتنقلاتهم.

المادة التاسعة والسبعون: وزير العدل له صفة إدارية ورسمية.

المادة الثمانون: قاضي القضاة هو الذي يتدخل في أمر القضاة من نقل، وعزل، وترفيع.

المادة الحادية والثمانون: لا يتسلّم أهل الذمة القضاء.

المادة الثانية والثمانون: يتحاكم أهل الذمة إلى محاكم خاصة بهم، يتولّون أمرها بأنفسهم وذلك فيما يتعلّق بشؤونهم الدينية، وعلاقاتهم فيما بينهم.

المادة الثالثة والثمانون: يُصادق وزير العدل على قرارات محاكم أهل الذمة.

المادة الرابعة والثمانون: يمكن أن يتقاضى أهل الذمة إلى محاكم إسلامية، ولا يحق لهم بعدها نقض الحكم وإعادته إلى محاكمهم الخاصة.

الفصل السابع

مباحث مُستقِلّة

المادة الخامسة والثمانون: الدولة مسؤولة عن تأمين العمل للمواطن.

المادة السادسة والثمانون: لا تسمح الدولة للفرد أن يبقى عاطلاً.

المادة السابعة والثمانون: تدفع الدولة راتباً معيناً للفرد في حال العجز والشيخوخة.

المادة الثامنة والثمانون: الناس جميعاً متساوون أمام القانون في الإطار الذي حددته الشريعة الإسلامية.

المادة التاسعة والثمانون: تحدّد أعمال خاصة تمارسها المرأة كالتعليم والطب، والتمريض، والصيدلة.

المادة التسعون: تعمل الدوائر على تكليف المرأة بنصف العمل الذي يُكلّف به الرجل لأن عملها للضرورة، ولاستيعاب عددٍ أكبر من النساء ولبقاء المرأة بعيدةً عن منزلها أقل وقت ممكن. ويدفع نصف الراتب كاملاً.

المادة الحادية والتسعون: تمنع التجارة بالمحرمات، وتُخلى الأسواق منها.

المادة الثانية والتسعون: ما يُحرّم على المسلمين، ويحلّه أهل الذمّة يبقى في أحيائهم، ولا يصحّ نقله إلى أحياء المسلمين، ولا المجاهرة به.

المادة الثالثة والتسعون: تحول الدولة دون الاختلاط في الدوائر كلها، وتُراعي تطبيق الشريعة الإسلامية.

المادة الرابعة والتسعون: تعمل الدولة على تدريب الشعب كله بمعدل ساعتين أسبوعياً على الأسلحة، وتُطبّق في المدارس كنصاب، وفي المعامل، وتفتح المدارس لذلك، وتُعدّ ذلك إلزامياً.

المادة الخامسة والتسعون: تصدر كل وزارة ودائرة لائحة تفصيلية لها تُقرّها الوزارة المسؤولة ويُصادق عليها المجلس التوجيهي.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

